بروفيسور كمال السعدي

مملكة الروبوتات

نقلها عن الكردية: نجاة خوشناو

روايـة

مملكة الروبوتات

بروفيسور كمال السعدي

مملكة الروبوتات

نقلها عن الكردية: نجاة خوشناو

روايـة

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى
2020

مملكة الروبوتات
الموضوع: رواية
تأليف: برفيسور كمال السعدي
ترجمة: نجاة خوشناو
تدقيق لغوي: أ.م. د. مزدة حسن محمد
تحرير: لينه عامر.
تصميم الغلاف: دار ظمأ
إخراج: دار ظمأ
عدد الصفحات: 262

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلةنشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تُعبر بالضرورة عن رأي الناشر

دار ظمأ للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - السويداء - الشارع المحوري
هاتف: ٢٠٣٢٥٢ - ١٦ - ٠٠٩٦٣
هاتف: ٢٠٣٢٥٢ - ١٦ - ٠٠٩٦٣
هاتف: ٢٠٣٢٥٢ - ١٦ - ٠٠٩٦٣
fatenbookshop@yahoo.com

مملكة الروبوتات

برفيسور كمال السعدي

ترجمها عن الكردية:

نجاة خوشناو

1

أصبحت عسكرياً ليفياً

كنت مراهقاً في السادسة عشرة عندما توفي والدي الملا **مصطفى**، الذي كان خطيباً في مسجد قرية **قوريتان**، بالإضافة إلى أخوتي وأخواتي الذين تزوّجوا واستقرت حياتهم، بقيت أنا ووالدتي الكفيفة والطاعنة في السن، بعد أن تركنا والدي دون معيل. وقبل مرور أربعين يوماً على وفاته، جلس عمي معي وأعطاني خمسة دنانير قائلاً:

– إنها حصّتك من الميراث الذي تركه لكم والدكم المرحوم.

وبما أنني كنت قليل الخبرة ولم تعركني الحياة بعد، لم أعرف ماذا أفعل بهذا المبلغ، خصوصاً وأن الإنسان في مثل هذا العمر الصغير لا يعلم كيف يتصرف الكبار في مثل هذه الحالات، بينما كانت والدتي الكفيفة عاجزة عن القيام بأي شيء، لهذا ليس من الغريب أن يكون لوفاة والدي أثراً كبيراً في نفسي جعلني مذهولاً وحائراً، أفكر عميقاً بكيفية تأمين قوت أيامي أنا ووالدتي الكفيفة.

لم أجد سوى صديق طفولتي الوحيد بجانبي. عندما وجدني محاصراً بهذه الهموم، مضطرباً وقلقاً، فما كان منه إلا أنه حاول زرع الاطمئنان في نفسي قائلاً:

– لا تقلق. يجب أن تعلم بأنك لست الوحيد الذي أخذ الموتُ والدَه، فمصير الإنسان الرحيل من هذه الدنيا، وكان هذا مصير

أجدادنا الذين سبقونا. أي يجب أن نعرف بأن الحياة مجرد محطة نمرُّ بها، وبذلك نتيقّن بأن الانسان لا يستطيع العيش خالداً إلى الأبد. يكفي أنك مازلت محاطاً بالأخوة والأخوات، أي لست وحيداً في هذه الدنيا، لذلك أجد من المستحسن أن نسافر إلى **أربيل** ؛ خاصةً عندما نسمع من الذين يذهبون إلى هناك، بأنهم يستمتعون بتناول وجبة من (كباب **أربيل**) المشهور بلذّته، أي من الممكن الاستفادة من هذا المبلغ بالاستمتاع بهذه الرحلة.

علماً بأنني حتى تلك الفترة من الزمن لم أرَ أية مدينة في حياتي ماعدا مدينتي، لذلك لم أعرف معنى مفردة (كباب)، فقد كنت أسمع من بعض الذين كانوا يذهبون إلى هذه المدينة، بأنهُ لابدّ من أن يتناول وجبة لذيذة من الكباب، وإن لم تتناوله كأنك لم تذهب إلى **أربيل** لذلك عندما اقترح صديقي فكرة السفر هذه، وجدتها معقولة شيء جميل أن تتوجه إلى مدينة **أربيل** ، هذه المدينة التي كانت تبتعد عن قريتنا مدة ساعتين سيراً على الأقدام، فقررنا أخيراً أن نتوكّل على الله وبدأنا السير رويداً رويداً، حتى وصلنا إلى قلعة **أربيل** في ظهيرة ذلك اليوم، فوجدنا مجموعة من الدكاكين والمحلات تحيط بالقلعة من جميع جوانبها وكأنها جدار محيط بها، شاهدنا أيضاً **سوق القيصرية** الكبير الذي كان يقع مقابل القلعة، حيث يعود تاريخها إلى مرحلة عصر العثمانيين ويعتبر أحد الاسواق التراثية القديمة. للقلعة مدخلين أساسين أحدهما للدخول والآخر للخروج. أحد الأبواب كبير جداً ومصنوع من الخشب، كان المدخل الآخر من دون باب، مفتوح وواسع ومنحدر ليسهّل سير الركاب والعربات المحملة الثقيلة، بالإضافة إلى وجود درج طويل للمواطنين أثناء صعودهم ونزولهم.

جذب منظر القلعة نظرنا أنا وصديقي، وقررنا الصعود عبر السلّم

الموجـود هنـاك، ودخلنـا مـن البوابـة إلى القلعـة، فوجدنا شـارعاً واسـعاً يتوسـط القلعـة ويقسـمها إلى قسـمين، وفيهـا حمـام ومسـجد وبعـض الدكاكـين، دخلنـا المسـجد وغسـلنا وجوهنـا مما علق بنـا من أتربـة وغبار ونحـن في طريقنـا إلى **أربيل**، بعد أن أخذنا قسـطاً من الراحـة، سرنا بروية نحوالبوابـة الأخـرى التـي كانـت تأخذنـا إلى جهـة محكمـة **أربيـل** ثـم إلى **حـي طـيراوه**، فأخذنـا نسـير عـلى الطريـق الموجود تحـت القلعة ونسـتدير عـلى مهـل دون أن نعـرف إلى أيـن نذهـب، باعتبارهـا المـرة الأولى التـي نسـافر فيهـا إلى مدينة أربيـل، فوصلنـا إلى دكان، لكن الـذي جذب نظرنا هـي العبـارة الموجـودة عـلى واجهـة أحـد المحـلات ـ **مطبعـة كردسـتان** ـ واجهتـه زجاجيـة وقـد عرضوا فيـه مجموعة من الكتـب الأدبيـة والثقافية، كان هنـاك أيضـاً آلة تصوير شمسـية توضـع على ثلاثة مرتكزات خشـبية، فوجدنـا شـخصاً واقفـاً خلفها مُنشـغل بتصوير امـرأة ورجـل. كان هناك مَـن يراقـب هـذا المصور وعملـه، ذهبنـا إليه وسـألناهُ:

– هل يمكننا أن نحصل على صورة لنا؟

فأجاب قائلاً:

– اذهبـا إلى صاحـب هـذه المطبعة والمكتبـة **كيوي مكريـاني** الذي وضع هـذه الكاميـرا مـن أجـل التقـاط الصـور لهـؤلاء الذيـن يحتاجونهـا لإتمـام المعاملات الرسـمية.

توجهنا إليه وألقينا عليه السلام، فأجابنا قائلاً:

– يـا أبنائـي الأعـزاء لا تقولـوا (السـلام عليكم) بـل قولـوا (بيانيت بـاش) أي صبـاح الخـير. يجـب أن تعرفوا بأن كل مـا تقولانـه وترددانه من أجـل التعامـل مـع العرب فقـط، أما نحن الأكـراد يجب أن نلجـأ إلى اللغة الكردية، ثم سـألنا:

– تفضلا ماذا تريدان يا أبنائي؟.

– نريد التقاط صورة ونحن نرتدي ملابس (الأفندية).

– حسنٌ، اخلعا ملابسكما هذه وارتديا ملابس الأفندية، ثم قفا أمام عدسة التصوير وانظرا إلى العدسة دون أن تتحركا حتى يتم التقاط الصورة.

أخيراً التُقطت لنا صورة معاً، ثم صورة لكل منا على حدى. بعد ذلك توجّهنا إلى مطعم الكباب، علماً أنها المرة الأولى التي أرى فيها الكباب. جلسنا على إحدى الموائد، وجاء أحد العاملين ليسألنا:

– تفضلا كم شيش تطلبان؟ التفتُّ إلى صديقي وقلت له:

– لم أفهم ما قاله هذا العامل؟ ماذا تعني كلمة الشيش؟

فأجابني قائلاً:

– يتم شيُّ الكباب بهذا الشيش (وأشار إلى شخص جالس أمام إحدى الموائد، حيث تم وضع وجبة من الكباب مع كوب من اللبن وقطعة خبز مع الفلفل الحار والخضروات) إنه يشبه ما تراه أمام ذلك الرجل.

ثم التفتُّ إلى العامل وطلبت منه:

– أريد أربعة أشياش وأيضاً مثلما وُضِعَ أمام ذلك الرجل، لا تنسَ صديقي أيضاً.

وبذلك أكلنا وجبة غريبة عنا نحن أهل الريف، ثم شربنا الشاي السنكين المعروف لدينا، وفي تلك اللحظات كنت راغباً في المزاح مع صديقي مزحة ثقيلة، حيث خَطرَت لي فكرة غريبة والتفتُّ إليه قائلاً:

- ابقَ أنت جالساً، سأذهب قليلاً ثم أعود.

ذهبت إلى صاحب المطعم ودفعت حسابي فقط وخرجت مباشرة. كان هناك مقهى خاص بهواة تربية الحجل يقع بالقرب من مطعم الكباب، حيث يجري في هذه المكان عراك بين حجلين، بعد الانتهاء يقوم صاحب الحجل الخاسر بعرضه للبيع بأبخس الأثمان، أما بالنسبة إلى الفائز، ستجد سعره يتصاعد، بحيث أن صاحبه كان يطلب مبلغاً كبيراً في حال عرضه للبيع، جلست هناك لبضع دقائق وشربت شاياً حلواً، في هذه اللحظات تذكرت صاحبي ومصيره، كنت أسأل نفسي قائلاً: (يا ترى كيف سيتصرف صديقي بعد أن وضعته في موقف محرج جداً، وأنا متأكدٌ بأنه لا يحمل أي فلس في جيبه؟ خاصة بعد تناوله وجبة دسمة، لذا من الصعب أن يتركوه دون أن يدفع! كنت أفكر بالكثير من المفارقات التي قد يتعرض لها صاحبي هذا؛ ومنها مثلاً (التعرض إلى الضرب المبرّح، أوأن يُفرضَ عليه غسل الاطباق وجميع أواني المطعم) مع أنني كنت متأكداً بأنهم لن يستفيدوا منه في هذا الأمر، وقد يتم تسليمه إلى الشرطة. نهضت أخيراً وتوجّهت إلى المطعم، فشاهدت صديقي مربوطاً على أحد أعمدة المطعم، فرح كثيراً حين شاهدني وصرخ عالياً:

- تعالوا يا أولاد الكلاب فكّوا الحبل! ها قد جاء صديقي!.

لم تثقوا بكلامي عندما أخبرتكم أنه سيأتي حتماً (استرسل صديق في مخاطبتهم) عودته في هذه اللحظات تؤكد بأني كنت صادقاً معكم ولم أكذب، لكن يبدو أنكم تعمّمون بعض المظاهر السلبية على الجميع دون التفريق بين الصالح والطالح، خاصة مع وجود بعض المنحرفين الذين لا يدفعون، وهم في الأغلب من الوجوه المعروفة وسط مجتمع صغير مثل المجتمع الأربيلي في هذه المرحلة، لذلك ابتعدوا عن التعميم في هذا الأمر، لأنه هناك ممن لا يقصدون بل يتعرضون لمزحة من

أصدقائهم كما حدث معي اليوم؛ لذا اعتقد بأن صديقي قد أوقعني في مصيدة المزاح الثقيل، يبدو أنكم التقدير وظننتم بأنني سأتصرف مثل هؤلاء الذين يهربون بعد تناول الوجبة!

أخيراً توجه صاحب المطعم نحوصاحبي واعتذر إليه قائلاً:

– ابني العزيز لا تلمنا، يجب أن تعلم بأننا نصادف العديد من هذه المواقف يومياً، يتناولون الوجبة ثم يحاولون الهرب، خصوصاً وأن صاحبك هذا قد قام بدفع حسابه فقط، ثمَّ خرج مباشرة دون أن يلتفت إليك. تناولتَ الوجبة حتى شبعتَ، ثم تفاجئنا بأنك عاجز عن الدفع، لا سيما وأن ملامحك ومظهرك يشبه ملامح المحتالين والمراوغين، لهذا لم نثق بك وبما كنت تقوله!

وضعت يدي في جيبي، ودفعت فاتورة صاحبي، ثم سألت صديقي:

– إلى أين سنذهب الآن؟

لكنني وجدته صامتاً ويبدو أنه كان متذمراً، يبرطم بكلام غير مفهوم، ثم فجأة سمعته يصرخ عالياً:

– لقد تحوّلت هذه الوجبة إلى (زقنبوت[1]) بعد أن ضربوني وركلوني دون أية رحمة، حتى أني استفراغت ما تناولته من غذاء نادر بالنسبة لنا نحن أهل الريف! لم أفهم لماذا تركتني في المطعم؟ كان من المفترض أن تنتظرني حتى أنتهي من تناول وجبتي، حينها كنا سنخرج معاً دون أن تُقحمني في مثل هذه المشكلة المخجلة جداً، بالذات بعد أن ربطوني بأحد أعمدة المطعم.

استرسل صاحبي المسكين في حديثه قائلاً:

– بعد خروجك من المطعم مباشرة جاء أحد عمال المطعم من

1) طعام مُر المذاق.

ذوي الأجساد الضخمة والعضلات المفتولة، ربطني بقوة وبدأ يضربني بحزام ظهره، توسلتُ إليه كي يرأف بي، لكن دون جدوى.

ضحكت كثيراً على تبعات هذا المزاح الثقيل. وقررنا العودة إلى القرية، وصلنا مع حلول الليل، فوجدنا شبّان القرية قد تجمّعوا حولنا نحن الاثنان وهم يسألون عن سبب غيابنا طيلة ساعات هذا النهار، سردنا لهم أحداث هذا اليوم، لكن بعضهم لم يصدقنا، لذلك قاموا بشم رائحة أفواهنا ليتأكدوا من تناولنا الكباب الذي يتميز برائحته المميزة!

بعد عدة أيام قررت الذهاب إلى **أربيل** للحصول عن عمل، وبعد البحث والسؤال أجابني أحدهم:

يا ولدي العزيز ما زلت طفلاً، وليس هناك عمل معين يناسب سنّك، إلا في حال ذهابك إلى مدينة **الموصل**، حيث نسمع بأن **الإنكليز** يسجلون الأسماء من أجل التطوع في الجيش الليفي.

لهذا قررت السفر بواسطة سيارة من الخشب حيث كانت وسيلة السفر بين المحافظات في تلك الحقبة من الزمن. عندما وصلت إلى هناك توجّهت إلى معسكر **الإنكليز** في منطقة **الغزلاني** بواسطة عربة يجرها حصان، بعد نزولي دفعتُ لصاحبها خمسين فلساً، في هذه اللحظات لاحظ أحد الجنود الموجودين هناك قدومي فسألني:

– كم دفعتَ لصاحب العربة؟

– خمسين فلساً .

– لقد دفعت أكثر من المطلوب، اذهب إليه واسترجع منه ما زاد عن حقه، وإذا رفض وأصرَّ على موقفه، قل له أنه سيُعاقب.

أجبتُه:

– لقد سامحته، المهم أنني تمكّنتُ من الوصول إلى هنا. أريدُ التطوع في الجيش الليفي.

– ما زلتَ صغيراً، يُشترط ألا يقلَّ عمرك عن الثمانية عشر عاماً.

بدأتُ بالبكاء:

– أنا يتيم، والدي متوفَّى ووالدتي كفيفة، ترك لنا والدي خمسة دنانير فقط ولا معيل لنا.

توسلتُ إليه كي يسمح لي بالدخول إلى المعسكر وتدوين اسمي للتطوّع، أخيراً قال لي:

– حسناً، سأسمح لك بالدخول، لكنني لستُ متأكداً من أنهم سيدوّنون اسمك أم لا؟

– اسمح لي بالدخول فقط، وهناك سأحاول إقناع مسؤول هذا المعسكر، عساه يرأف بحالي ويقبل طلبي.

لم يبقَ أمامي سوى اللجوء إلى مسؤول المعسكر الذي كان ضابطاً كبيراً. لاحظتُ وجود مجموعة من **الكرد الأزديين** و**المسيحيين** يتجمعون حول هذا الضابط ويسجّلون أسماءهم، ومجموعة أخرى يستلمون الملابس العسكرية ثم يتوجهون نحو ساحات التدريب، ذهبت إليه وشرحت له وضعي وتوسلت إليه أن يقوم بتسجيل اسمي، لم يوافق في البداية وقال لي:

– يا ولدي مازلتَ طفلاً، ويجب أن تكون في السن القانوني الذي يسمح لك بالتطوع، لكن بكائي ورجائي وتوسلاتي أثّرت فيه كثيراً، فوافق وقال لي:

– حسنٌ، سنسجل اسمك، لكن هذا سيتوقف على مدى قوة إرادتك وتحمّلك صعوبات التدريب العسكري.

– كن على ثقة يا سيدي بأنني سأتحمّل كل التدريبات مهما كانت صعبة ومتعبة، لأنني يتيم وبلا معين، سأعتبر هذا أفضل وسيلة لتلبية متطلبات حياتي أنا وأمي الضريرة التي تحتاج للمساعدة.

سجلوا اسمي أخيراً، وسلموني الملابس العسكرية، ثم أرسلوني إلى إحدى الفصائل المختصة بالتدريب العسكري، ارتديت سترة وسروالاً قصيراً لونهما خاكي، كذلك اعتمرتُ (سدارة) قبعة عسكرية كغطاء للرأس مع تثبيت عدد من الريشات جانب الغطاء. يستمر التدريب من الصباح وحتى المساء، تتكرر هذه التدريبات يومياً، حتى أصبحت جزءاً من حياتنا.

في أحد الأيام، ناداني آمر الفصيل وقال:

– اذهب إلى السيد آمر مركز التدريب، فقد طلب حضورك لأمرٍ ضروري.

ذهبت إليه، وعندما قابلته قال:

– بني، إن القائد الأعلى للجيش الليفي في **العراق**، المتمركز في **الحبانية**، طلب عسكري صغير في السن ليكون سائقه الخاص، لذلك وقع عليك الاختيار كي تجمع أمتعتك الشخصية وتسافر إلى هناك بالقطار وسأزودك بكتاب رسمي من أجل ذلك.

– سيدي، أنت تعلم جيداً أنني لا أعرف قيادة السيارة، ولا أجيد اللغة الإنكليزية.

– هذه ليست مشكلة، سيعالجون هذه المسائل هناك.

نفّذْتُ الأوامر، جمعت أغراضي على الفور، ثم توجّهت إلى محطة

القطـار، بصحبـة عسـكريّ والكتاب الرسـمي الـذي أُرسِـلْتُ بموجبه إلى الضابـط الإنكليـزي الكبير.

يُدعـى الضابـط المقصـود الميجـر **سي. بويـلي** والـذي أصبـح مسـؤول القـوات الإنكليزية في **العـراق** بعد موت الجنرال **مود**، على كتفه مجموعة من الأنـواط العسـكرية التي تعود إلى فـترة الانتصار في الحـرب العالمية الأولى، فعندمـا وصلـت إلى هنـاك وحضرت أمـام الميجر، ابتسـم وهـو يُخاطبني:

– ولـدي، أنـت أصغر سـنّاً ممـا توقّعت! مـا حكايتك؟ وكيـف دخلت إلى صفـوف الخدمـة العسـكرية وما زلـت طفلاً ؟

بـدأتُ بـسرد أحـداث حيـاتي ومعانـاتي، وبـدا متأثـراً ممـا سـمعه. هَزَّ رأسـه وربّـتَ عـلى رأسي متـوددا، وخاطبنـي:

– اجلـس،لا تقلـق، اطمئـن، عليـكَ أن تعلـم بأنـك لسـتَ وحيـداً في هـذه الدنيـا، مـن الآن فصاعـداً سـأعتبرك بمثابـة فـرد مـن أفـراد عائلتي وسـتصبح سـائقاً شـخصياً لي ولعائلتـي.

– لكن ياسـيدي أنـا لا أعرف القيـادة ولا التحدث باللغـة الإنكليزية، ولن أفهـم كلامك؟

– هـذه مسـؤوليتنا، سأرسـلك إلى دورة لتعليـم القيـادة، وحـين تتقنهـا جيـداً سأسـلّمك سـيارتي، فتصبـح بذلـك سـائقي الخـاص.

– وماذا بشأن اللغة يا سيدي؟ أنا لا أجيدها.

– هـذه ليسـت مشـكلة ويمكـن حلّهـا؟ سـأضع ترجمـان لفـترة محددة كـي يقـوم بترجمـة الأحاديـث التـي سـتجري بيننـا، وعندمـا تتعلـم اللغة الإنكليزيـة بشـكل جيـد سـتعتمد عـلى نفسـك. أنـا متأكـد بأنك سـتتعلم بسرعـة، لأنـك مازلـت صغـيراً ويمكنـك الحفـظ والاسـتيعاب بشـكل

أسرع، ولكـن يجـب أن تجتهـد في التعلّـم.

أرسـلني إلى دورة تعليـم قيـادة السـيارات، وخـلال شـهر واحد فقط أجدتهـا ، حتـى أني تدرّبـت عـلى معظـم أنـواع المركبـات الصغـيرة منهـا والكبـيرة. أخـيراً جلـس أحـد الضبـاط بجانبـي، ليعمـل عـلى توجيهـي أثنـاء عبـور المرتفعـات والمنحـدرات، وقـد طبقـت جميـع تعليماتـه بدقـة، وعندمـا تيقن بـأنّي تعلّمتهـا تمامـاً، منحني شـهادة اجتياز الـدورة بنجاح، وأرسـلني بعدهـا إلى القائـد الإنكليـزي العـام.

هنّأني الميجر **سي. بويلي**، وأصدر الأمر بتسليمي المركبة وقال:

– من الآن فصاعداً أصبحتَ سـائقاً خاصاً بي، تتلقى الأوامر مني فقط.

في تلـك اللحظـات السـعيدة شـعرتُ بأن الله قد فتـح أمامي بابـاً كبيراً، حيـث تحوّلـت حيـاتي مـن العـوز والفقـر إلى حيـاة الاسـتقرار والسـعادة الحقيقيـة، مـن خـلال عمـلي ومعاملـة القائـد العـام للقـوات الإنكليزيـة معـي، التي كانـت تمثل حلماً خيالياً بالنسـبة لأمثالي من الفقـراء والمعوزين.

تعلّمـت اللغـة الإنكليزيـة خـلال فـترة يسـيرة، أصبحـت أتحـدث بطلاقـة، لذلـك كانـوا يعتبرونـني أحـد أفـراد العائلـة، وكنـت أعمل بين مكتـب الجنـرال وبيتـه، فقد سـلّموني سـيارة **جيب شـفرليت** العسـكرية، مـن أجل توصيـل الجنـرال إلى مكتبه في الصبـاح. وعندما يتّصلـون هاتفياً مـن المنـزل طالبـين حضوري كنـت أذهب عـلى الفـور لتلبيـة احتياجاتهم.

في يوم من الأيام طلبتني زوجة الميجر وطلبت مني قائلة:

– استعد لأننا سنخرج من أجل شراء بعض المستلزمات والمتطلبات.

قمـت بتجهيز السـيارة امتثـالاً لطلبهـا، ورفعت العلم البريطـاني المثبّت في مقدمـة السـيارة، حـين جـاءت زوجـة الجنـرال، أخبرتنـي بأنـه يجـب

إنـزال العلـم، لأنـه يخـص الجنـرال فقـط. بعـد ذلـك توجّهنا إلى السـوق وقمنـا بـشراء المسـتلزمات المطلوبـة. بعـد توصيلهـا إلى البيـت، توجّهـت إلى مكتـب الميجـر، عدنـا إلى البيـت بعـد انتهـاء الـدوام الرسـمي. كانـت زوجـة الميجـر قـد سردت مسـألة رفع العلـم للقائـد الذي ضحـك كثيراً، ثـم التفـت إليّ وقال:

– لا يُرفـع علـم دولـة (بريطانيا العظمـى) لزوجتي، بـل يُرفع لي فقط.

اعتذرتُ إليه:

– لن أكرر هذا مرة أخرى.

******

في مسـاء أحـد الأيـام، وعندمـا كان الميجـر ضمـن رتل من السـيارات التـي كانـت تنقـل المسـتلزمات العسـكرية مـن مدينـة **أربيـل** إلى منطقـة **الحبانيـة**، ومـا أن اقتربنـا من ماء **مورتكه** حيث كان شـقيقي الكبير يسـكن هنـاك، قلـت للميجر:

– سـيدي، قريتنـا قريبـة من هنـا وأنا في غاية الشـوق لشـقيقي، خاصةً وأننـي لم ألتـقِ بـه منـذ التحاقـي بالخدمة العسـكرية، هـل يمكننـي زيارته لمـدة سـاعة واحـدة فقط، كـي أطمئنهـم بأني أعمـل معكم؟.

– أين قريتكم؟ وما اسمها؟

أشرت بإصبعي إليها:

– إنها قرية **دارتو** تقع في المقدمة، ثم تأتي بعدها **باغمره** تلك منطقتنا.

– حسـنٌ، سـنأخذ اسـتراحة بالقـرب مـن مـاء **مورتكـه** حتـى تُنهـي زيارتـك وترجـع إلينـا، لكـن يجـب ألا تتأخر وتعـود قبل حلـول الظلام.

توجّهت على الفور إلى قرية **دارتو**. في الطريق صادفتُ ابن اخي الملا **محمد**، كان في طريقه إلى القرية أيضاً، اقتربت منه وأنا أقود سيارة الجيب، وشغلتُ مُنبهْ السيارة القوي ما جعله يرتبك، التفت إليّ خائفاً، نظر نحويّ ولم يعرفني، لأنني كنت أرتدي بنطالاً خاكياً مع غطاء الرأس العسكري ذي الريشات البارزة والملتصقة بالغطاء. شعر الملا **محمد** في هذه اللحظات بالرعب وفرَّ هارباً كالأرنب. وهو يردد بصوت عالٍ:

– أيّها الكافر ماذا تريد مني؟ اتركني!

أخرجت رأسي من نافذة السيارة وناديته:

– ملا **محمد** لا تهرب، أنا عمّك.

توقف في مكانه لبرهة، والتفت إليّ مدهوشاً، وعندما إطمأن تقدّم نحوي قائلاً:

– لماذا ترتدي هذه الملابس الغريبة؟ ما تعمل؟

وصلت وإياه قرية **باغمره** بهذا الزي العسكري، كان سكان القرية ينظرون إليّ بعين الاستغراب والعجب مما يرونه، اجتمعوا حولي، وجاء شقيقي ملا **سعيد** وسألني:

– متى أصبحت عسكرياً إنكليزياً؟

– تطوّعت منذ ستة أشهر، انطلقنا اليوم من مدينة **أربيل** لمرافقة الميجر إلى **الحبانية**، وقد أخذت إجازة قصيرة جداً من أجل زيارتكم، عليَّ ألا أتأخر، لأنهم ينتظرونني بالقرب من ماء **مورتكه** ويجب أن أعود إليهم بسرعة.

– أيُعقل ذلك، نحن لم نرك منذ فترة طويلة، كنا قلقين على غيابك، نشكر الله أنك بخير، عليك أن تتناول معنا وجبة العشاء.

– لا أستطيع، فأنا عسكريٌّ الآن، ويجب إطاعة الأوامر كي لا أتعرض للعقوبات، خاصةً وأن من أعمل عنده ليس ضابطاً عادياً بل قائداً عسكرياً إنكليزياً بارزاً في المنطقة كلها.

حينها وضع أخي خروفاً في سيارتي وقال:

– طالما أن هذا القائد يعاملك بإنسانية ويحترمك كثيراً، أرجوك أن تبلغه تحياتي واحترامي له، وقدّم له هذا الخروف هدية مني.

بعد توديع سكان القرية، عدت على الفور إلى القائد، وفرح كثيراً بعودتي:

– قلقتُ عليك، كنت سأعطي الأوامر بنشر القوات في المنطقة للبحث عنك في حال تأخرت أكثر. (في هذه اللحظات وقعت عيناه على الخروف وسألني) ما هذا؟

– إنه هدية شقيقي لك، وقد طلب مني تبليغك سلامه وتقديره الكبير تقديراً لتعاملك الإنساني واهتمامك الكبير بي.

ضحك القائد كثيراً:

–لكننا لا نستطيع ذبح هذا الخروف الجميل، ضميري لن يقبل بهذا.

******

أخيراً تحرّكنا نحومنطقة **الحبانية**، وعندما وصلنا سرد الميجر قصة الخروف الذي معه لزوجته.

تم تأمين مكان خاص لهذا الخروف، وبعد مرور عدة أشهر أصبح سميناً وكبيراً جداً، لذلك كان الميجر يسألني قائلاً:

– ماذا سنفعل بهذا الخروف؟ لاسيما وأنه يكبر يوماً بعد يوم، وقلبي لا يتقبل فكرة أن أراه مذبوحاً أمام عيني، فنحن نحبه كثيراً لأنه تربّى عندنا!

تمكنّتُ أخيراً من إقناعه هو وزوجته، بأنه من الطبيعي جداً ذبح الحيوانات للاستفادة من لحمها، لذلك قررنا ذبحه وأكله سوياً، كانت هذه هي قصة الخروف التي طالت كثيراً، لهذا كان الميجر يسرد للمسؤولين الإنكليز مجريات هذه الأحداث الطريفة ويضحكون كثيراً.

تغيرت حياتي بعد أن عملتُ مع الميجر **سي. بويلي**، وتعلّمت منه الشيء الكثير، مثل إتقان اللغة الإنكليزية واحترام الوقت، النزاهة والنظافة، اللطافة والإخلاص في العمل، وأداء الواجبات. وصل مدى ارتباطي بهذه العائلة إلى حد الانسجام التام، لا بل وصل الأمر إلى أنه لم يعرف أحد بأنني كردي، بل كانوا يعتقدون بأنني إنكليزي!

كان الميجر **سي. بويلي** يشرف على القوات الإنكليزية في **العراق** و**إيران** و**تركيا** و**قبرص** و**الأردن**، لذلك كان يزور هذه البلدان بين فترة وأخرى، ويتفقد القوات هناك، بالإضافة إلى زيارة الرؤوساء والمسؤولين الكبار لتوضيح سياسة بريطانية الرسمية ورؤيتها المستقبلية وكيفية إجراء بعض النشاطات والبرامج المشتركة، وكان يأخذني معه أثناء قيامه بهذه الزيارات، وخاصةً أثناء زيارة الرؤوساء والمسؤولين الكبار.

أثناء زيارته إلى شاه **إيران** أوالملك الأردني **عبدالاله** أوالملك العراقي **فيصل الثاني**، كانوا ينظّمون مراسم حرس الشرف ويرفعون علم البلدين ويفرشون البساط الأحمر.

وفي إحدى المرات توجّهنا إلى مدينة **بغداد**، لزيارة الملك **فيصل الثاني**، كان ذلك بحضور خاله **عبدالاله** ورئيس مجلس الوزراء **نوري سعيد**، حيث تم استقبالنا في قصر الرحاب، في القاعة الرسمية فيه،

لكـن كان الميجـر في عجلـة من أمـره ولا يريـد أن يتأخر، لذلـك طلب من مُضيفهِ :

– لا حاجـة بنـا إلى دخـول القاعة، أرى أنه من الأفضل احتسـاء القهوة والجلـوس معاً لوقتٍ قصـير في حديقة القصر.

التفتُ إلى **عبدالاله** وقال له:

كونـوا حذرين مـن ازدياد شـعبية روّاد الحزب الشـيوعي الذين يتلقون المسـاندة والدعـم من **الاتحاد السـوفيتي**، فقـد انتشروا بسرعـة في كل المدن العراقيـة، ومـن الطبيعـي أن هذه المسـألة المصيرية أصبحت تُهـدد مصالحنا في المنطقـة، لـذا يجـب أن يكـون لديكـم برنامـج لمواجهـة هـؤلاء، يجـب أن تحـدّوا من توسّـع وانتشـار شـعبيتهم المتزايـدة، خاصـة وأن الكلب إذا شَـبعَ سـيبطش بصاحبـه؛ لهـذا يجـب تجويعهـم أكثـر كـي يطيعـوا القوانين والتعليـمات الأمنية السـارية في الفـترة الصعبة.

في تلك الجلسة التفت **نوري سعيد** نحوي وسألني:

– أنت من أية منطقة في **بريطانيا العظمى** ياترى؟

أجبتهُ باللغة العربية:

– سيدي، أنا كردي ومن أهالي مدينة **أربيل**.

حينـما أخبرتـهُ بمـن أكـون، اسـتغرب وذُهـلَ! فالتفـتَ إلى الميجـر وخاطبـه باللغـة الإنكليزيـة:

– لم أعلـم أن هـذا الولد الوسـيم عراقيٌّ، إنه يشـبه الإنكليز في تصرفاته وتعاملـه مـع الأخرين، لم أتوقع بأنـه كردي عراقي.

أجابه الميجر قائلاً:

– صحيح، إنه شاب مؤدبٌ ونظاميّ وأنيق، لقد تمت تربيته وتعليمه تحت إشارفنا، هذا بالإضافة إلى أنه ينفّذ واجباته بدقة.

وضع **نوري سعيد** يده على كتفي وقال لي:

– أنت ابننا ونعتز بك، ورفعت رؤوسنا باعتبارك موضع ثقة الميجر **والإنكليز**، فإن احتجت لشيء ضروري أومساعدة ما، بإمكانك زيارة بيتنا في حي الصالحية أو في مقرّ مجلس الوزراء، وبهذا الشكل قضينا هذا اليوم في قصر الرحاب بحضور الملك **فيصل**، ثم عدنا إلى مقرّنا في بحيرة **الحبانية**.

رافقتُ الميجر كذلك في زيارته إلى المملكة الأردنية الهاشمية، وقد استقبالنا الملك **عبدالله** شخصياً في قصر الضيافة الملكية. تحدث الميجر **سي. بويلي** مع الملك قائلاً:

– أنا هنا من أجل إبلاغكَ بعتب وشكوى شديدين من **بريطانيا**، بسبب أنشطة المجموعات العربية المتزمّتة والعنيفة التي تستهدف مصالحنا والمصالح اليهودية المتحالفة معنا، لا بل إن نشاطهم يزداد يوماً بعد يوم، وقد أصبحت تشكل خطراً كبيراً يهدد مصالحنا العليا في المنطقة، حضرتكم تعلمون مدى أهمية دولة إسرائيل بالنسبة إلينا، لذلك سنعتبر أن أيَّ خطر يهدد مصالح **اليهود**، بمثابة تهديد حقيقي **لبريطانيا العظمى** نفسها، لهذا يجب وضع حدّ لمثل هذه النشاطات الإرهابية وقمع أفكارهم الرجعية، يجب إعادة الاستقرار والأمن إلى هذه المنطقة، خاصة لحلفائنا **اليهود في إسرائيل**، يجب نشر أفكار التعايش المشترك والأخوة والانسجام بين المواطنين في بلدكم، والتوجه نحوتحسين العلاقات مع **إسرائيل**، نحن لا نهتم بكيفية التعامل مع المواطنين في البلدان العربية عموماً، لا نهتم كثيراً بما تقولونه في العلن، الأهم لدينا أن تكونوا حلفاء لنا ولليهود حتى ولو في السرّ، المطلوب

سحب الدعم للحركات المتطرفة التي تثير المشاكل وتضرب مصالحنا، خاصةً وأن مصالح حلفائنا اليهود تلتقي مع مصالحنا جميعاً، وفي حال بدر منكم عكس هذا، سنُعلمكم بذلك برسالة تنديد شديدة اللهجة.

بعد انتهاء اللقاء قمنا بزيارة القطعات العسكرية الإنكليزية، واجتمع الميجر مع الضباط والعاملين المتواجدين هناك، تبادل معهم الأفكار والمقترحات، وزوّدهم بالتعليمات وبكل مايتعلق بالتوصيات البريطانية الجديدة، وبذلك انتهت الزيارة بعد يومين، وعدنا إلى **العراق**.

******

مع أن حياتي تغيرت كثيراً بعد أن بذلت جهداً كبيراً خاصةً فيما يتعلق بالزيارات الكثيرة التي قمنا بها إلى **قواعدنا** العسكرية في **العراق** ودول المنطقة والتي كانت بالنسبة لي تجربة مفيدةً جداً، أهم ما تعلمته منها محبة وطني والإخلاص له، مع إدراك حقيقة أن هذا لا يعني بأن الإنكليز يحبّون بلدي، بل كانوا يتعاملون معنا انطلاقاً من مصالح بلدهم، لذلك ليس غريباً أن نراهم قد قطعوا آلاف الأميال كي يصلوا إلى هنا، وذلك لتحقيق السعادة والاستقرار لبلدهم، وفي بعض الأحيان كانوا يلجؤون إلى اتّباع سياسة الاضطهاد والاستبداد واستغلال الشعوب، لذلك كانوا يقطعون الطريق على من يعارض سياساتهم الاستعمارية والاستغلالية، خاصةً الحركات والأحزاب التقدمية والوطنية، التي كانت تقاوم الاستعمار والرجعية والاحتلال. لكن مع هذا كنا نجد بعض العراقيين ينسجمون ويتعاملون مع الأجانب والمحتلين، ويرفضون بعضهم البعض، لا بل كانت تصل حالة الرفض إلى التصادم والاقتتال والعداء الدامي؛ أي اتباع سياسة تقزيم بعضهم البعض، لذلك ليس غريباً أن نجدهم في حالة التشظي والانقسام التي كانت تخدم مصالح الدول الكبرى التي تضع مصالح

شعوبها الاستغلالية في أولوية أعمالها وبرامجها عند احتلال بلداننا. فكان حالنا نحن الكرد كحال شعوب المنطقة، فلا زلنا حتى الآن نبحث عن هويتنا وكياننا الخاص بنا، نتيجة تشرذمنا وتشتتنا. لقد تعلّمت من الإنكليز أهمية الالتزام والانضباط والصدق والشرف، فنجد في مجتمعاتنا أن شرف الرجال يتمثّل في عذرية المرأة وعفتها في الدرجة الأولى، وخاصة مع ازدياد ظاهرة قتل المرأة المُتهمة في عفتها على يد الآباء والأشقاء والأزواج، في حين نجد كلمة الشرف لدى الإنكليز تحمل معانٍ عدة تختلف كثيراً عما هو مُتعارف عليه في مجتمعاتنا، فهي تتمثل في الصدق والنزاهة والإخلاص في الوعود والتفاني في العمل، في حين أن هذه المفاهيم مفقودة لدينا.

في طريق عودتنا إلى **العراق**، توجّهنا إلى **الحبانية** وقضينا ليلة واحدة مع عائلته، في اليوم التالي قال لي:

– يجب تجهيز السيارة، سنتوجّه إلى مدينتكم **أربيل** ، لأنني لم أقم بزيارة واستطلاع **قاعدتنا** العسكرية فيها منذ مدة طويلة، بعدها سنتوجّه إلى **طهران** لمتابعة وتفقد قاعدتنا هناك، ولزيارة **شاه إيران**.

انطلقنا إلى مدينة **أربيل**، وصلنا إلى هناك قبل حلول الظلام. قام بدايةً بزيارة المواقع العسكرية وأجرى اللقاءات والاجتماعات مع الضباط والقادة العسكريين، زودهم بتعليماته وتوصياته واستمع إلى آرائهم وملاحظاتهم.

التفت قائد القوات الإنكليزية في **أربيل** إلى الميجر **سي. بويلي** وقال:

– سيدي، إن احتجاجات الناس تتصاعد يومياً، لا بل بتنا نرى المحتجّين يتجمعون رويداً رويداً في مجموعات تجوب الشوارع الرئيسية يطالبون بتحسين أوضاعهم الحياتية، يرفعون شعارات تفضح وتُدين

سياساتنا، خصوصاً في ظل دعم الشيوعيين لهذه المطالب، لا بل يشجعون المعارضين كي يهاجموا مقراتنا ومراكزنا الرسمية، والتي تضطرنا إلى استعمال العنف ضد المحتجين.

في هذه اللحظات وجدت الميجر يهز رأسه **وبعد تفكير عميق** قال:

- في الصباح، أعلنوا أمام أهالي **أربيل**، بأنه يمكن لكلّ مَنْ هو عاطل عن العمل أن يسجّل اسمه، خذوا الذين سجلوا أسمائهم إلى خارج المدينة كي يحفروا عدداً من الحُفر، وفي اليوم التالي دعوهم يطمرون الحفر التي حفروها، وليكرروا ذلك يومياً، بعدها ادفعوا لهم أجورهم اليومية المعتادة، حتى ينسوا أمر المشاركة في الاحتجاجات والمظاهرات، وبذلك تضعون حدّاً لكل هذا الشغب.

بعد خدمة خمسة أعوام كعسكري ليفي ضمن القوات الإنكليزية، ترقيت إلى رتبة عريف أي ثلاثة خيوط. كنت طيلة هذه السنوات سائقاً خاصاً للميجر **سي. بويلي**، مع أن عملي كان صعباً وشاقاً، وبذلت فيه جهداً كبيراً، لكنني تعلّمت واستفدت كثيراً، ونسيت أيام الجوع والفقر والعوز، لا بل عندما كنت أعود إلى القرية للزيارة، كنت أجد أهل القرية يستقبلونني ويتجمعون حولي، وكبير القرية أيضاً الذي كان يفتخر كثيراً بي، ويطلب مني مساندته عند **الإنكليز**.

بعد مرور مدة من الزمن قررت **بريطانيا** حل الجيش الليفي، وقد وضعوا اقتراحين ـ أمام العسكريين على اختلاف رتبهم العسكرية من مجندين وضباط ـ إما الإحالة إلى التقاعد، أو نقلهم إلى الجيش العراقي.

2

أصبحتُ عاطلاً مرةً أخرى

بعد أن أوضح لي الميجر **سي. بويلي** نصّ هذا القرار المحزن، بدا القلق ظاهراً على وجهي، لكنه خاطبني:

– صدر هذا القرار من جهة عليا، أنا قلق عليك جداً، وعائلتي أيضاً ستحزن على فقدان شخص مخلص مثلك، لكن ليس أمامنا خيار، هذه هي الحياة بمنعطفاتها الحزينة، خاصة وأننا اليوم في زمن التحركات الدامية وعلينا تطبيق الأوامر العسكرية، فاليوم نحن هنا وربما نكون غداً في مكان آخر، يجب أن ندرك جيداً بأننا عسكريون وعلينا الكثير من الواجبات، ولا نعرف ما هومصيرنا في الأيام القادمة. أتمنى لك النجاح وطول العمر. نعم ستتركنا، لكن يجب أن تعلم جيداً بأن علاقتنا ستدوم، هناك الكثير من الذكريات التي تربطنا ولن أنساك قط.

اخترت أ خيراً الانتقال إلى الجيش العراقي، وقد زودني الضابط بكتاب رسمي من أجل ذلك. عدت إلى **أربيل** بالقطار، توجّهت في اليوم التالي إلى مركز التدريب العسكري في المدينة بالملابس العسكرية الليفية، وجدت هناك مجموعة من الأصدقاء والمعارف الذين كانوا يتدرّبون في هذا المركز، وعندما شاهدوني بالملابس العسكرية التي تختلف كثيراً عن ملابسهم، وخاصة الريش البارز والملتصق بغطاء الرأس، تجمعوا حولي وسألوني:

– ما هذه الملابس الغريبة، وما الغاية من هذا الريش؟

– هـذا اللبـاس الخـاص بالجيـش الإنكليـزي، كنـتُ عسـكرياً فيه لمدة خمسـة أعـوام، ولكـن صـدر قـرار مـن الجهـات البريطانيـة العليـا بنقـلي وبالرتبـة العسـكرية والحقـوق الماليـة ذاتهـا إلى الجيـش العراقـي .

قال لي **إبراهيم خوشناو** صديق طفولتي:

– كنـت أتمنـى أن تلجـأ إلى الاختيار الثـاني وإحالة نفسـك إلى التقاعد، لأن الخدمـة في الجيـش العراقـي صعبة جـداً، لا أعتقد أنـك وبعد تجربتك مـع الجيـش الإنكليـزي تسـتطيع التحمّـل والاسـتمرار ولـو لشـهر واحد فقـط في الجيـش العراقي!

الحقيقـة أنني لم أعـطِ اهتماماً لحديـث صاحبي، لذا قدّمـت كتاب النقل إلى رئاسـة المركـز، بعـد ذلـك تـم توجيـه الكتـاب إلى المخازن، وسـلموني الملابـس العسـكرية العراقيـة بالرتبة ذاتها وبـدأت العمل.

بعـد مـرور عـدة أيـام مـن التدريـب والتماريـن الصعبـة، بـدا لي بـأن حديـث صديقـي **إبراهيـم** كان صحيحاً ودقيقـاً، خاصة عندمـا كنا نذهب إلى سـاحات العـرض العسـكري، كنـا نواجـه حالـة مـن الاسـتخفاف والاحتقـار والأذى، بالـذات عندمـا نجـد الضبـاط وبعـض أصحـاب المراتـب يسـتعملون الكلـمات البذيئـة ويوجّهـون الشـتائم لنـا، عـلى كل خطـأ أومخالفـة حتـى وإن كانـت بسـيطة، هـذا بالإضافـة إلى التحقـير والعقوبـات المخجلـة، حتـى وإن لم يكـن هنـاك أي خطـأ! فعـلى سـبيل المثـال إذا ارتكـب بعـض الجنـود خطـأً مـا تتـم معاقبـة الجنـود في الفصـل كلـه. وجـدت مثـل هـذه التصرفـات والسـلوكيات غريبـة عنـي، ولا تنسـجم مـع تربيتـي وتجربتـي مـع الإنكليـز، ندمـت عـلى هـذا القـرار وقدمـت اسـتقالتي مـن الجيـش العراقـي، سـلمت ملابـسي وتجهيـزاتي

العسكرية إلى مركز التدريب العسكري. كنت حزيناً جداً ومحتاراً بين الرجوع إلى القرية مرة أخرى ـ إلى حياة الفقر والعوز مع والدتي الكفيفة العاجزة ـ أوالتوجّه إلى **أربيل** للبحث عن عمل. كانت أفكار كثيرة تدور في عقلي، عليَّ اختيار الحل الملائم لوضعي الحالي.

******

مضت مدة طويلة لم أتناول فيها وجبة من الكباب، لذا توجّهت مباشرة إلى أحد المطاعم وتناولت وجبة دسمة مع كوب كبير من اللبن البارد، ثم احتسيت الشاي **السنكين** المشهور لدينا. صادفت في المطعم أحد سكان قريتنا الذي كان يُحضر اللبن والجبن إلى المدينة، نهض وتوجه نحوي وحضنني بين ذراعيه سعيداً بلقائي، بادرني بسؤال:

– أين كنت كلَّ هذه المدة، قلقنا عليك؟

فرحت بهذا اللقاء على الرغم من الحيرة والقلق الكبير على مصيري ومستقبلي الذي كان يواجه المجهول، أمسكت يده بقوة وذهبنا إلى مقهى **عبو**، قضينا وقتاً جميلاً وشربنا الشاي معاً. كنت متشوقاً لمعرفة أخبار قريتي، طلبت منه أن يحدثني عن أوضاعها بالتفصيل حتى أصغر ساكن فيها، وبشكل خاص وضع والدتي الضريرة، سرد لي كل الأحداث التي شهدتها قريتنا، ثم طلب مني أن أقص عليه ما حدث معي منذ اللحظة التي تركت فيها قريتنا إلى أن عدتُ إلى **أربيل** مؤخراً، امتد الحديث بيننا طويلاً، إلى أن استدركَ قائلاً:

– أصبح الوقت متأخراً، يجب أن أعود بسرعة إلى القرية، لكن أريد معرفة قرارك النهائي، وهل ستعود أم ستبحث عن عمل هنا في **أربيل**؟

– لا أنوي العودة إلى القرية، فكري مشغول حول مستقبلي وماذا

سـأعمل هنـا وأنـا لا أعـرف أحـداً يسـاعدني لإيجـاد عمل مناسـب لي.

– انتظـر قليلاً لنسـأل مـام **عبو**، ونأخـذ رأيه بهذا الشـأن، فهومن أهالي مدينـة **أربيـل** القدمـاء، ولديـه معـارف كثـر هنـا، أغلبهـم مـن رواد هذا المقهـى المشـهور، يمكنـه أن يسـاعدك أوعلى الأقـل توجيهـك بطريقة ما.

وجدتُ الفكرة جيدة وتوجّهت إليه وسلمت عليه، ثم قلت له:

– يـا مـام **عبو** أنـا من سـكان قرية **قوريتـان**، كنـتُ عسـكرياً في الجيش الليفـي الإنكليـزي، أُجيـد اللغة الإنكليزية، وسـائق جيد، عـدت الآن إلى المدينـة لأبحث عن عمـل يؤمّن لي ولوالـدتي حياة كريمة، فـإذا كان لديك عمـل مناسـب لي أو تعلـم بـأن أحدهـم يحتـاج شـخصاً يملـك مؤهّـلاتي سـأكون شـاكراً جداً، وأرجوأن تسـعى لتعرّفنـي إليه.

– حسـنٌ، اذهـب إلى محطّـة القطـار التي تقـع بالقرب من منـارة **جولي**، وسـتجد في اسـترحة المحطـة رجل يُدعـى **عبدالله سـكود**، يـتردد إلى هناك يوميـاً لقضـاء الوقت، يتحـدّث اللغة الإنكليزيـة بطلاقة مثلـك، وعلاقاته مـع الإنكليـز جيّدة، بلغه تحياتي وعرفه عن نفسـك، وسـيفعل ما بوسـعه لمساعدتك.

3

التعيين في سد بيخمة

بعد أن غادرنا المقهى عاد صديقي إلى القرية وتوجّهت أنا إلى محطة القطار، وجدت فندقاً يسمى **ريستهاوس** تحيط به حديقة جميلة، التقيتُ بالرجل الذي وصفه لي مام **عبو** في استراحة الفندق؛ رجل طويل وضخم، يرتدي سروالاً وسترة ويعتمر قبعة على رأسه، كان يجلس على المقعد ويضع **رِجلاً** على رِجل، ينفثُ دخان سيجارة تحترق بين شفتيه الغليظتين. اقتربت منه، وبعد السلام قلت:

– جئت بتوصية من مام **عبو**، وأريد مقابلة **عبدالله سكود**. هل تعرفه؟

التفت إليّ وقال:

– أنا **عبدالله سكود**، تفضل ماذا تريد؟

– ألديك بعض الوقت لأجلس وأسرد لك قصتي؟

– ولِمَ لا؟! تفضّل واجلس.

سحب مقعداً وطلب مني الجلوس، ثم سألني:

– ماذا تفضّل أن تشرب، القهوة أم الشاي؟

– قهوة.

أوصى نـادل الفنـدق بإعـداد القهـوة. سردت لـه الأحـداث التي مرت بهـا في حيـاتي بتفاصيلهـا ومرارتهـا، وما أثار اسـتغرابه أن يخـوض مواطن كـردي مـن **أربيل** قصـة مثيرة كهـذه مع عائلـة إنكليزيـة بـارزة ومعروفة. وعندمـا انتهيت تحـدث قائلاً:

أعتـزّ بـك وبتجرتـك الناجحـة مع الإنكليـز، والأمـر الجيّـد أنّك تجيد اللغـة الإنكليزيـة، لذلك سـنتحدث معـاً بها، لا لأختبر قدرتـك بل لنقضي وقتـاً ممتعـاً معـاً، منـذ مـدة وأنا أبحث عن شـخص مـن أهالي هـذه المدينة يجيـد لغـة أجنبيـة. ولأكـون صريحـاً معك يا ولـدي العزيـز، كنـتُ بانتظار شـخصٍ ذكيٍّ مثلك.

بـدأت أتحـدث معه باللغـة الإنكليزيـة الفصيحـة بطلاقة، كنـتُ أجيبه بسرعـة عن أسـئلته مـا جعلـه مدهوشـاً ومعجباً بي، ثـم قال:

– يـا عزيزي، كنـتُ أعتقد بأننـي الوحيد الـذي يجيد اللغـة الإنكليزية، لكنـي وجدتـك مثـيراً ومتفوقاً جداً في هـذه اللغة!

فرحـتُ كثـيراً بإطرائه ومديحـه لي، وتخلصت من الـتردد واليأس الذي كنـت أحس به قبـل لقائه، تفاعلـتُ كثيراً وقلـت في نفسي:

(حتـى لـو لم أتمكـن مـن الحصول عـلى العمـل فـوراً، فهناك أمـل كبير بالوصـول إلى هـدفي، وتحقيق الاسـتقرار)

في هـذه اللحظـات التـي كنـت فيها منشـغلاً بالتفكـير، التفـت **عبدالله سـكود** إليّ وقال:

– جئـتَ في الوقـت المناسـب تمامـاً، إنّهـا فرصـة ذهبيـة بالنسـبة لـك عليـكَ اسـتغلالها جيـداً؛ بعـد قليـل سـيحضر مدير مـشروع سـد **بيخمة**، وهوإنكليـزي، سـأعرّفك بـه، لأنـه يبحـث عـن شـخص مثلك منـذ مدة

طويلـة، يريد شـخصاً يجيد اللغـة الإنكليزية ومن سـكان المنطقـة، ليكون مُترجمـاً وسـائقاً خاصـاً به.

شـعرت بسـعادة وتفاؤل كبيرين عند سـماعي هـذه العبـارات، فعلّقت حـواسي عـلى بـاب الفنـدق منتظـراً دخـول الإنكليـزي، كنـت ألاحـظ تصرفـات وحركات **عبدالله سـكود**، تبيّن لي أن علاقاته متينـة مع الإنكليز، فقـد كانـوا يحترمونـه ويقدّرونه كثـيراً، هذا ما أعطـاني دافعاً قويـاً وجعلني أقـترب مـن تحقيـق هـدفي. بعـد سـاعة مـن الزمـن، دخل شـخص طويل القامـة، بشرتـه بيضـاء تميـل إلى الاحمـرار، عيونـه زرقـاء تعلوهـا نظّارات بإطـار سـميك، يحمـل حقيبـة دبلوماسـية، وبرفقته شـخص آخـر، ألقى التحيـة عـلى **عبدالله سـكود** الـذي رد عليـه قائلاً:

– ظهرتَ في الوقت المناسـب (وأشـار بيده إليّ) هذا الشـاب من سـكان **أربيـل**، عمـل مع الإنكليز وكان عسـكرياً ضمن القـوات الإنكليزية، عاد قبل أيـام إلى مدينته ويبحـث الآن عن عمل.

سأل الرجل الانكليزي **عبدالله سكود**:

– هل يجيد اللغة الإنكليزية؟

– نعـم، يتحـدث مثـلي ومثلـك، بطلاقـة. فـإذا مـا تحدّثـتَ إليـه، لا يمكنـك التكهـن بأنه كـردي ومن سـكان أربيل، سـتظنه مواطنـاً بريطانياً!

التفت إليّ وسألني بالإنكليزية:

– ما اسمك وما العمل الذي ترغب في الحصول عليه؟

عَرّفتُه بنفسي باللغة الإنكليزية وأجبته عن جميع أسئلته.

هَزَّ رأسه وقال:

– أحسنت، أنت الشخص الذي كنت أبحث عنه منذ فترة طويلة، ومنذ هذه اللحظة ستصبح مترجماً وسائقاً خاصاً بي.

شكرته كثيراً واتفقنا على موعد ومكان عملي.

عدت بعد ذلك إلى السوق، واستأجرت غرفة في فندق **فرح** الذي كان يقع فوق مقهى **مجكو**، وقضيت ليلتي هناك.

كان هناك شخص في الغرفة المقابلة لغرفتي، يرتدي سترة وسروالاً خاكي اللون مع ربطة عنق حمراء، يضع قبعة على رأسه، كان يستلقي على سريره ويقرأ رواية (سفرة سائح إلى **كردستان**) من تأليف **كارل ماي**، حييّته من بعيد، ردّ عليَّ التحية باللغة الإنكليزية. عَجبْتُ وقلت في نفسي (يا تُرى هل كان هذا الرجل عسكرياً ليفياً مثلي؟) دخلت غرفته وسألته:

– يبدوأنك كنت عسكرياً ليفياً على ما أظن؟

هَزَ رأسه بالنفي قائلاً:

– كلا، أنا مواطن بريطاني، جئتُ إلى **أربيل** لتقديم الخدمات الطبية لسكان هذه المدينة، وسأمكث هنا لفترة محددة. مَنْ أنت وما عملك؟

– أنا من قرية **قوريتان** الواقعة في سهل مدينة **أربيل**، كنتُ عسكرياً ليفياً ضمن الجيش الإنكليزي الليفي لخمس سنوات مضت، أنا هنا الآن لأنني في الصباح سأبدأ العمل في الشركة القائمة على بناء سد بيخمة.

– مصادفة جميلة، قضيت عدة أيام في عزلة تامة، وها أنا الآن قد عثرت على صديق أفهمه ويفهمني.

قضينا تلك الليلة معاً بسعادة، حدّثته عن فترة عملي ضمن الجيش الليفي وكيفية ارتباطي بهذا الجيش، وبالمقابل حدثني عن حياته وزوجته

وطفلهـم الوحيد، وكيف يقضـون حياتهم في مدينة **لندن**. فسـألته:

– كيـف جئت إلى هنـا وحدك؟ الوحدة مؤلمة باعتبار أنك لم تعتد عليها؟

– كـما أخبرتـك سـابقاً سـأمكث هنـا لفترة محـددة، كـي أقـدم العلاج لمـرضى السِّـل والمصابـين بالأمـراض الصدريـة، أمـا فيـما يتعلـق بعزلتي، فقـد اعتـدت عليهـا بعـد خدمتي العسـكرية أثنـاء الحـرب العالميـة الأولى والثانيـة، واضطـررت لـترك عائلتي في فـترات كثيرة أثناء سـفري بين دول مختلفـة مترامية الأطـراف، كنـت أبغي مـن هذا التنقـل القضاء عـلى الحياة الرتيبـة المملّـة التي تجعـل حيـاتي دون هـدف أو معنى.

في أثنـاء انشـغالنا بالأحاديـث المتنوعـة، دخـل إلى الغرفة رجـل عجوز ومعـه شـاب، ركـع الرجـل العجـوز أمـام قـدم الطبيـب الإنكليـزي وهويتوسـل قائـلاً:

– حياة ابنتي في خطر فقد فاجأها المخاض ويبدو أن ولادتها متعسّرة.

كان يتحـدث باللغـة الكرديـة، ولم يفهـم الطبيـب كلمة واحـدة، لكن الحـظ خدمه كثـيراً بوجودي في تلـك اللحظات العصيبـة، ترجمت حديث الرجـل للطبيـب، بدا الطبيـب قلقاً والتفـت إليّ قائلاً:

– لا أعـرف كيـف سأسـاعده، ومـا المطلوب منـي، فأنـا طبيب مختص بالأمـراض الباطنيـة، والمريضـة تحتاج طبيـب مختص بالتوليـد والأمراض النسائية.

لذلك أخبرت الرجل العجوز:

– عمـي العزيـز، يجـب أن تعلـم بـأن هـذا الطبيـب مختـص بالأمراض الباطنيـة، ولا يسـتطيع فعـل شيء لابنتـك.

امتلأت عينا الرجل العجوز بالدموع فزعاً على مصير المرأة المسكينة، فقد توازنه من الانفعال وانهار أمامي، أمسك بيدي وأراد تقبيلها لكنني سحبتها قائلاً:

– معاذ الله يا عمي العزيز، أنا في خدمتك وسأبذل كل جهدي للمساعدة.

– أشكر الله الذي أرسل لنا ملاكاً مثلك كي يكون عوناً لنا في مثل هذه الظروف، بنيّ أنت تفهم لغتنا، أرجوك أن توصل ما أريد قوله الآن لهذا الطبيب الأجنبي؛ ابنتي شابة جميلة وزوجة لهذا الشاب، وهي حامل بطفل وحان وقت ولادتها، جلبنا لها القابلة القانونية وقالت أن الجنين ساكنٌ لا يتحرك، لذلك حياة ابنتي في خطر، والحل الوحيد أن ينقذ هذا الطبيب ابنتي من الموت.

التفتُّ إلى الطبيب وترجمت له حديث الرجل العجوز. فقال:

– لا خيار أمامنا في مثل هذه الحالات علينا إنقاذ حياتها، على الرغم من أنني لست مختصاً بالتوليد، لكن يجب فعل شيء ما. قل لهم أنا مستعد للذهاب معهم، سأفعل ما بوسعي، لكنني لن أتحمل مسؤولية الحفاظ على حياة الجنين، لأن الحياة والموت بأمر الخالق سبحانه، وأعمار البشر بيده.

جمع الطبيب مستلزماته الطبية في حقيبته، وقال:

– عليك أن ترافقني، من المؤكد أنني سأحتاج إليك في الترجمة، ماذا تقول؟

– طبعاً سأرافقك، فقد تطوّعتَ لإنقاذ حياة إنسانية، لذلك لن أتخلى عنك، هذا واجب إنساني وعليّ أداؤه.

خرجنا وأغلقنا باب الغرفة خلفنا:

قال:

– لننطلق بسرعة كي لا نتأخر.

غادرنا الفندق بمرافقة الرجل العجوز وزوج ابنته، كانا يمشيان أمامنا ونحن وراءهما، عندما اقتربنا من باب القلعة، توقّف الرجل العجوز فجأة في مكانه، وأخرج من جيبه قطعة قماش سوداء وأعطاني إياها، سألته:

– ماذا نفعل بهذا القماش؟

– بني، سنغطي عينا الطبيب بها!

– ماذا تقول يا عمي؟ لِمَ نفعل هذا؟

– ستتشوه سمعتنا إذا علم الناس بأن طبيباً أنقذ ابنتي الحامل، لأن هذا العمل من واجبات القابلة القانونية، سنتعرض للانتقاد من قبل أبناء مجتمعنا المحافظ كما تعلم.

– لكن هذا الطبيب إنكليزيٌّ غريبٌ، ولا يعرف أحداً هنا، كي يُسيء إلى شرف ابنتك، سيبقى هنا لفترة قصيرة، ثم سيعود إلى موطنه، لذلك لا داعي للخوف والتوجّس منه.

وبينما كنا منشغلين بهذا الحديث، وجدتُ الطبيب مذهولاً، وينظر إلى وجهينا أنا والعجوز، ويتساءل بماذا تُفيدنا قطعة القماش السوداء التي كانت بيد الرجل فسألنا أخيراً:

– عمّا تتحدثان؟ إضاعة الوقت ليست في صالحنا، لنذهب بسرعة، المرأة بأمسّ الحاجة إلى هذا الوقت.

– يريد الرجل العجوز وضع عصابة من القماش الأسود على عينيك قبل أن نصل إلى هناك.

سألني الطبيب مستغرباً:

– هـل يمكـن إنقـاذ ابنتـه وجنينهـا دون أن نرى شـيئاً؟! أيُعقـل هذا؟! سيشـكّل هـذا العمل خطـراً عليهما.

– يقـول الرجـل أن هـذا العمـل مـن اختصـاص القابلـة وقيـام رجـل بتوليـد امـرأة أمـر معيـب في رأي المجتمـع هنـا، ولـن يسـلم مـن كلـمات النـاس الجارحـة بحقـه وحـق ابنته.

عندمـا ذكـرت له هـذه العبـارات، وجدت الطبيـب حائراً ومتوجسـاً، وبعـد تفكير قصـير قال:

– لا مانع لدي، مادامت عادات وتقاليد المجتمع لا تتقبل مثل هذا الأمر، قبلـت بهـذا الـشرط ولكن عليهـم تحمّـل مسـؤولية تبعات تـصرف كهذا.

ترجمـت لهـم حديـث الطبيـب فيـما يتعلـق بمَـنْ سـيتحمل مسـؤولية هـذا الـشرط المخيـف. بعـد ذلـك تـم تغطيـة عينـاي وعينـا الطبيـب بقوة وأخذونـا إلى المنـزل. عندمـا وصلنـا إلى هنـاك كنـا نسـمع أصـوات بـكاء النسـاء والأطفـال، إضافـة إلى صراخ المرأة الحامل كان وضعها سـيئاً جداً، قـال الطبيب:

– أخبرهـم بـأن عـلى الجميـع أن يخرجـوا مـن الغرفـة باسـتثناء امـرأة واحـدة فقـط كـي تسـاعدني بالقيـام بواجبـاتي.

بـدأ الطبيـب بإجـراء العمليـة الجراحيـة وكنـت أسـاعده بتلبيـة طلباته ومناولتـه مـا يلزمـه، كان عمـلاً صعباً جـداً، لكنـه كان ذا خـبرة في إجراء عمليـات مماثلة.

أكـد هـذا الطبيـب بأنـه رجـل شـهم وشـجاع، نجـح عمله الإنسـاني بشـكل تـام، فعندمـا سـمع بـكاء الطفـل الوليـد فـرح كثـيراً وقال:

– اعتقد أننا نجحنا في عملنا، إسألهم هل وضع الأم وطفلها مستقر؟ وهل هناك ما يُمكننا القيام به؟

فجأة تعالت زغاريد النساء، وكانوا جميعاً يحمدون الله على نعمته هذه. يشكرون الطبيب الجرئ والأمين رغم اختلافه عنهم في انتمائه الديني، فلولا مبادرته لكان مصير المرأة الحامل ورضيعها الانتقال إلى العالم الآخر. لم يفتهم شكري أيضاً لأني من رافقه وترجم لهم ما قاله، مؤكدين بأنني لو لم أكن لما استطاعوا التفاهم معه، لتتم العملية بنجاح.

أعدنا المستلزمات الطبية إلى الحقيبة، وانطلقنا بمرافقة رجل آخر، وقد أعادونا إلى الفندق بعد أن رفعوا العصابة عن أعيننا أمام باب الفندق، كما كان الاتفاق، ثم شكرونا مرة أخرى على مساعدتنا الإنسانية لإنقاذنا روحين من الموت. واعتذروا مُبررين تعصيب أعيننا قائلين:

– من غير المقبول في تقاليدنا أن تنكشف المرأة على الرجال فهي شرفنا.

– التفتَ الطبيب نحوي وقال:

– أعتبر عملي في هذا اليوم المثير، أصعب تجربة في مجال عملي الطبي، لا بل في حياتي كلها، ومع هذا سعادتي غامرة؛ لأنني نجحت في إنقاذ حياتهما، تخيّل مَن كان يتوقع أني سأسافر إلى مدينتكم هذه قاطعاً آلاف الأميال، لأكون منقذاً لهذه الحالة النادرة، رغم أنها لا تدخل ضمن عملي الطبي! (وأكمل حديثه فيما يتعلق بمسألة تغطية عينيه) إنها ظاهرة عجيبة وغريبة أن يرتبط الشرف لديكم بعذرية المرأة وعفتها، بالنسبة لنا شرف أي شخص مرتبط بمعاملته الإنسانية وصدقه ووفائه بوعوده وأخلاقه الحميدة.

قضينا تلك الليلة سعيدين، تبادلنا الأحاديث حول الحياة الشخصية لكل منا. تحدّث الطبيب عن الحرب العالمية الأولى وكيف دافعوا عن وطنهم وحرية شعبه وكيف حافظوا عليه، وذلك من خلال التطوّع في الخدمة العسكرية على الصعيدين الداخلي والخارجي في **بريطانيا**، وحدثني أنه أصيب مرتين، وفي المرة الثانية تم انتشاله من الموت شبه الأكيد، لأنه احتاج إلى ثمان عبوات دم. عندما ذكر هذه الحادثة ابتسم وقال:

– تخيّل أنني بعدما كنت على وشك الموت وجدت نفسي أحيا حياة جديدة، لهذا قررت تخصيص ماتبقى من عمري للقيام بخدمات إنسانية في كل أنحاء المعمورة.

تحدثت أنا أيضاً عن حياتي الخاصة:

– أخبرته كيف أنني عندما كنت طفلاً، وضعني والدي في دار الكتّاب تحت إشراف رجال الدين، كي يعلمونني قراءة القرآن وتعاليم الدين الصحيحة، كان والدي يريدني أن أكون مثله ومثل أخي الكبير الذي أصبح رجل دين عندما كبر، لكنني لم أرغب بذلك، كنت أختلق أعذاراً مختلفة لأتهرب من حضور هذه الدروس، وعندما كان والدي يعلم بتصرفي هذا، يغضب ويصرخ عالياً:

(إذا لم تكمل القراءة والدروس الدينية، سأجبرك على رعي الحيوانات في البراري وعليك تحمل البرد والحر، بحيث ستكون مهنتك طيلة سنوات عمرك) والغريب أنني لا أعرف سبب تفضيلي حياة الرعي على القراءة والتعلّم في المسجد، لم تؤثر ضغوطات والدي الكبيرة على قراري، لذلك تركت المسجد باكراً وبالفعل عملت في الرعي، وعلى الرغم من صعوبته كنت سعيداً جداً.

– اعتقد أن قرارك هذا كان صائباً وصحيحاً، خاصة وأن الدِّين يشبه **الحشيش والأفيون**؛ لأنه يجعل عقل الإنسان متحجراً ويعرقل تطوره ، وكما قال المفكر العظيم **كارل ماركس** (الدين أفيون الشعوب) أنت الآن إنسان حرّ وبعيد عن القيود الدينية وعبوديتها، أي أنك ستجد جميع أبواب الحياة مفتوحة أمامك، وتستطيع بقرار شخصي منك السعي لتحقيق أهدافك الحقيقية. لا شيء مستحيل، لاسيما وأنك قد عملت فترة زمنية مع **الإنكليز** ضمن الجيش الليفي وتعلمت الكثير منهم .

– لاقيمة للإنسان في مجتمعنا، إذ تجد الكثيرَ منهم يقتلون بعضهم البعض لأسباب تافهة وعبثية، في حين نجد الإنسان الإنكليزي ثميناً جداً، لا بل إنهم يفعلون أي شيء من أجل الإنسان، يفضّلون حل المشكلات عن طريق الحوار وترسيخ مبادئ الأخوة والغفران بدلاً من العنف والانتقام، حتى لا تتعمق الأزمات ويصبح الإنسان ضحية، كما يحدث عندنا في الشرق الغافل تماماً عن المبادئ الإنسانية السامية. والوقت ثمين بالنسبة إليكم ، ولا قيمة له في مجتمعاتنا، نقضي معظم أوقاتنا في النوم والبطالة والعزلة. وتعلّمت درسا آخر من الإنكليز، فمثلاً أغلبية مواطنينا يحبّون الاتكالية، والحصول على كلّ ما يريدونه دون السعي إليه، صحيح أنهم يعتبرون الشعب الكردي شجاعاً ومقداماً، لكنه متشظٍ ومختلفٍ فيما بينه دائماً، يخون بعضه بعضاً، ونتيجة لذلك كل ثوراتنا تخمد وتبوء بالفشل، لنأخذ على سبيل المثال، ما فعلناه بأنفسنا في أقدم (جينوسايد)[2] ضد أخوتنا من الأزيديين، حيث قام **باشاي كورة** بهذه الحملة اللّاإنسانية حيث تم فيها تصفية الذكور، وعوملت فيها النساء على أنهن غنائم حرب ليصبحن جَوارٍ فيما بعد.

2) إبادة جماعية.

قبل أن أترك غرفة الطبيب وأعود إلى غرفتي، أخرج الطبيب آلة تصوير من حقيبته وركزها على الحامل الخاص بها وقال:

– لنلتقط صورة تذكارية معاً، سأريها لزوجتي حين أعود إلى بلدي، وأقول لها بأنني تمكنّت برفقة هذا الشاب الكردي من إنقاذ امرأة حامل، هي وطفلها.

ودّعته وتوجهت إلى غرفتي مباشرة، استلقيتُ على سريري مُرتاح الضمير لما قدمناه من مساعدة إنسانية.

كانت ليلة طويلة، لم أستطع فيها النوم بسهولة، فقد تنازعتني مشاعر الفرح والقلق بالوقت ذاته، كنت أفكر كيف سيكون لقائي بمدير شركة سد **بيخمة**، أخيراً بعدما تعبت من التفكير غفوت.

نهضت في الصباح، توجّهت إلى **الريستهاوس** في محطة القطار، وجدت مدير سد **بيخمة** مستيقظاً يتناول فطوره في استراحة الفندق، ألقيتُ عليه التحية ودعاني لتناول الفطور معه، شكرته كثيراً وأخبرته أنني تناولت فطوري في الفندق الذي أقيم فيه.

انتظرته إلى أن استعد للخروج، شربنا القهوة معاً، وبدأ يخاطبني قائلاً:

– أرغبُ في تزويدك ببعض المعلومات حول طبيعة عملك والمرتب الشهري المُقرر لكَ.

– حسنٌ، يهمني معرفة ذلك أيضاً.

– عملنا صعب ومرهق جداً، لا يمكننا تحديد ساعات العمل في اليوم الواحد، ففي بعض الأيام ننتهي من العمل باكراً، ولكن في أغلب الأحيان يستمر العمل حتى غروب الشمس، ستجد ساقاً هنا والأخرى في **بغداد**، لأن علاقتنا مع الحكومة العراقية، حيث يستوجب

عملنا الذهاب إلى بغداد بين فترة وأخرى للحصول على معلومات تخصّ العمل، أما فيما يتعلق بمرتبك الشهري، سيكون عملك في البداية فترة تجريبية لك، وستحصل على ثلاثين دولاراً في الشهر، وإذا كان أداؤك جيد سيزيد مُرتبّك بما يتناسب مع التزامك وإخلاصك للعمل، فكلما زادت ثقتي بك من المؤكد سأعطيك أكثر.

– حسناً، هذا عادل لكلينا، ومن جهتي أثق بنفسي وعملي، ولا شك بأنني سأكون موضع رضاك وثقتك.

انتهينا من احتساء القهوة والتحدث وخرجنا معاً من **الريستهاوس**، وأخذني إلى سيارته **الشوفرليت** الأمريكية البيضاء، سلمني (السويج)[3] وقال:

– من هنا سنبدأ، أوصلني إلى مقر العمل.

– إلى أين سنذهب؟

– تقول أنك من سكان المدينة، أي أنكَ على دراية بأغلبية الأماكن فيها، هل ما أقوله صحيح؟

– نعم، لدي معلومات عن موقع العمل، لكنني لم أسمع بسد **بيخمة** من قبل ولا أعرف أين يقع بالضبط.

– يقع في ناحية من نواحي **حرير وباتاس** وتسمّى **دورة تيسو**، بالقرب من قرية **شاندر**، فقد عثر علماء الأثار على بقايا عظام إنسان **النياندرتال** في هذه المنطقة. هل رأيت هذه المنطقة سابقاً؟

– نعم، رأيت فقط **حرير** و**باتاس**، لكنني لم أسمع باسم **دورة تيسو**.

– حسنٌ إذن، خذني أولاً إلى ناحية **حرير** و**باتاس**، وعندما نصل إلى هناك سأدّلك على الطريق المؤدي إلى موقع العمل.

3) السويج: تعني المفتاح

انطلقنا بالسيارة نحو**حرير** و**باتاس**، كان الطريق طويل ومزعج جداً، باعتبارها مناطق جبلية وعرة، صعدنا إلى مصيف **بيرمام**، ثم إلى مرتفعات ومنخفضات منطقة **كوري** و**شقلاوة**، كنت سعيداً لأنني عثرت على عمل جيد. أشعر بالراحة والاستقرار عندما أعمل مع الأجانب، يعود ذلك إلى خبرتي في التعامل معهم خلال الخمس سنوات الماضية.

توجهتُ إلى المدير، وسألته:

– لقد عرفتك بنفسي، هل لك أن تحدثني عن نفسك، من أين أنت؟

– أنا بريطاني أسكن مع عائلتي في العاصمة **لندن** قبل مجيئي إلى هنا، متزوج وأب لطفلين، لم يذهبا إلى المدرسة بعد، عندما أستقر تماماً هنا، سأجلبهم للعيش معي.

– أنا مسرور لأنني تعلمت من **الإنكليز** دروساً كثيرة خلال عملي معهم، لاشك بأنه مايزال هناك الكثير لأتعلمه منكم.

هَزَ رأسه موافقاً

– أحسنت، الحياة مدرسة يتلقى فيها الإنسان دروساً يومية، يبدو أنك ذكي ومخلص، وتطمح إلى النجاح في عملك خاصة وأن لديك رغبة كبيرة في تعلم الكثير؛ لذلك عليك التحلي بالصبر والاجتهاد كثيراً لتحقق أهدافك، بهذه الطريقة استطاع المبدعون والمخترعون الوصول إلى مبتغاهم فأصبحوا أمثلة يُحتذى بها، تمكن **أديسون** على سبيل المثال. من خلال اختراعه للمصباح الكهربائي في نشر النور والكهرباء في العالم بأسره وخلّدت البشرية اسمه على مر السنين.

بعد ساعتين وصلنا إلى **باتاس**، ثم انطلقنا حسب تعليماته حتى وصلنا إلى **سبيلك** عندها طلب قائلاً:

– أوقف السيارة، يجب أن نتابع سيراً على الأقدام.

سرنا إلى أن وصلنا إلى مكان نُصبت فيه عدة خيام، ومجموعة عمال مشغولين بتكسير الحجارة بمطارق كبيرة، بينما يقوم بعضهم الآخر بنقل بقايا الحجارة المكسورة بواسطة الحمير والبغال إلى أماكن قريبة، ثم يقومون بتوزيعها وفرشها على الطريق تمهيداً للمرحلة التالية. سألته:

– سيدي ما هو العمل الذي يقومون به؟

– يقومون بشق طريق يصل إلى قرية **آموكان**، ومن ثَمَّ إلى قرية **أشكوته**؛ ليتمكنوا من نقل الأدوات والمواد اللازمة لبناء السد إلى أقرب نقطة من المشروع، لذلك يقوم هؤلاء العمال بنقل الحجارة من الجبال إلى هنا ثم يفتّتونها إلى حصىً صغيرة، ثم يفرشونها على سوية واحدة، وفي المرحلة الأخيرة يتم سكب الزفت والقار فوقها. سننتظر حتى الانتهاء من هذا العمل، ثم يأتي دورنا بالعمل.

استغرق تزفيت الطريق من **سبيلك** حتى **الزاب الكبير** ثلاثة أشهر، كُنا خلالها ننتقل يومياً من أربيل لزيارة مكان العمل، كان مدير سد **بيخمة** يشرف بنفسه على الأعمال. فبعد الانتهاء من فرش الطريق بالحجارة المفتتة، قاموا بنقل الخيام إلى مكان قريب من **الزاب الكبير**، ثم قاموا بشق طريق خاص بالحيوانات من قرية **أشكوته** إلى **كلي بيخمه** والمعروفة لدى أهالي المنطقة بـ **كلي كرداسن**، وجبالها معروفة باسم جبال **سراورد**، ثم امتدّ الطريق إلى قرية **دوره تيسو**، استغرق هذا العمل عدة أيام، وبذلك تم الانتهاء من المرحلة الأولى من أعمال سد **بيخمه**.

أفصح المدير لي ذات يومٍ:

– هل تعلم بأن سكان هذه المنطقة من العشائر **المتعصبين**، لذلك يجب إشغالهم بعمل ما، كي لا يختلقوا المشاكل، صحيح أنني لا أفهم

لغتهم، لكنني أشعر بأن أغلبهم غير مطمئنين من وجودنا في منطقتهم، ولا يعلمون إلى الآن ما الذي نفعله هنا. إذا ما علموا بأننا نبني سداً **يجعل بعض الأراضي في قراهم تحت الماء**، سيخلقون لي مشاكل كبيرة ومعقدة، ما يجعل حياتنا في خطر.

– أنت محق يا سيدي، يسألونني يومياً عن سبب تشييد هذه الطرق وما هدفنا من كل هذا.

– وبماذا تجيبهم؟

– أخبرتهم أنني لا أعرف أي شيء، مثلهم تماماً.

– أحسنت، لا تخبرهم شيئاً، فالتعامل مع هؤلاء ليس بالأمر السهل كما كنا نعتقد، سيما وأنهم بسطاء وسُذّج، يثقون كثيراً بما يقوله كبار قومهم الذين يتصرفون غالباً حسب ما تقتضيه مصالحهم الخاصة، أي أنهم سيقودون هؤلاء البسطاء بالاتجاه الذي سيخدمهم فقط، لذلك علينا أن نكون حذرين جداً. حتى يتم المشروع بشكل جيد ودون مشكلات يجب بداية أن نضع مصالح هؤلاء في مقدمة أعمالنا، ونحاول التقرب منهم وكسب ودهم بتقديم الهدايا لهم وزيارتهم بين الفينة والأخرى.

كنا ننطلق يومياً من **أربيل** نحو منطقة **بيخمة** لنشرف على الأعمال هناك، كان الجيولوجيون منشغلين بفحص أحجار الجبال ليتأكدوا من مدى قوتها ومقاومتها للظروف المناخية، لاختيار الأفضل من أجل بناء السد. بينما انشغل باقي العمال في تثبيت الخيام ووضع المستلزمات والمواد الضرورية. في هذه الفترة قمنا بزيارة مضياف الآغا والوجوه الاجتماعية المعروفة في المنطقة، وقدمنا لهم الهدايا، فرحوا كثيراً بهذه المبادرة.

وفي أحد الأيام طلب مني المدير قائلاً:

– قم بزيارة الآغا والوجوه الاجتماعية وأبلغهم تحياتي، أخبرهم

بأننا نحتاج بعض الدّواب للمساعدة في الأعمال اليومية.

نفذّت ما قاله لي المدير مباشرة، ذهبت إليهم جميعاً، وأوصلت رسالة المدير فعبروا عن تقديرهم له. كانت الحيوانات التي يمتلكونها قليلة، على عكس ما أخبرونا ـ بأن لديهم أعداد كثيرة منها ـ فلم نجد سوى خمسين بغلاً.

أخبرتُ المدير بنتائج زيارتي:

– لم أجد في المنطقة كلّها سوى خمسين بغلاً، مع أن أصحاب الدواب حاولوا تضخيم العدد الحقيقي.

هَزَ رأسه وقال ضاحكاً:

– أمرٌ طبيعي، انتظرتُ منهم مثل هذه السلوكيات. في الحقيقة، نحتاج هذا العدد من البغال تقريباً، سأدفع لهم المبلغ الذي تم تحديده من قبلهم. هدفنا الأساسي مراعاة مصالح هؤلاء ودعمهم، حتى لا يشجعون سكان المنطقة على مقاومتنا.

خلال تلك الفترة كنت أزور قرية **آموكان** لشراء الطعام واللحوم والخضروات والمتطلبات الأساسية وخاصة اللحم، ونتيجة زياراتي اليومية المتكررة إلى هذه القرية، تمكّنت من إقامة علاقات متينة مع آغا القرية، كما أني ساعدت الأهالي في بيع بغالهم، بات سكان القرية يحبونني كثيراً ويعتبرونني بمثابة ابن لهم. كما أنني أُعجبتُ بفتاة من فتيات القرية وتقدمت لخطبتها، لكنهم رفضوا طلبي لأنني من سكان المدينة!

لم تمض مدة إلا وعَلِمَ كبيرهم بطلبي، فاستدعاني الأغا إليه وسألني:

– لماذا لم تذكر لي طلبك حينها؟ أصبحت واحداً منا بعدما قدّمت الكثير من الخدمات إلينا (استرسل) كما أننا نفتخر بوجودك وعملك

مـع الإنكليـز، اختـر الفتـاة تريـد وسـتكون مـن نصيبـك، سـنخبر أهلهـا بأنـك مـن أقاربنا.

تمكّنـتُ أخـيراً من خطبـة الفتاة التـي أعجبتني، وأصبحـت صهراً لهم، وبنيـتُ لي بيتـاً في القريـة. إن قـرار تكوين عائلـة في ذلك الوقـت كان حدثاً جيـداً لي، أفضـل مـن الوحـدة التـي كنـت أعيشـها. بهـذا اقترب سـكان القريـة منـي كثـيراً، لا بـل كانوا يستشـهدون بي لـدى الإنكليز عـلى اعتبار أننـي ابـن قريتهـم، مـن جهـة أخرى عـبّر المديـر عـن فرحته الكبـيرة بهذه المناسـبة، وقـد توطـد شـعوره بالاسـتقرار والأمـان أكثـر مـن قبـل، كان أغـوات قـرى المنطقة في كثير مـن الأحيـان يدعوننا إلى ولائمهـم الخاصة.

كان سـكان القريـة فقـراء، يعتمـدون في معيشـتهم عـلى مـا يحصلونه نتيجـة تسـويق المنتجـات الحيوانيـة والزراعيـة التـي لديهـم، لكـن بعـد تأسـيس هذه الشركة شـعروا ببعض الأمل في تحسـين مسـتوى معيشـتهم. أمـا أنـا، وبعـد فترة قصـيرة أصبـح راتبي مئـة دينـار، في حـين كان راتب الشرطـي في تلـك الفـترة خمسـة دنانـير فقـط! وبذلـك أكـون قـد تفوقت عـلى الأغـا والوجـوه الاجتماعيـة في القـرى من الناحيـة الاقتصاديـة، ما جعلهـم يبالغـون في تقديري!

كان عمـل الشركـة يتصاعـد بوتيرة سريعـة، وقد ترافـق ازدهارها مع الانتهـاء مـن المرحلـة الأولى مـن مخطـط المـشروع بنجـاح، قصدنـا في هذه الفـترة أنـا والمدير منطقـة بيتويـن، لوجود نية عنـد الشركة في بناء سـد على نهـر الـزاب الصغـير، وحين علمَ سـكان المنطقـة بذلك رفضـوا خططنا كما حـرض زعـماء المنطقة الأهـالي ضدنا، لنكتشـف بأنهم متشـبثون بأراضيهم الزراعيـة ولا نيـه لهـم في التنازل عنها، كـما أنهم متخوفون مـن غرق قراهم في حـال تـمّ المـشروع. لذلـك ترددنـا وخفنا مـن زيـارة المنطقة ثانيـة، فكنا أكثـر حـذراً في تعاملنا مع سـكان المنطقة.

زارنا في أحد الأيام عدد من الصحفيين الأجانب، لتغطية فكرة بناء سد على نهر **الزاب الصغير** وقد ذهبنا برفقتهم إلى المنطقة، حددنا لهم المكان وعدنا معهم، وفي طريق عودتنا شاهدنا في سهل **بيتوين** عدداً من قطعان الأغنام والماعز التي انتشرت هنا وهناك، يحرسها عدد من الكلاب الضخمة والمخيفة التي قُطعت آذانها تماماً، أثار منظرها انتباه الصحفيين وسألوني:

– لماذا تم قطع آذان الكلاب؟

استوقفتُ أحد الرعاة وسألته عن سبب ذلك؟

أجابنا:

– كي يكونوا أكثر يقظة وحذراً، يجعلهم ذلك أكثر قدرة على سماع الأصوات في حال شنت الذئاب هجوم عليهم ما يجعلهم على استعداد تام لحماية القطيع.

قمت بترجمة حديث الراعي إلى الصحفيين، فما كان منهم إلا أن التفتوا نحوي مستغربين وقالوا:

– يبدو أنه من الأفضل أن تُقطع آذان أعضاء مجلس النواب في هذا البلد أيضاً بدلاً من هؤلاء الكلاب، عساهم يشعرون بآلام ومعاناة وعذاب شعبهم.

وبهذا أتم الصحفيون عملهم في الحصول على المعلومات المطلوبة بخصوص مشروع سد **دوكان** وزيارة سهل **بيتوين**. كما قاموا بتوثيق قصة بتر آذان الكلاب.

كما قُلت سابقاً، بسبب ثقة المدير بي وتعاملي الصادق معه، ازداد راتبي حتى وصل إلى مئة دينار، أي مايعادل مرتب عشرين شرطياً

في تلك الفترة، كُنت حائراً في كيفية صرف هذا المبلغ الكبير، إلى أن قررتُ أخيراً شراء سيارة، فاشتريت سيارة **شفرليت بيضاء** أُسافر بها أيام العطل، وبسبب قلة عدد السيارت في مدينة **أربيل** ومناطقها التي كانت لا تتجاوز عدد أصابع اليدين، كان آغوات وشخصيات هذه المنطقة يطلبون مني مرافقتهم أثناء العطلة بسيارتي، لزيارة الملك **فيصل ونوري سعيد** و**سعيد القزار**، فكنت أرافقهم في هذه الزيارات التي يدفعون لي خلالها أجرة نقلهم إلى وجهتهم، كانوا يقومون بزيارة متصرف لواء **أربيل** أيضاً، وبعض المسؤولين الكبار الذين كانوا يحضرون إلى المنطقة للاطّلاع على ظروف المناطق الواقعة تحت سلطتهم لمعرفة وضع المواطنين فيها، ومراقبة الذين يعارضون الحكم الملكي، حيث كانوا يزوّدونهم بالتعليمات حول كيفية التعامل معهم والحزم في التعاطي معهم وردعهم، بحجة تهديدهم لمصالحهم الخاصة في المنطقة.

لاحظتُ من خلال عملي مع الإنكليز والأمريكان في هذه الفترة القصيرة ـ وبالاستناد إلى علاقتي الوثيقة بهم ـ أنهم مرتبطون مع بعضهم البعض مثل حبات المسبحة، أومثل نسيج العنكبوت، تجد كل واحد منهم يتلقّى الأوامر من الآخر وينفّذها دون جدال، أي أنهم لم يهتمّوا بمصالح المواطنين أبداً، بل وضعوا مصالحهم الشخصية في المقدمة.

4

حسن جزراوي يغضب

في إحدى الأمسيات توّجهت إلى مقهى **عبول** لشرب الشاي، التقيت هناك بعدد من الأصدقاء، وكان أن صادفت الفنان الشعبي **حسن جزراوي**، حيث كان يتحدث عن لقائه مع **نوري السعيد** رئيس مجلس الوزراء، لقد كان يتحدث متأففاً وبحسرة وقد أظهر ندم شديد على ذلك اللقاء، على اعتبار أن **نوري** باشا كان يوجّه له دعوة خاصة ليستمتع بأغانيه وصوته بين فترة وأخرى، أكّد **حسن الجزراوي** بأنه حاول تحقيق رغبات رئيس مجلس الوزراء فكان يغني له ما يرغب من أغانيه، وأضاف:

– علماً بأنني التقيتُ به أول مرة قبل عدة سنوات، فبتُّ ألقاه أحياناً حين يدعوني إلى بيته لقضاء عدة أيام، ولكن خلال زيارتي الأخيرة صُدمتُ وشعرتُ بانزعاج وحزن شديدين.

سألته:

– لماذا؟

– اعتقدتُ في البداية أنه يحب الفقراء والمعوزين والمُعْدَمين أمثالي، وأنه يدعوني لهذا السبب، ولكن اتضح لي العكس، فهو ينزعج من

الفقـراء الذيـن يعانـون مـن العـوز وضنـك العيـش، لا بـل كان يرفـض مسـاعدتهم وإنقاذهـم مـن الجوع؟!

– كيـف عرفت؟ هـل يمكن أن توضّـح لي هذه المسـألة بالتفصيل، وما الذي حـدث بينكما؟

– قبـل مـدة، طلـب مني **نوري** باشـا زيـارة **بغـداد**، يبدوأنـه كان يريد سـماعي كالعـادة لأننـي أفـترض بـأن صـوتي يُطربه كثـيراً، اسـتقبلني في مكتبـه عـلى غير المعتاد وجلسـت عـلى المقعد المقابل لـه، بينما كان منشـغلاً بأعمالـه اليوميـة، فقـد كان أمامـه ملـف كبير يحفظ فيـه قـرارات منح رتبة ضابـط لخريجـي الكلية العسـكرية، كان حينها يسـتدعي الطلاب للدخول واحـداً بعـد الآخـر، يوجـه لهـم بعـض الأسـئلة، يسـألهم عـن الاسـم والوضـع الاجتماعـي والاقتصـادي لهـم، أخـيراً كان يوقّـع عـلى الأمـر الـوزاري مـع صرف مبلـغ مـن المـال كمكافئـة، حتـى الآن كان الوضـع اعتياديـاً، لكـن مـا أحزننـي كثـيراً عندمـا دخـل عليـه أحـد خريجـي هذه الـدورة وقـد عـرَّف عن نفسـه بأنـه من سـكان إحـدى القـرى وينتمي إلى عائلـة فقـيرة تشـتغل بتربية الحيوانـات والزراعة، حين سـمع نوري باشـا ذلـك، شـطب على قـرار منحة رتبـة ضابط الخاصـة به. وبـدون أدنى رحمة وبجلافـة صرخ بـه قائلاً:

– اخرج من هنا، أنتَ لا تصلح لهذه الوظيفة؟!

حينهـا انزعجـت كثـيراً ممـا حصـل أمامـي لدرجـة لم أسـتطع احتسـاء الشـاي الـذي كان أمامـي، مـا جعل السـيد **نـوري السـعيد** ينتبـه إلى تبدل حـالي واسـتيائي، فالتفـتَ إليَّ قائـلاً:

ـ «أنـا رئيـس الحكومة وعـليَّ أن أحتكـم للعقل لا للعاطفـة. وبناء على ذلـك اسـتثنيت هذا الخريـج من قرار منـح الرتبـة والمكافئة لأنـه ينتمي إلى

الطبقة الكادحة، لأنه سيكون حاقداً على النظام الملكي في العراق، فهؤلاء ليس من مصلحتهم استمرار هذا النظام عكس الأسر الغنية والمتنفذة، لذلك علينا أن نحول دون تحقيق أهدافهم والعمل على إبعادهم عن السلطة. لأنهم إن توفرت لهم السبل سيقضون أمن راحتنا واستقرارنا، بل قد يصل بهم الأمر إلى تقويض أمن البلاد خلال يوم واحد.

سألني بعدها:

- هل يمكنني أن أعرف كيف ستتصرف لوكنتَ مكاني؟هل ستتعاطف مع الفقراء والكادحين (الحاقدين)؟!

أجبته بثقة:

- كيف لي أن أكون لا إنسانياً وأعمل على تهميش الفقراء ـ وأنا أحدهم ـ وإقصاء الكفاءات منهم عن مواقع الإدارة والمسؤولية، إضافة إلى أن تصرف المسؤولين بهذا الشكل سيؤلب الرأي العام عليهم ما يجعلهم في مواجهة مع عامة الشعب نتيجة استبدادهم وعنجهيتهم التي يمارسونها على الفقراء فيزيدون من فقرهم وسخطهم. وعلينا ألا ننسى أن هذا النظام الذي يقوم بدعم من الآغاوات والإقطاعيين وعملاء الاحتلال وهذا النظام الذي يُسّهل للاحتلال الانكليزي نهب خيرات البلاد لن يستمر، فالشعب لن يصبر طويلاً على الظلم والقهر وسيسعى لدحر السلطة الفاسدة والاحتلال الغاشم على السواء وإلى الأبد.

5

حق الحمير

خاطب أحد الجالسين في المقهى حسن الجزراوي قائلاً:

أنتَ من أهالي **بادينان** ومع ذلك أجدكَ غير مُلم بالأوضاع هنا، الآن فقط عرفت أنهم يميزون بين الفقراء والأثرياء فعلاً؟

- حفظك الله، إنهم يميزون بين الحيوانات أيضاً، وقد وصل التعسف ليطال حمير هذه المنطقة، فقد اقتحم الشاعر **برهان جاهد** منذ أيام مكتبي طالباً رؤية المتصرف وحين سألته لماذا؟، قال أريد أن أسلمه هذا الطلب. فأخبرته أني مدير مكتبه، سأدخل عليه بطلبكَ وأوافيك بالجواب.

سلّمني الطلب وقال: حسناً وأنا سأنتظرك هنا.

حين قرأت الطلب كتمتُ ضحكتي كي لا أحرجهُ، وضعته داخل الملف ودخلت إلى حضرة المتصرف وقدمته له، قرأهُ المتصرف وقهقه.

سألني: ما هذا؟ هل جُنَّ هذا الرجل؟

أجبته: لا يا سيدي، صحيح أنه يشرب الخمر ويسكر معظم الوقت، لكنه شاعر له شهرته في مدينة أربيل، معروف عنه رهافة حسه ومشاعره النبيلة.

التفتَ المتصرف نحوي وقال:

لقد جمعنا كل الحمير في مكان خاص ومسيّج، لكي لا تتجول بين الأزقة والأحياء فتشوه منظر المدينة، ليأتي هذا الشاعر الذي يُدافع عنهم ويُطالب بتحريرهم شفقة عليهم. إذهب في طلبه أرغب في رؤيته، لأعرف أي نوع من الشعراء هو، أتُراه قد أفاق من سُكره؟!

أنا وجميع رواد المقهى كنا نستمع إلى كلام مدير مكتب المتصرف بدهشة، كان سرده شيقاً وكأنه يقص على أسماعنا حدث أسطوري. ـ أكملَ ـ عُدت إلى مكتبي وأخبرته برغبة المتصرف في رؤيته، فشهق بحزن وقال أسفاً: يبدو أنه لا ينوي إخلاء سبيل مجموعة الحمير هذه؟

أجبتهُ: لا، لكنه استغرب طلبك، وقال بأنه لم يُصادف أنه سمع بمثل هذا الطلب الغريب طيلة حياته، لذلك يرغب في رؤيتك والتكلم معك. وهكذا دخلنا معاً إلى مكتب السيد المتصرف.

– سيدي هذا هو صاحب الطلب.

التفتَ المتصرف إليه وخاطبه:

– يا عزيزي هؤلاء المساجين حمير وليسوا آدميين كي نُشفق على حالهم ونحررهم، أفسد هؤلاء الحمير منظر هذه المدينة الجميلة، وقد جمعناهم تمهيداً لنقلهم إلى بغداد لتقديمهم لحديقة الحيوانات هناك كي يتم ذبحهم ليكونوا طعام الحيوانات المفترسة في الحديقة.

ردّ **برهان جاهد** على المتصرف قائلاً:

سيدي، وما الفرق بيننا وبينهم؟! إنهم مساكين لا يملكون لساناً يُدافعون به عن أنفسهم. إنهم مثلنا أيضاً، وجِدوا في هذه البلاد ومن حقهم أن يُقاسمونا خيراته. كيف يمكننا أن نرضى بتعذيبهم

واحتجازهـم داخل السـياج في حرّ الصيف، أرى أنه مـن واجبي التحدث باسـمهم لرفـع الظلـم عنهـم وأطالبـك بتحريرهم.

روايـة مديـر المكتـب الشـيقة عـن حكايـة الحمـير دفعتنـي إلى سـؤاله: أخبرنـا٪٪٪ وهـل وافـق السـيد المتـصرف عـلى طلبـه أم لا؟

- يُحتمـل ألا تصدقـوني، فأنـا أعمل مع هذا المتصرف منـذ زمن طويل. إنـه رجـل صارم وعصبي جـداً لا يوّقع عـلى أي مـشروع إلاّ بصعوبة جمة، لكنـه بـدا وكأنه مسـحور، وبدلاً من أن يغضـب، استحسـن طلبه وأبدى موافقته عليه.

- وماذا فعلتم؟

- أرسـلنا معـه شرطياً وأمرنـا مركز شرطة **طـيراوه** بإخلاء سـبيل جميع الحمـير المحتجزيـن ونقلهـم بشـاحنة كبـيرة إلى خـارج المدينـة وتحريرهـم هناك.

6

تمثال العبودية

في هـذه الأثنـاء، مـرّ **جبـار آغـا كاني** الشـاعر مـن أمـام المقهـى ووجـه السـلام إلى الحضـور هنـاك، اسـتقبله عـم **عبوالجايجـي** قائـلاً:

– آغـا اجلـس معنا قليـلاً واشرب كوبـاً من الشـاي؟ واعلم مـا قام به قريبك في هـذه الأيام؟

– أي قريب؟

– **برهان جاهد.**

– مـاذا أفعـل معـه إنـه لا يسـمع كلامـي، فهـو مخمـور دائـماً لا يـترك هـذا العـرق المُـر. أخبرتـه أن كل صفاتـه جيـدة ما عـدا الإكثـار من شرب الخمـرة. نُعيـده كل يـوم مـن مـكانٍ مختلف.

– المسألة ليست في احتساء العرق والسُكر يا آغا.

– ماذا إذن؟ أيكون وقع في مشكلة؟

– لا، لم يسبب أيّ مشكلة، لكنه ذهب إلى المتصرف بطلب عجيب.

– وما هو هذا الطلب؟

«أمسـك عـم **عبـو** بيـده وأجلسـه في المقهي وقال لـه دعنـي أحكي لك بالتفصيـل». فـروى لـه الحكاية وهـو يضحك مدة ثـم قال:

– هـذه المـرة قـام **جاهد** بعمـلٍ جيد جـداً، رفع رؤوسـنا بينما انشـغلنا نحـن بالنـاس نكتـب القصائد لهـم، لم ينـسَ هو حتـى الحيوان.

استدرك وسأله:

هل خفت أن يكون قد قام بعمل مشين؟!

– ماالذي جعلك تعتقد ذلك يا آغا؟

«ضاحكاً»

– منـذ أيـام سَـكِر **جاهـد** وظـلَّ الطريق إلى بيتـه ليلاً فدخـل إلى مجاري المدينـة وغـطّ في نوم عميـق. وفي منتصف الليـل عاد إلى رشـده وحين فتح عينيه لم يرَ شـيئاً إلا الظلام. أراد النهوض فاصطدم رأسـه بسـقف المجرى، اعتقـد بأنـه ميـت وقد اصطدم رأسـه بسـقف اللحـد المظلم، لذلـك التزم في مكانـه واضطجـع وهـو يـردد الشـهادة، مُقتنعـاً بأنه ميت فعـلاً. ولكن حـين أشرقـت الشـمس وضرب شـعاعهاعينيه، عَلِـمَ أنه دخـل إلى مجاري الميـاه الثقيلـة ظنـاً منه أنه دخـلَ بيته.

«كانـت هـذه المـرة الأولى التـي ألتقـي فيهـا **جبـار آغـا كاني**، كنـت قد سـمعتُ عنـه، يقولون أنه شـخص ثـري وصاحـب أمـلاك وأراضي كثيرة لكنـه يتقاسـم هموم الفقـراء، اتصف بأنه رجل شـجاع وجـريء ولم يخضع للانكليـز وأعوانهـم أبداً».

– أسـعدني التعـرف إليـك يـا آغـا، كنـت قـد سـمعت عنك مـن قبل، وعلمـت أنـك شـاعر أيضاً، هـل يمكـن أن تُلقي عـلى أسـماعنا بعض من شِـعرك بهذه المناسـبة؟

– يُسعدني أن أُلبي طلبكم.

جبانٌ أنا إن منَّ عليَّ الجُبنُ

يا (كاني)[4] حملُ الصخر على الكتف عندي أفضلُ.

بعد ذلك التفت إلينا وخاطبنا:

– نحن الشعراء نشعر بآلام ومعاناة الناس أكثر من غيرنا، لذا وإن بدا ما فعله **برهان جاهد** غريباً لديكم فهو لديّ طبيعي جداً. فحساسية الشعراء تمكّنهم من الإحساس بنَفَس البعوضة أيضاً. أذكر أن شاعراً عربياً اسمه **عبد الحسين زلزل**، نشر قصيدة بعنوان (تمثال العبودية) في جريدة (لواء الاستقلال) منذ سنوات وقد أحدثت ضجة كبيرة في بغداد.

فالتفتُ إليه وقلت له:

– هل يمكن لنا أن نعرف سبب تلك الضجة يا جبار آغا؟

– كان الشاعر قد وصف التماثيل المنحوتة للملك فيصل والجنرال **مود**[5] في قصيدته بأنها تماثيل عبودية وأوثان.

– إن كنت تحفظ تلك القصيدة أيمكن أن تنشدها لنا؟

« أدخل يده في جيبه وأخرج صحيفة»

– هذه هي الصحيفة، اسمعوا سأقرأ القصيدة كما هي:

لمن التمثال في الكرخ تباهى وتبختر

وازدرى بالشعب فاستعلى عليه وتكبر

أولمن قاد جيوش العرب للنصر المؤزر

أولمن قد داس وجه البغي بالنعل وعفر

4) لقب لشاعر.

5) مود، قائد قوات الاحتلال البريطاني في العراق

أم لمن قد صاغ للأمة تأريخا مسطر
أيها الشامخ في الجو على من تتجبر؟
أنت رمز للعبوديات والحق المعفر
أنت تكبرت على مجد هوى، فالله أكبر

فقال العم **عبو**:

– ومـا درايتنـا نحـن باللغة العربية كـى نفهم هذه القصيـدة، فلتترجمها لنـا إلـى اللغة الكرديـة كي نفهـم معناها وأخبرنـا أيضاً عـن الفوضى التى أحدثتها.

بدأ **جبار أغا كاني** بترجمة القصيدة إلى الكردية واسترسل قائلاً:

– بعـد نـشر القصيـدة، تم إلقـاء القبض على صاحب الصحيفة **قاسـم حمـودي** بتهمـة نشر القصيدة باسـم مسـتعار، بحجـة الاسـتخفاف بالملك **فيصل**.

– ومـا ذنـب صاحب الصحيفـة؟ كان ينبغي إلقاء القبض على الشـاعر وليس صاحـب الصحيفة.

– لأن القصيـدة نُـشرت باسـم مسـتعار وصاحـب الصحيفـة لم يكـن مسـتعداً للكشـف عن اسـم الشـاعر، فتحمّل هو مسـؤوليتها وسُـجن في إثـر ذلك.

– كم سنة حُكم عليه؟

– خـرج بكفالـة في اليـوم نفسـه الـذي أُدخـل فيـه إلى السـجن، ثُـم في يـوم 4/ 8/ 1947 أُطلـق سراحـه بقـرار مـن حاكـم محكمـة جنايـات بغـداد، اعتمـدت المحكمـة في قرارهـا عـلى تحليل خـبراء المجـال اللغوي

والأدب العربي، التي كانت قد استعانت بها لذلك الغرض. بهذا ثبتت براءته، لقد أوضح الخبراء أن المقصود من تمثال العبودية هو تمثال القائد الانكليزي **الجنرال مود** وليس **الملك فيصل**، وبذلك تمَّ إقفال هذه القضية برفع الحجز عن الصحيفة.

نهض **جبار أغا** على قدميه قائلاً

– عم عبو سأذهب الآن، لديّ أشغال كثيرة.

نهضتُ أنا أيضاً وودّعت الحضور وتوجهتُ نحو كراج (ته نه كه) لأتفقد أحوال الأهل والخلان من العجائز الذين يجلبون الحليب والجبن على ظهر الحمير من القرية ويبيعونها في المدينة أمام الكراج.

7

مجزرة قصر الرحاب

بعد الانقلاب على النظام الملكي في العراق، وتصفية العائلة المالكة (**الملك فيصل** وعائلته) في قصر الرحاب، تسلَّم الحكم مجموعة من الضباط باسم الضباط الأحرار، وقد أعلنوا النظام الجمهوري، غادر الإنكليز والأمريكان العراق تاركين وراءهم مشروع **سد بيخمة** والعشرات من المشاريع الأخرى دون أن يكملوها، احتضنني مدير الشركة وهو يكاد ينفجر بالبكاء وودّعني قائلاً:

– سنغادر، لا يُمكننا البقاء هنا بعد الآن، فوصول هؤلاء الضباط إلى السلطة خطر يهدد حياتنا، هؤلاء الضباط مكلفون من قبل الاتحاد السوفيتي ومؤسساتها الاستخباراتية والتجسسية تدعمهم بقوة من أجل الاستيلاء على السلطة. من الآن فصاعداً لن يبقى أي دور للانكليز في **العراق**.

– كيف نجح انقلاب قام به مجموعة من الضباط؟ ألم يكن بالإمكان التغلب عليهم؟

– خطط الروس بدهاء عظيم لهذا الانقلاب، من خلال كسب الضباط والمسؤولين الذين عُهد إليهم مهمة حماية **قصر الرحاب** و**الملك فيصل** وعائلته.

- كيف حدث هذا؟ هلا أوضحت الأمر؟.

- يبدو أن الروس قد جنّدوا **عبد الكريم قاسم** و**عبد السلام عارف** وضُباط ومسؤلين آخرين منذ مدة، لكي يتجسسوا على **الملك فيصل** وعائلته حتى أنهم وبُغية التأثير في فوج حماية القصر كانوا مستفيدين من دور الإمام (الطابور الكردي)[6] الذي كان من سكان قرية **زلم** في منطقة **هورمان** كان خطيباً وإماماً في لواء **عبد السلام عارف**.

- إذاً اشترك الكورد أيضاً في هذا الانقلاب؟

«ضاحكاً»

- لا، لا، ليس هكذا، كان جميع الانقلابيون ضُباط عرب استفادوا من الآخرين للمراقبة فقط، حتى أن دور (الإمام طابور) لم يتجاوز نشر الدعوة إلى الانقلاب بين الضباط في الجيش.

«وضع يده على كتفي وأكمل مُتحسراً».

هذه ليست المرة الأولى التي يُصبح فيها الكرد أداةً بيد أعدائهم لو قرأت التاريخ، سترى حالات مشابهة لهذه.

أتذكر الأمر وكأنه حدث البارحة، حين انقلب علينا الشيخ م**حمود الحفيد** وعادانا بتوجيه من الأتراك، نحن من فسح له المجال ليُقيم مملكة له ولشعبه في مدينة **السليمانية**. لكنه لم يستفد من هذه الفرصة عدّنا نحن و(الانكليز) كفاراً ومحتلين وشجع القبائل الكردية على مواجهتنا، وبعدها دُمّرت مملكته وكان المستفيد من ذلك العرب والأتراك.

سنغادر نحن، لكن لن يرتاح أهل العراق، هل تعلم لماذا؟.

- لماذا؟!

6) الطابور الكردي: رجل الدين في الجيش، حيث لكل وحدة عسكرية في الجيش إماماً ضمن طابور يقوم بخدمة المسجد في المعسكر ليكون إماما و خطيباً في الجيش.

– يشبه العراقيون مناخ بلادهم المتقلب، يرقصون كل يوم على نغمة مُختلفة. إلى البارحة كان هؤلاء الضباط يُقسمون بحياة ملكهم، وبين ليلة وضحاها أغرقوه في دمائه. خانوا الثقة ونكسوا بوعودهم في الولاء للملك .

إنهم مثل (الروبوت) كيفما تأمرهم يتحركون، يلعبون في كل مرة على حبل، كانوا عملاء العثمانيين وبعدهم الإنكليز، والآن الروس، والله أعلم غداً سيصبحون عملاء استخبارات أية دولة.

«قبل أن يودعني أثنى عليَّ قائلاً»

إني راضٍ عنك تماماً وأرجو ألا أكون كدّرت صفوك. وكن على ثقة أن علاقتنا ستستمر رغم البعد، وسأحتفظ بملف سيرتك العملية لأعمل على التوصية بك لدى الشركات العالمية – المتخصصة في مجال السدود ـ التي قد تأتي إلى بلادكم، سأحرص حينها عن إخبارهم بنزاهتك وخبرتك كي يستفيدوا منها في العمل.

8

الفرصة الذهبية

كما قلت: بعد أن ترك الإنكليز العراق وعادوا إلى بلادهم، توقفت شركة **سد بيخمه** عن العمل، فبقيت متعطلة عن العمل مدة من الزمن.

اشتريت سيارة شفرليت أمريكية وكنت أعمل على خط **أربيل** والمناطق المجاورة لها. لم يتجاوز عدد السيارات آنذاك أصابع اليد الواحدة، بالإضافة إلى عدد من سيارات الخشب القديمة التي كانت تقوم بنقل الناس من المناطق البعيدة.

قليلاً ما كان سكان هذه القرى يقصدون المدينة ـ يقصدونها عند الضرورة القصوى فقط ـ في حين أن الناس في القرى المجاورة لـ **أربيل** يتنقلون سيراً على الأقدام. أما المُقيمين في المناطق المحاذية لـ **شقلاوة** فكانوا يأتون إلى المدينة بمحاصيلهم الزراعية بواسطة البغال والحمير فيبيعونها ويشترون بأثمانها احتياجاتهم.

أما أنا فكان أغلب زبائني من المناطق البعيدة والأغنياء والأغوات والشخصيات الاجتماعية المعروفة في تلك القرى والمناطق، كثيراً ما كان يُرسِل في طلبي (**أحمد أغا الميركه سوري** و**خدر اغا سرجيا** و**علي بك دوره تيسو**) فكنت أرافقهم لأسابيع خلال زياراتهم لمتصرف لواء **أربيل** وبعض المسؤولين الكبار في مدينة بغداد، وبعد الانتهاء من أعمالهم أُعيدهم إلى مناطقهم، كانوا يشعرون بالراحة معي، فيدفعون

أجـرتي بسـخاء، يعـبرون عـن إعجابهم بسـيارتي الحديثـة والجميلـة بلونها الأبيـض، كانـوا يعتبرونهـا بمثابة سـيارتهم ، وكنت أنا في المقابـل حريصاً عـلى عـدم إزعاجهم.

مـضى عـلى عملي هذا سـنتان أو ثـلاث، وفي أحد الأيام كنـتُ قد نقلتُ عـدداً مـن المسـافرين مـن مدينـة **حريـر** إلى مدينـة **أربيـل**، وكان يتوجـب عـليّ انتظارهـم لحـين الانتهـاء مـن شراء حاجياتهـم وتسـيير أعمالهـم كـي أُعيدهـم إلى مناطقهـم. فاتفقـت معهـم عـلى أن نلتقـي بعـد صـلاة العصر أمـام (**جامـع خانقـا**) وكان قـد مـر زمنٌ عـلى عـدم رؤيتي **عبدالله سـكود**، لـذا وجـدت أنـه من الجيـد أن أذهـب لرؤيتـه عند كـراج (**ته نـه كه**).

كان لديـه سـيارة سـكود حديثـة، لذلـك كانـوا يلقبونـه بـ **عبـدالله سـكود**، آنـذاك لم يملـك أحـد مثـل سـيارته في **أربيـل** . فـكان يتواجـد في كـراج (**تـه نـه كـه**) إن لم يكـن منشـغلاً بعمـل مـا، وفي بعـض الأحيـان كان يجلـس في حديقـة ريسـتهاوس الخاصـة بمحطـة القطار مـع الإنكليز.

حينما ذهبت إليه حيّيتُه، فحيّاني قائلاً:

- أيـن أنـت يـا بنـي؟ منذ مـدة وأنـت مختفي، لـدي بشرى سـارة لك.

- خيراً، أيُعقل أن **سد بيخمة** قد عاد إلى العمل؟!

- لا، هـذا السـد لـن يعـود إلى العمـل بعـد الآن، لكـن الأمريكيـين يبنـون سـداً أخـر في **دربنديخـان** على نهر **سـيروان** في لـواء **السـليمانية**، إنهم الآن مشـغولون بالعمـل هنـاك، اتصلـوا بي وطلبـوا سـائقاً يُجيـد اللغـة الإنكليزيـة كـي يكـون السـائق الخـاص لمديـر الشركـة.

- ما اسم هذا المدير وما هي جنسيته؟

- اسـمه السـيد **موركـن** من ولاية **تكسـاس**. يرغب بشـخص كردي

مـن أهـالي المنطقـة ويجيـد اللغـة الإنكليزيـة، كـي يصبـح سـائقه الخاص، وقـد أعطيته اسـمك وأخبرته عـن خبرتك وأسـهبت في وصفك، أخبرتهم أنـك كنـت جنديـاً لدى الإنكليز مـدة من الزمـن، وقد سرّهـم أن اتصلتُ بك وعرفتهـم عليك.

«شعرت بأني سأطير من الفرح»

- جيد جداً، وأنا أرغب في هذا العمل، كيف يمكن أن ألتقيهم؟

«مَدَ يده إلى جيبه واعطاني ورقة صغيرة وقال»

- هـذا عنوانـه، أنـت تعـرف مدينـة **السـليمانية** ومنطقـة **دربنديخـان**، إذهـب إليهـم بسـيارتك وعرّفهـم عـلى نفسـك وبلغهـم تحيـاتي، أخبرهم أنـك مَـن يبحثـون عنـه، يسـعدهم أن يعمـل معهم شـخص مثلـك خبير ويُجيـد الإنكليزيـة.

ودّعتُـه وعدت إلى مسـجد **خانقا** فوجـدت زبائني بانتظـاري، حييتُهم واعتـذرت منهـم إذ تأخـرتُ قليـلاً عـن الموعـد المحـدد، بعـد ركوبهـم السـيارة انطلقـت مبـاشرة نحـو **قصبـة حريـر** و**باتـاس**، في الطريـق كان نصـف تفكيري عنـد سـد **دربنديخان**. كنـتُ أتخيل (هـل تُراهم سـيهتمون بي ويصرفـون لي راتبـاً جيـداً كـما كانـت تفعـل شركـة **بيخمة**).

وصلنـا، ترجـل الـركاب وعـدتُ أنـا إلى عائلتـي في قريـة **آمـوكان** وأخبرتُهـم عـن إمكانية تعييني في شركـة **دربنديخان** فأخبرتهم بسـفري غداً وأننـي سـأغيب عـدة أيـام، لأعـود بعـد إنهـاء إجـراءات تعييني، فـإذا تم تثبيتـي سـأقوم بتأجـير بيت لأعـود واصطحبكـم معي للاسـتقرار هناك.

في اليـوم التـالي وقبـل أن تشرق الشـمس ومـع صياح الديـك انطلقت إلى **قصبـة دربنديخـان**، وصلـت إلى هناك بعـد الظهيرة، وبالسـؤال تمكنت مـن الوصـول إلى مقـر الشركـة في المنطقة حيـث تقع أسـفل البُحيرة.

هنـاك تعرفـت عـلى المديـر الإداري والمـالي للشركـة خـال **عبـده**، كان خفيـف الظـل، عرّفتـه عن نفسي وسـلمته رسـالة **عبدالله سـكود**، أخبرته أني مـن سـكان لـواء **أربيـل**، أتيتُ بنـاءً على معرفتـي برغبة السـيد **موركن** في تعيـين سـائقٍ خاص لـه، رحـب بي بحـرارة قائلاً:

– إنه لا يقبل بأيٍ كان، بل يُريد خبيراً متمكناً من اللغة الإنكليزية.

– كنـتُ جنديـاً مـع القـوات الإنكليزيـة ـ الاحتـلال البريطـاني ـ في **الحبانيـة**، وعملـت مترجمـاً وسـائقاً لدى مدير سـد بيخمـة، وحضرت إلى هنـا الآن بنـاءً عـلى توصيـة مـن عبـدالله سـكود، فـماذا تقولون؟

– حسـنا، كنـا نبحث عن شـخص مثلك، سـنذهب معاً إلى المسـؤول، سيُسعد كثيراً إذا أخبرته بحضورك. فنحن لا نعرف اللغة الإنكليزية، لذلك كنا نبحث عمن يسـاعدنا ليكون وسـيلة اتصال بيننا وبينه فيفهمنا ونفهمه.

توجهنا معاً إلى السيد(موركن). التفت الخال عبده لي قائلاً:

– أنـا لا أعـرف اللغـة الإنكليزيـة، انتـما تعرفاناهـا وتفهمانهـا، تفضـل عرفّـه عـلى نفسـك وأخـبره كل شيء بالتفصيـل.

ألقيتُ عليه تحية الصباح باللغة الإنكليزية،

أخبرتـه عـن خـبرتي وإمكانيـاتي والجهـات التـي عملـت معها سـابقاً، كان سـعيد بذلـك كثـيراً، وطلـب مني الجلـوس، عرّفني عن نفسـه قائلاً: أنـه مـن ولايـة تكسـاس الأمريكية حـضر إلى العـراق للعمل في هذا السـد منـذ مـدة. وقد عمل في بناء السـدود في أغلـب بلدان العالم، كـما أنه أعرب عن سـعادته بأنه وجد شـخصاً مثلي. وقال مُسترسـلاً في حديثـه: لن تكون سـائقي فقـط وإنـما مترجماً ومراقبـاً وموضع ثقتـي في هذه الشركـة أيضاً.

في ذلـك اليـوم بـاشرتُ بالعمـل في سـد **دربنديخـان** وقـد خصصـوا لي بيتـاً مـن البيوت التـي تم بناءهـا لكـوادر الشركـة في المنطقة، بقيـت هناك بمفـردي لعـدة أيـام ثـم طلبـت مـن المديـر منحـي إجازة كـي أقـوم بنقل عائلتـي وأغـراض منـزلي من **حرير وباتاس** إلى سـكني الجديد لاسـيما وأن تدهـور العلاقـات بـين الحكومـة المركزيـة والشـعب الكـردي آنـذاك أدى إلى صعوبـة في التنقـلات بـين المـدن الكرديـة، فـكان نقـل الحاجـات بـين مدينتـين يسـتوجب موافقـة متـصرف كِلا المدينتـين ليُسـمح بتمريرهـا من نقـاط التفتيش والسـيطرة.

9

عصر آخر

أدى صدور قانون الإصلاح الزراعي وما ترتب عنه من مصادرة أراضي الأغوات وأصحاب الأملاك الضخمة إلى احتجاجهم وإثارة سخطهم. فانقلبوا هؤلاء ـ الأغوات وأصحاب الأملاك والاراضي في منطقة (بيتوين وبشدر) ـ على **عبد الكريم قاسم**، مُمهدين بذلك لإعلان الثورة ضد سلطته، فبدأ بعض المثقفين والوجهاء من أمثال **همزة عبدالله** و**عم جلال**، و**ابراهيم أحمد** بالتنسيق مع أهل **كردستان** يحثونهم على الثورة ضد سلطة عبد الكريم قاسم. وفي الوقت ذاته قام الأغوات في **بيتوين** و**بشدر** بإرسال عم **جلال** إلى **مُلا مصطفى** يطالبونه بقطع علاقاته مع الزعيم ويتزعم هو الثورة.

في ظل هذه الظروف الصعبة، زرتُ متصرف لواء **أربيل** وطلبت منه الموافقة على نقل بيتي، وبعد أخذ ورد، وبعد أن أريته أمر تعييني في شركة سد **دربندخان** وافق على طلبي وخاطبني غاضباً:

– لقد حملتم السلاح ضدنا ووقفتُم في مواجهتنا، يُريد قائدكم احتواء الزعيم بعبارات براقة، قائلاً: (أنا جندي مخلص لك) ويجمع العشائر حوله من جهة أخرى ليُعادينا بتوجيه من الاسرائيليين والإيرانيين. وكأننا لا نعلم أن الأسلحة التي على أكتافهم من **إسرائيل** وشاه **إيران**.

- إنني موظف في سد دربنديخان ولا أعرف في السياسة شيئاً.

- كلكم سواء، تصافحوننا بيد وبالأخرى تطعنونا بخنجر من الخلف.

******

لم يكن لدينا أغراض مميزة، لذا عندما وصلت إلى القرية بقيتُ لأيام قليلة، ثم وضعت حاجياتنا البسيطة في صندوق السيارة، حزمت المفارش والبطانيات بحبل وثبّته بقوة على سطح السيارة.

كان عندي آنذاك طفلين فقط، بدأ ابني الكبير بالبكاء وقال معترضاً:

- سأبقى هنا، لن أذهب معكم. لذا اصطحبتُ زوجتي وابني الصغير فقط وانطلقنا.٪ حين وصلنا إلى **شقلاوة** نزلنا في قهوة لنشرب الشاي. لاحظتُ حالة من الإرباك والجَلَبَة بادية على ملامح الناس، سألتهم:

- كأن حادثاً حصل؟!

- أما علمتَ؟ قبل قليل قصفت مروحيتان عراقيتان قرية **بارزان**.

- لماذا؟ ألم يُعيدهم الزعيم نفسه من **الاتحاد السوفيتي**، لماذا يُهاجمهم الآن؟

- لقد تدهورت العلاقة بين **مُلا مصطفى** والزعيم، وغادر المُلا بغداد منذ أيام عدة قافلاً إلى قرية **بارزان** والناس في شرق **كردستان** وجنوبه يزورونه ويطالبونه بقيادة الثورة.

يقولون بأنه خلال تلك الأيام، زاره **كريم حسام** مع عدد من الشخصيات من منطقة الشرق باسم **عبدالرحمن قاسملو** قائد حركة التحرر الكردية في شرق **كردستان**، للهدف نفسه. يُقال بأن عم **جلال**

أيضاً حمل إليه رسالة من **عباس أغا، مامند اغا سركبكان** وأغوات **بيتوين وبشدر**، يطالبونه بقيادة الثورة.

تدخل أحدهم في الحديث:

– علمنا بأن أغوات **بيتوين وبشدر** يطالبون بالثورة بسبب قانون الإصلاح الزراعي، لكننا لم نفهم لِمَ يؤيد كرد الشرق الثورة؟

التفت أحد الجالسين إليه وخاطبه:

– يقولون بأن سكان القرى والمدن الشرقية يستعدون للقيام بثورة ضد حكم شاه **إيران**.

خاطبتُهم:

– أنتم محقين، الوضع غير طبيعي، والعلاقة بين مُلا مصطفى والزعيم متدهورة بشدة، ذهبت قبل أيام إلى المتصرف لأجل الحصول على موافقة لنقل بيتي إلى **دربنديخان**، وجدته غاضب جداً وقد وصف الأكراد بقسوة كما أنه وصفنا جميعاً بالأعداء قائلاً: أنتم تحاربون الحكومة بأسلحة **إسرائيل** وشاه **إيران**. لكني لم أفهم ما مصلحة كل من اسرائيل وشاه إيران في هذا ولماذا يزودوننا بالأسلحة لنقف ضد الحكومة؟

هَزَ أحد الجالسين رأسه متعجباً قائلاً:

– كيف لا تعرف؟! من مصلحة إسرائيل إضعاف حكومة **عبد الكريم قاسم**، لأنها حليف الإتحاد السوفيتي، فتتجنب بذلك تهديدهم لها بأمنها القومي. ويخاف شاه إيران من تعزيز الزعيم لموقعه في العراق، ويعمل على مساندة حزب توده اليساري الإيراني، فينقلبوا بدورهم ويُسقطوا النظام الملكي فتلقى عائلة شاه المالكة، مصير عائلة الملك فيصل نفسه.

هكـذا، ارتحنـا قليـلاً ثـم انطلقنـا نحـو مدينـة أربيـل، ومـن هنـاك إلى مدينـة السـليمانية متوجهـين إلى دربنديخـان، كان الطريـق طويـلاً، لـذا اسـترحنا في بعـض المواضـع، توقفنـا للغـداء في قصبـة **آلتـون كوبـري،** فأكلنـا كبابـاً شـهياً وشربنـا لبنـاً بـارداً مُنعشـاً اشـتهرت بهـما المدينـة، ثـم انطلقنـا مـرة أخـرى إلى أن وصلنـا إلى دربنديخـان كان المسـاء قـد حلّ علينـا، مـن شـدة إنهاكنـا في الطريـق لم نقـوَ عـلى إنـزال الحاجيـات والفـرش مـن السـيارة، لكـن جيراننـا الطيبـين وكان أحدهـم الخـال (عبـده) المديـر الإداري والمـالي في الشركـة٪ كانـا هـو ووزوجتـه (شمسـة خـان) خفيفـا الظـل، كانـت مثلـه متواضعـة٪ صاحـت عـلى أبنائهـا لمسـاعدتنا في إنـزال حاجياتنـا مـن السـيارة وبالرغـم مـن تأخـر الوقـت إلا أنهـم أعـدوا لنـا وجبـة شـهية ومكثـوا معنـا حتـى الانتهـاء مـن ترتيـب البيـت إلى سـاعة متأخـرة مـن الليـل.

في الصباح، توجهت إلى مدير الشركة وسردتُ له أحداث الأيام الفائتة.

هَزَ رأسه وقال:

ـ لم تـروا شـيئاً بعـد، إنهـا البدايـة فقـط، أظـن أن العـراق لـن يهـدأ بعـد الآن. كان **نـوري سـعيد** محقـاً حـين قـال « أنـا غطـاء منهـول الميـاه الثقيلـة، إن غبـتُ انتـشرت رائحـة القـذارة في كل أنحـاء العـراق» . هـا قـد بدأتـم بمعـاداة بعضكـم البعـض بحجـج واهيـة، بعـد سـنوات قليلـة فقـط عـلى إطاحكتـم بالملـك فيصـل. كانـت **دربنديخـان** مدينـة صغـيرة وعـدد سـكانها قليـل جـداً، يعمـل أغلبهـم في مـشروع هـذا السـد بأجـور يوميـة، والبعـض الآخـر موظفـين حكوميـين، كان قائـم مقـام المدينـة **عـلي فتـاح دزه يـي** مـن أهـالي لـواء **أربيـل،** عرفنـا بعـض مسـبقاً لذلـك لم أشـعر بالغربـة هنـاك، تتمتـع المدينـة بطبيعـة خلابـة، يمـر خلالهـا نهـر **سـيروان،** كـما أن وجـود السـد بشـلالاته التـي أضفـت عليـه جماليـة عـدى عـن أنـه مصـدر جيـد لصيـد الأسـماك، فـكان النـاس

يرمـون الشـباك في مائـه وزيـادة في التمتـع يسـتخدمون صنـارات الصيد.

أقمنـا في أحـد البيـوت المُخصصـة لموظفي وعـمال السـد، حيث يعرف الجـيران بعضهـم البعض، نعمل نهـاراً معاً وفي الليل نـزور بعضنا البعض، فنجتمـع كل ليلـة في أحد البيوت نتسـامر ونقـضي أوقاتاً ممتعة.

اجتمعنـا ذات ليلـة في بيـت الخـال **عبـده** سرد كل واحـد منـا قصتـه للآخريـن، فأشـار الخـال عبـده إلى زوجتـه **شمسـة خـان** وقـال: تـرون (شمسـة) هـذه، لقـد ربحتها في لعبـة قمار. حـين ذكر ذلك اندهشـنا ونظر كل منّـا إلى الآخـر، ثـم سـألت الخـال عبـده:

– كيـف حـدث هـذا؟ نعلـم أن المقامـرة تكـون عـلى المـال، ولم نعرف أنها قـد تكـون على امـرأة.

–«أجـاب ضاحـكاً» كانـت مقامرتنـا في البدايـة عـلى المـال، لكـن والدهـا وهو مقامر مشـهور في السـليمانية، حينـما لعبت معـه لم يكن يتوقع أن أغلبـه، فلعـب معـي بلا مبـالاة إلى أن خـسر كل أمواله. مـع أني طلبت منـه التوقـف، لكنـه كان مـصراً عـلى الاسـتمرار رغـم خسـارته، فطلـب منـي اللعب وأنه في حالة خسـارته سـيمنحني ابنته (شمسـة خـان)، أما في حال خسـارتي فسـأعيد له كل ما خسره مـن أموال. مع أننـي كنت متزوجاً آنـذاك وكانـت زوجتـي (**آمـه خـان**) امـرأة جميلة وصالحـة، كنا نسـكن في حـي **قَرَجـاوه** في السـليمانية، لكـن بـلا شـك كانت (شمسـة خـان) أجمل وفتيـة أكثـر منهـا، لذلك وافقـتُ دون تـردد وكان أن كسـبتها هـي أيضاً.

التفت إلى (شمسة خان) وسألتها:

– هل ما يقوله الخال عبده صحيح؟

ـ «ضاحكة» إنه محق، لقد خسرني والدي في مقامرة.

10

الرقم ثلاثة عشر المشؤوم

في إحدى الليالي، اجتمعنا نحن والجيران جميعهم نتسامر في بيتنا نحتسي الشاي ونتناول الجرزات، لكن ظل عم **عمر** منشغل البال لأنه ترك أطفاله وحدهم في البيت، فقد توفيت زوجته منذ بضعة أيامٍ ومازال الحزن متمكناً منه.

مال الخال عبده نحوي وسألني:

– ما قولك أن نجد للأخ عمر عروساً ونزوجه.

– نزوجه مَن؟ انا لا أعرف أحداً، إن كنت تعرف واحدة فالنتوكل على الله وننجز الفكرة.

– يقولون أن عمة **سلطانة** انفصلت عن زوجها، وهي تبحث عن رجل تتزوج منه.

– سلطانة هذه شهوانية، أظن أنها تزوجت اثنتا عشرة مرة إلى الآن ولم تشبع أبداً.

فإن لم يجامعها زوجها ليلة واحدة طردته وطلقته بالثلاث. لا أظن أن العم عمر قادر على إشباعها، إنه مسكين دعنا لا نورطه معها، فمشاكله ستعود علينا في النهاية.

أجاب الخال عبده قائلاً:

– لا، لا، لا تبالغ هكذا، العمة سلطانة لها بيتها، وليست في حاجة إلى شيء، ومؤخر صداقها في أي زواج هو قراءة سورة الفاتحة فقط.

فليصبح العم عمر زوجها الثالث عشر ونعقد قرانهما على سورة الفاتحة. والحديث بيننا زوجته متوفية منذ أيام وتراه الآن متلهفاً، على الأقل ستشبعه أسبوع أو اثنين وليحدث بعد ذلك ما يحدث، أسوأ ما قد يحدث أنها ستركله خارجاً وتطلقه.

أثناء حديثنا، التفت العم عمر إلينا وسألنا:

ما بكما؟ عن ماذا تتحدثان؟ أشركونا في حديثكما فربما لدينا وجهة نظر مختلفة.

أجابه الخال عبده:

– في الحقيقة كنا نتحدث عنك، إننا مشغولان بك ونريد تزويجك.

– لم يمر على وفاة زوجتي المرحومة أربعين يوماً كي تزوجوني.

فقال الخال عبده:

– أعلم ذلك، لكن أخاف أن تضيع العمة سلطانة من أيدينا، يقولون أنها طلقت زوجها وتبحث الآن عن رجل آخر لتتزوج منه.

– أما شَبِعَتْ هذه من الرجال، تزوجت رتلاً من الرجال ألم تكتفِ؟

قال الخال عبده:

– وما شأننا بذلك، فلتتزوج مئة مرة، المهم أن نقنعها بالزواج منك فتسد الفراغ الذي تركته المرحومة زوجتك، وتدفئك في هذا الشتاء البارد.

بدا العم عمر سعيداً لسماعه هذا الكلام، فلم يتفوه بكلمة.

التفت إليه الخال عبده قائلاً:

– ما قولك؟ نتوكل على الله ونذهب الليلة ونطلبها لك الآن.

مع أن العم عمر بدا أنه كان راغباً في ذلك، إلا أنه تماسك وقال:

– وماذا سيقول عني الناس؟ لم يمر على وفاة زوجتي أربعين يوم بعدُ.

فقال الخال عبده:

– ومَن سيتكلم؟! ها نحن جميعنا هنا والموت سيُدركنا جميعاً والمرحومة لن تعود ثانية، لذا لا تتردد ودعنا نذهب لنطلب العمة سلطانة لك قبل أن تضيع من بين أيدينا.

– لكني لا أملك مالاً الآن، كل ما كان عندي صرفته في عزاء المرحومة.

قال الخال عبده:

– لا تشغل بالك بهذا، العمة سلطانة لا تطلب مالاً، إنها تعقد قرانها على سورة الفاتحة، وإن قَبِلت سيكون لديها شرط صغير فقط.

– وما هو؟

– أن تكون العصمة بيدها.

قال العم عمر:

– وما هذا٪٪٪؟! إنه شرط بسيط جداً كونوا شاهدين أني موافق عليه منذ الآن.

هكذا توجهنا جميعاً إلى بيت العمة سلطانة، كان بيتها في زقاق يسبق الزقاق الذي يقع فيه بيتنا، أخذنا العم عمر معنا، ألقينا التحية والسلام

ولبثنا في الباب نقهقه بينما وجه الخال عبده حديثه إلى العمة سلطانة:

- أتعلمين لمَ جئنا في هذا الليل؟

-لا أعلم.

« وضع الخال عبده يده على كتف العم عمر وخاطبها»

- تعلمين أن زوجة هذا الرجل الوسيم ماتت منذ أيام وتركته وحيداً وقال القدماء أن الوحدة لله فقط، وأنتِ وحيدة منذ مدة مثلك مثل العم عمر تحتاجين إلى شريك، فاقترحنا عليه أن نتوكل على الله ونوفق بينكما بالخير.

«لم أكن في الحقيقة أعرف العمة سلطانة، علماً أن أهل المنطقة أخبروني قصتها منذ أول يوم لي بينهم، فقالوا: أنها توّاقة إلى الرجال يصعب إشباعها وأنها تزوجت اثنتا عشرة مرة إلى الآن وأغلب أزواجها قضوا نحبهم. لكني لم أعلم أنه يتم خطبتها على عتبة الباب، بدا الوضع غريباً بالنسبة لي، كنت أتوقع أن تشتمنا على جرئتنا، لكنها على العكس، ومن شدة سعادتها شعرتُ بها وكأنها ستُحلق في الفضاء، لم تنتظر لندخل إلى المنزل».

وهي في العتبة قالت:

- لن أجد رجلاً أفضل من العم عمر، رجل وسيم يستحق خانم مثلي. لا أقصد امتداح نفسي، لكن إسالوا أهل **دربنديخان** لتعلموا كم كنت زوجة حسنة لأزواجي. وقد يكون من المعيب القول أني كلما أقمت علاقة معهم لم أتركهم إلا وقد وصلوا إلى الذروة معي، فلا تحملوا همّ العم عمر والله سأُنعم عليه نعمة لا يمنحنها للرجل إلا الحوريات في الجنة، لن أتركه إلا بعد أن أُشبّعه وأُعّوضه عن تلك الأيام.

ونحن نُقهقه التفتنا إلى العم عمر قائلين:

– ماذا تريد أكثر من هذا، لقد ليّن الله لك قلب العمة سلطانة وقبلت بك زوجاً، لن تبقى وحيداً بعد الآن سيكون لك فراش دافيء في هذا الشتاء وكل ما نريده منكما هو دعواتكما لنا بالخير.

التفتَ العم عمر إلى العمة سلطانة وقال:

– أشكركِ كثيراً لأنكِ قبلتِ بي وأتعهد لكِ أمام الخال عبده والسادة الحضور أن أحملك في عيني ولا أُزعجكِ بفعل تعاتبيني عليه. ثم أعدّت لنا العمة سلطانة عصير الزبيب.

اقترح الخال عبده قائلاً:

ـ لنتمّ هذا الأمر الليلة كي تُسعدان معاً.

وقبل أن نسمع إجابة العمة سلطانة، قال العم عمر:

ـ يا خال عبده أنت تعلم أني لا أملك المال الآن، كل ما كان معي صرفته على جنازة المرحومة، من الأفضل الانتظار لأيام، على الأقل إلى أن نقبض راتب هذا الشهر.

أراد الخال عبده أن يُجيب، لكن العمة سلطانة قاطعته قائلة:

ـ وما حاجتنا إلى المال؟ فأنا لديّ منزل كبير ولا ينقصني شيء، إذا وافقتَ فليبقى أولادك في بيتكم ونعيشُ أنا وأنت هنا، وفيما يخص الاحتفال ليست المرة الأولى التي نتزوج فيها لا أنت ولا أنا، لذلك ما من حاجة للاحتفال ومن الآن وبحضور هؤلاء المحترمين سنُنهي كل شيء.

أسعد هذا الكلام الخال عبده، فخاطبها قائلاً:

ـ لنبدأ بالمهر، على ماذا تريدين أن يُعقد قرانك؟

ـ على قراءة سورة الفاتحة، إنها أثمن عندي من كل شيء.

وبصوت واحد وافقناها الرأي:

ـ نشهد أنك محقة.

أمسك الخال عبده بيد **الفقيه وسمان** مُتحدثاً إليه:

ـ أنت دارس في حجرة المسجد وتستطيع أن تَعقد القران، أُعجب الفقيه وسمان بنفسه إذ اعترفوا به في مجلس كهذا، وقد كانوا هؤلاء أنفسهم يستهزؤون به كلما أراد الخوض في علوم الشريعة. فكانوا ينهوه قائلين: (درّسك مُلا في حجرة المسجد لأيام فقط، ولست عالماً لتحدثنا عن الشريعة)

التفت **الفقيه وسمان** إلى الخال عبده وقال:

ـ أنت محق، عقد القران في الشريعة الإسلامية سهل للغاية يحتاج موافقة العروسين فقط وقد عقدت قران الكثيرين إلى الآن.

فقال الخال عبده:

ـ وأنا أعلم ذلك لهذا جئنا بك معنا ليعود هذا الثواب إليك.

التفت **الفقيه وسمان** إلى العم **عمر** والعمة **سلطانة** وقال لهما: رددا ورائي ما أقوله.

قالت العمة سلطانة: لدي شرط واحد يا مُلا، أريد أن أعرف إن كان العم **عمر** موافق أم لا، آنذاك اتزوج منه.

قال **فقي وسمان**:

ـ ما هو شرطك ؟

ـ أن تكون العصمة في يدي أنا.

التفت **فقي وسمان** إلى العم **عمر** وسأله:

ـ أتوافق على شرطها؟

ـ لا أعرف شيئاً في الشريعة، أفهموني ما معنى ذلك؟

ـ عادة يكون الطلاق في الشريعة الإسلامية بيد الرجل يُجيز له أن يُطلّق زوجته ثلاثاً مرة واحدة أو على مرات، لكن العمة **سلطانة** تُريد أن يكون حق التطليق بيدها فإذا شاءت رمت اليمين وتطلقت من زوجها.

قال الخال **عبده** ضاحكاً:

ـ باختصار ستصبح زوجاً لك بهذا الشرط فإذا خرجت عن طاعتها طلقتك بالثلاث.

أجاب العم عمر:

ـ أوافق على شرطها، ولن أقوم بما يزعجها.

اقترب الخال عبده من العم **عمر** وهمس في أذنه:

ـ العمة **سلطانه** تموت في (.....) تعرف قصدي؟!

ـ لم أفقد رجولتي بعدُ كي أقلق.

التفت **الفقيه وسمان** إلى العمة **سلطانة** وقال لها:

ـ رددي ورائي.

ـ حسناً.

ـ أزوجك نفسي على قراءة سورة الفاتحة مهراً مُقدماً وعلبة سجائر غازي[7] مؤخر صداق شرط أن تكون العصمة بيدي.

رددت الخالة **سلطانة** بعد **الفقيه وسمان** كل ما قاله بدقة.

ثم انتقل **الفقيه وسمان** إلى العم **عمر** وقال:

ـ قل لها قبلت بكِ زوجة.

فقال العم **عمر**:

ـ قبلتُ بكِ زوجة.

بهذا وعلى يد **الفقيه وسمان** وبشهادتنا نحن الحضور عُقد قران العم **عمر** والعمة **سلطانه** فهنئناهما وتركناهما لليلتهما.

وكعادتنا، انعقد مجلس السمر في بيت أحدنا كل ليلة. ومرت عدة أيام على زواج العم **عمر**، ولم نسمع حسه.

فقلنا: لعله يعيش في سعادة وهناء لذلك لم نعُد نراه.

وذات ليلة كنّا جالسين في بيت الخال **عبده**، وقد انشغل الشباب بلعبة (**كلاوكلاوينه**) القبعات، بينما انقسمنا نحن الكبار إلى فريقين، فكنت أنا والخال **عبده** و**خوشابا** والعم **شمعون** نحتسي الخمر وكان الخال **عبده** يُطرب أسماعنا وهو يحتسي الخمر، بأغنية العم **سيوه** إنه وقت السحر (ئاي سەحەرە). في حين اجتمع العم **جليل** وحمه **صالح** و**الفقيه وسمان** معاً فكان أمامهم طبق من حبوب دوار الشمس يتناولونه ويتحدثون عن يوم الحشر. فجأة، طُرق الباب بقوة، صاح الخال **عبده** بصوت عالٍ:

الباب مفتوح، تفضل بالدخول.

7) غازي: نوع من السجائر الموجودة في العهد الملكي سُميت كذلك نسبة إلى اسم الملك غازي أول ملك في العراق.

اقتحم العم **عمر** الغرفة طالباً النجدة وهو يقول:

ـ انقذوني **سلطانة** تلاحقني كي تضربني؟!

لم نتمالك أنفسنا وبدأنا نقهقه، «ما رأيت ذلك في كل حياتي، كنت أعلم أن الرجل يضرب امرأته، لم أعرف رجلاً تلاحقه زوجته ويخافها».

بادر الخال **عبده** بالتدخل قائلاً:

ـ سامحك الله، هل يخاف رجل من زوجته! إنها ليست ذئبة لتفترسك وترتعب هكذا.

فأجاب العم عمر:

ـ زوجتي ليست امرأة، إنها بلاء من الله، كأنها طاحونة، مهما زدتها لا تمتلىء. نشّفت ماء قدمي وتطلب المزيد دائماً، أنا لست عصفوراً يُطارحها في الثانية عشرات المرات.

أثناء ذلك اقتحمت الخالة **سلطانة** الغرفة دون أن تُلقي السلام، بيدها شحاطة منزلية وصرخت:

ـ افسحوا لي الطريق لا بدّ أن أقتل عديم الرجولة الذي أحرجني، طالما يعلم أنه ليس رجلاً لماذا يتزوج بي ويضيع عليّ عشرات الفرص للزواج.

توجه إليها الخال **عبده** وقال:

ـ وحِدا الله وتصالحا، هذه الدنيا لا تستأهل، توّكما دخلتما القفص الذهبي وما زلتما في شهر العسل، لمَ تتشاجران.

ـ وهل هذا شهر عسل، إنها تستنفذ طاقتي تُريد قتلي ـ وتوّجه إلى **الفقيه وسمان** متسائلاً ـ أخبرني يا مُلا بأي شرعٍ ينبغي للرجل أن يُطارح زوجته إلى الصباح؟

أجاب **فقي وسمان** قائلاً:

ـ وحدا الله، ما هذا الكلام؟ لا أظن أن هذا ما أرادته العمة سلطانة، كلنا أرباب عائلات، مَن منا بإمكانه ذلك؟ هذه ليست وجبات طعام نتناولها ثلاث مرات في اليوم.

لم يعجب حديث **فقي وسمان** الخاله **سلطانة**، التفتْ إليه وقالت غاضبة:

ـ أقسم بالله أنك لا تعرف شيئاً عن شريعة الله أبداً، لهذا لم ترتقِ لحد الآن لتُصبح مُلّا، سأذهبُ إذن إلى فقهاء آخرين لأعلم منهم واجبات الزوج اتجاه زوجته.

أجاب **الفقية وسمان**:

ـ صدقتِ يا سلطانة، إن الله سبحانه وتعالى يقول: (وعاشروهُنْ بالمَعروف) يعني تعاملوا معهن بالحُسنى كذلك جاء في الحديث النبوي (فإن لجسدك عليك حقا وإن لعينك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا) يُشير هذا الحديث إلى حقوق الأزواج اتجاه بعضهما البعض، ومن ذلك حق ممارسة الجنس، إذ مع ممارسة واحدة من الجنس بين الأزواج، سيُكتب له ثواب سبعين صلاة في يوم القيامة.

استحسنت منه الخاله سلطانة هذا الكلام، فالتفتت إلينا قائلة:

ـ أنا لستُ كافرة مثله، وأفهم الشريعة قليلاً.

«سحبت العم **عمر** من ذراعه وقالت بصوت مرتفع»

طلقتُ نفسي منك ثلاثاً، اتفوه على رجولتك، تزوجتُ اثنتي عشر رجلاً قبلك لم يكن أحدهم عديم الرجولة مثلك.

رد العم **عمر** قائلاً:

ـ ليتهم كانوا عديمي الرجولة مثلي، على الأقل كانوا سيبقون أحياء، لكن حياءهم دفعهم إلى تحمّلك فاستُشهدوا في سبيل إشباعكِ.

التفت الخال **عبده** إلى العم **عمر** وخاطبه:

ـ لماذا لا تتصالحان، كلٌ منكما لديه تجربة سابقة لستُما صغيرين، كما أنه لا بُدّ أن يكون لكلٍّ منكما زوج، الوحدة لله فقط والعتب بين الأزواج لا يعفي من أن يتحمل كل منهما الآخر ويتقبله.

أجاب العم عمر قائلاً:

ـ لا، لا، لن أكرر هذه الغلطة، لن أفكر في الزواج مرة أخرى ما حييتُ، جيدٌ أني نفذتُ بجلدي وإلاّ كنتُ سأصبحُ الشهيد الثالث عشر.

أما العمة **سلطانة** فكأنّ شيئاً لم يكُن. إذ هزّت نفسها مرتين حتى امتلأت الغرفة بطيب عقد القرنفل الذي كانت تلبسه في رقبتها، ثم استدارت وتحركت باتجاه الباب وهي تُحدث نفسها وتقول: وهل انعدمت المدينة من الرجال، المئات ممن هم أفضل منه يتمنون الزواج مني .

11

الطائرة والبيدر

كما ذكرت سابقاً، بأنه مع صدور قانون الإصلاح الزراعي، ظهرت حركات الاحتجاج من قِبل رؤوساء العشائر والأغوات ومُلاك الأراضي المعروفين في كردستان ضد عبد الكريم قاسم، فحملوا السلاح ضده،

ارتبكت الحكومة العراقية وحشدت قواتها في مختلف الأماكن، وعززت مراكز السيطرة وأقامت نِقاط للتفتيش بين المدن الكبيرة والقصبات والأقضية، تزعزعت ثقتها بالأكراد. وقد استغرب مدير شركتنا أمريكي الجنسية الأوضاع، وبات يخاف كثيراً أن يتعرض للمكائن أثناء الانتقال، وبناء على طلبه أرسلوا له من أمريكا طائرة صغيرة تتسع لنفرين، طلب مني الاستفادة من خبرات المدربين الأمريكين والتدرب عليها لأننا سنستقلها للقيام برحلاتنا وتحركاتنا بين المدن في المنطقة.

كانت الطائرة بسيطة، فكان من السهل التعلم عليها، احتجت عدة أيام للتمكن من قيادتها، وفي أحد الأيام وبينما كناعائدين من بغداد بمرافقة مدير الشركة، أصاب الطائرة خلل فني قرب مدينة دربنديخان، وفشلت في إصلاح الخلل، لم أهتم بحياتي، بل كنت مشغولاً ومهموماً على المدير، فقد تبادر لذهني خاطر زاد من إصراري على النجاة: (إن تعرض المدير إلى مكروه وهو معي ستتشوه سمعة الأكراد ليقول

الأمريكان بأن الكرد تعمدوا قتل هذا المدير) لذلك حاولت الصمود لأخر رمق ومستمراً في الطيران مع التفكير بإيجاد حل مناسب للخروج من المأزق بأقل الخسائر.

بدأت أفقد السيطرة على الطائرة بين الحين والآخر، فتتمايل أجنحتها وتهتز كالسيارة، وقد ظنّ المدير أني نسيت كيفية القيادة، فكان يطمئنني قائلاً: هديء من روعك وحاول التذكر. أجبته بهدوء: إنك محق، سأحاول أن أتذكر.

فجأة، وعندما ألقيت نظرة سريعة إلى الأرض، رأيت بعض الفلاحين المشغولين بحصاد الحبوب وعلى مقربة منهم البيدر، بينما كان البعض منهم جالس تحت شجرة التوت وبقربهم سماور كبير لتحضير الشاي.

أُعجبت بجمال المنظر، وحالاً خطرت ببالي فكرة، فتوجهت إلى البيدر.

ظنّ الناس أننا سنقصفهم فركضوا كلٌّ منهم في اتجاه.

اصطدمت بكومة في البيدر وغرقنا فيها، بعد قليل تجمع الناس يُثيرون اللغط من حولنا، بينما تحررتُ أنا من حزام الأمان وأخرجتُ رأسي من الطائرة لطلب النجدة، لإسعاف مدير شركة السد الذي كان بر فقتي.

سحب الفلاحون الطائرة وأخرجوها من البيدر، بعد أن خرج منها المدير سالماً.

وقد خاطبني غاضباً: هل أنت مجنون؟! مادُمت لم تتقن قيادة الطائرة بشكلٍ جيد، لماذا جازفت بقيادتها؟ أوشكت على قتلي!!

أجبتهُ قائلاً:

ـ كانت المشكلة بسبب خلل فني، أخفيت عنك ذلك كي لا أثير الرعب في نفسك ولنحمد الله أن هذا البيدر الكبير كان هنا لنجدتنا، فقد تعمدت السقوط فيه، ولا تخف فلن يتكرر هذا مرة أخرى.

قهقه وقال:

ـ لم أكن أعلم أنكم أنتم الأكراد شديدوا الذكاء هكذا، كيف خطر لك ذلك؟.

ـ لم يكن أمامنا خيار آخر، كان السد بعيداً وكنت قد فكرتُ في الاصطدام به، وحينما رأيتُ البيدر قررت أن ذلك سيكون أفضل خيار.

لم يخلُ التنقل بتلك الطائرة من المشاكل، لكنّا كنا مجبرين على استخدامها للوصول إلى بغداد، خاصة أن الحرب تتأجج وتتسع رقعتها بين الأكراد وحكومة قاسم مما أثّر سلباً على الوضع الأمني في المنطقة.

بعد يوم واحد من هذه الحادثة، اقترحتُ على المدير العودة إلى سيرتنا القديمة والتنقل بالسيارة بدلاً من الطائرة، مخافة التعرض لحوادث أكثر خطورة. فكان جوابه أن مخاوف التنقل براً أكثر بكثير من مخاوف التنقل جواً. فسألتُه مُتعجباً:

ـ كيف؟

ـ ماذا لو اعترض طريقنا المسلحون الأكراد، ماذا سنفعل آنذاك؟

ـ هؤلاء حملوا السلاح ضد حكومة قاسم وقانون الإصلاح الزراعي، لِمَ قد يُشكّلون خطراً علينا؟

ـ يبدو أنك لا تعلم؟! أن سبب الثورة ظاهرياً هو قانون الإصلاح الزراعي وإعادة توزيع الأراضي وممتلكات الآغوات على الفلاحين، لكن في الحقيقة السبب الرئيسي هو انقلاب قاسم على الشيوعيين

وتقرّبه من الغرب، ما أغضب الاتحاد السوفيتي والرئيس خروبتشوف وقد استغل هؤلاء ثورة الآغوات وحركتهم ضد قاسم لمصلحتهم، وعن طريق جهاز المخابرات المعروف بـ (كي. جي. بي) تمكّنوا من التسلل إلى داخل هذه الحركة، وعملوا على تحفيز بعض شخصيات حركة التحرر الكردية في العراق وإيران وتركيا، لإعادة فكرة تأسيس الدولة الكردستانية الكبرى والتي يعتبرها الأكراد الحلم التاريخي لهم، فيعملون على تزويدهم بالأسلحة والذخائر، وهذا ما يؤدي في النهاية إلى وهذا ما أقلق الدول الغربية عموماً وبريطانيا خصوصاً بشكل كبير، لما يمكن أن يؤدي ذلك إلى عرقلة سير خط النفط من عراق وإيران فضلاً عن الدور العسكري للولايات المتحدة الأمريكية في تركيا.

يرى السوفييت أن خلق هذه الأزمات بالإضافة إلى ما يعكسه من أثر سلبي على الدول الغربية، كل ذلك سيؤثر على حكومة قاسم الذي بدأ مؤخراً بتصفية الشيوعيين مجاملة للغرب.

ـ إذن كيف لم تنتبه دول الغرب لمخطط الاتحاد السوفيتي هذا؟!

أيمكن أن تكون هذه الدول غافلة عما يرمي إليه الاتحاد السوفيتي؟

ـ لقد انتابتهم مخاوفهم هذه مُبكراً، فبعد ثلاثة أشهر من انقلاب عبد الكريم قاسم واسقاط النظام الملكي في العراق، أرسل السفير الأمريكي في العراق رسالة تحذير إلى أمريكا في مذكرته الموجهة إلى وزارة الخارجية مفاده أن الروس يحاربون حكومة قاسم عن طريق الأكراد ما يُقلق استقرارهم.

استمرينا هكذا، لا أنا تمكنت من إقناعه بأن حركة العشائر الكردية ضد حكومة قاسم فقط، ولا تشكل خطراً عليهم ولا على مصالح الغرب، ولا هو تمكّن من إقناعي بأنها تُدار من قبل الروس لضرب مصالح بريطانيا وأمريكا.

على أية حال جعلني رأي المدير قلِقاً فاهتزت الثقة فيما بيننا. فبتُ أتعامل معه بحذر شديد مخافة أن يشكك في ولائي ويعتقد أني مع المعارضة.

كان المدير ذكياً وحساساً للغاية، وقد لمس التغيير الذي طرأ على طريقة تعاملي معه. لذا قال:

ـ أعلم سبب توجسك، وابتعادك عن ممازحتي كالسابق، فأنت تعتقد بأني فقدت ثقتي بك.

ـ لا ليس للأمر علاقة بك، أنا فقط أشعر بالضيق.

ـ لا تحزن إني أثق بك تماماً وأعلم بأنك تُحبني كثيراً رغم انحيازك إلى دول الغرب أكثر من دول الشرق، لأنك نشأت على تربية الأنجليز، فقد اطلعتُ على بياناتك الشخصية الموجودة لدى وزارة الخارجية البريطانية قبل تعيينك، علمتُ أنهم كانوا يثقون بك تماماً معللين ثقتهم بأنه يمكن الاعتماد عليك. لذا عينتك سائقي الخاص وأتحدث أمامك بكل حرية.

ثم أمسك يدي وطلب مني الجلوس لاحتساء القهوة معاً ـ قائلاً وسأزيدك ببعض المعلومات لتطمئن إليَّ وتثق بي أكثر.

جلسنا معاً، قال وهو يحتسي قهوته:

ـ اذا تدخلت روسيا في شؤون العراق عن طريق الأكراد العائدين من الاتحاد السوفيتي، حينها لن تقف أمريكا متفرجة، هي أيضاً ستتدخل وتشارك في تلك التحركات للحفاظ على مصالحها حتى لو استعانت بالموساد الاسرائيلي وشاه إيران.

ـ لقد تشوش تفكيري أكثر، لم أعد أعلم مع مَن يجب أن أكون، الروس أم اسرائيل وأمريكا؟

ـ في السياسة لا تدوم لا صداقة ولا عداوة، ما يدوم هو المصالح، لذلك من المهم أن نتمكن من إيجاد موقع لنا في هذه المعادلة كي نحافظ على مصالحنا. لكن الوضع مخيف، لأن أغلب من حمل السلاح لا يُدرك خفايا الأمور، قد يخالفون الاتفاقيات السرية التي عقدتها دولتنا مع قيادة هذه الحركات عن طريق أجهزة المخابرات.

ـ كيف يحدث هذا ؟ لماذا لا تُعلِمُكُم حكومتكم بمحتوى هذه الاتفاقيات؟

ـ لا، إنهم يتجنبون كشف هذه العلاقات خوفاً من الروس، كي لا يُتهموا بالتدخل في الشؤون الداخلية لهذه البلاد، لذلك يعملون في الخفاء للحفاظ على مصالحهم، ينتشر جواسيسهم في الصحافة والمنظمات الخيرية، إنهم يراقبون الوضع عن كثب.

******

ذكرتُ سابقاً أن طائرتنا توقفت عن العمل بسبب ذلك الخلل، وبقيت مركونة في ساحة السد في انتظار وصول الخبراء من أمريكا لإصلاحها، مما اضطرنا إلى استخدام السيارة من أجل التنقل بين **بغداد** و**دربنديخان** خلال تلك المدة.

12

السلب والنهب

مـع نهاية الشـهر، توجهنـا (أنـا والمدير) إلى بغـداد بالسـيارة، من أجل تأمـين رواتـب موظفي وعمال السـد، وعند عودتنا ـ كان قـد خيّم الظلام ـ ونحـن في الطريـق بين سـليمانية ودربنديخان، فجأة ظهـر أحدهم، وقف في عـرض الشـارع وبدأ يلـوح بيديه طلبـاً للمسـاعدة، أمرني المديـر بالتوقف كـي نسـتفهم مـاذا يُريـد، وتلبيـة لرغبـة المديـر، شـغّلت الضـوء العالي في إشـارة لـه كي يبتعـد عن عـرض الطريق، وقـد خففت من سرعة السـيارة أثنـاء ذلـك اسـتعداداً للتوقـف، وحـين اقتربت منـه، انحرفـت إلى جانب الطريـق وفتحت نافذة السـيارة واسـتدعيتهُ قائلاً:

ـ اقترب وأخبرني ماذا تريد؟

وقبـل أن يجيـب، ظهـرت مجموعتـين مـن المسـلحين المُلثمـين من تحت القنطـرة سـاروا نحونـا وأحاطونـا مـن الجوانـب الأربعـة وقـد وجّهـوا أسـلحتهم نحونـا مُهددين:

ـ ترجلوا بسرعة وسلمّونا ما تحملونه من أموال وإلا سنقتلكم؟

صُدم المدير، وسألني متعجباً:

ـ ماذا يفعل هؤلاء في هذه المنطقة النائية وماذا يريدون؟.

ـ يطلبون ما معنا من أموال.

ـ سلمهم ما معنا بسرعة، علَّهم يتركوننا بسلام.

ـ كيف ذلك؟! وبماذا سنُجيب موظفي وعمال الشركة الذين ينتظرون رواتبهم؟.

ماذا ستكون ردة فعلهم إن علموا بأننا تعرضنا للسرقة؟ خاصة وأن رواتبهم التي سُرقت هي مدخولهم الوحيد.٪

ـ الوقت ليس في صالحنا، سلمهم الأموال وسنعالج ذلك فيما بعد.

حملت حقيبة الأموال وخاطبتهم:

ـ من كبيركم؟ فليأتِ ويتسلم هذه الأموال.

حينها تقدم أحد المسلحين مني، استلم الحقيبة وسألني:

ـ ما اللغة التي تتحدثت بها مع هذا الرجل؟

ـ الإنكليزية

ـ هل هو بريطاني؟

ـ لا، أمريكي.

عندها تدخل مُسلح آخر مُقترحاً:

ـ سيدي، حظنا جيد، دعنا نأخذه معنا سيكون في يدنا ورقة ضغط على حكومة بغداد، يُمكننا الحصول على مبالغ كبيرة، تهتم الحكومة بهؤلاء الغرباء.

«يبدو أن الفكرة راقت للزعيم، فصوّب مسدسه نحونا وعزل المدير عني، ثم أخبرني بأني حر في الذهاب لكنهم سيحتفظون به».

رجوتهم كثيراً بألا يؤذوه، بررت ذلك بأن هذا الأمريكي الغريب جاء لخدمتنا وجوده مصدر رزق للمئات من العمال ممن يعملون في السد، والإساءة إليه ستجعل المهندسين والخبراء ينسحبون ما يجعلنا عرضة للبطالة والفقر.

لم يرق كلامي لهم فرفع أحدهم يده في وجهي وصرخ بي:

أغلق فمك وإلا طرحتك أرضاً كالكلب، أتريد أن تعلمنا الأخلاق؟ بينما خاطبَ آخر كبيرهم قائلاً: أترى كيف صار يُدافع عنه؟ لنأخذهما معاً، وإلا بلّغ الحكومة وأوقعنا جميعاً.

احتدم النقاش فيما بينهم وانقسموا ما بين مؤيد لأخذنا معاً وبين من يقترح أخذ المُدير فقط. استغربت اختلاف قائدهم معهم وأثناء صياحهم وصراخهم وهم يتناقشون، تناهى إلى مسمعي صوت كبيرهم، شعرت أن صوته مألوف فاستجمعت ذاكرتي إلى أن عرفته. إنه صوت قريبي «رسول»، اقتربتُ منه بخفة وأزلت اللثام عن وجهه. لقد تأكدت شكوكي، فعاتبته قائلاً:

ـ رسول؟! ألم تستحِ وأنت تسلبنا أموال العمال؟!

ووسط دهشة المسلحين والمدير على السواء.

احتضنني «رسول» وقبّلني وتأسف قائلاً:

ـ أعتذر منك، تقصدتُ التنكر كي لا تتعرف عليَّ. لكن كن على ثقة أني لم أتقصد إيذائك ابداً.

وقد أعاد لي الحقيبة المليئة بالأموال ثانية واعتذر قائلاً:

ـ خذ الحقيبة وغادر مع مديرك بأمان، لن نؤذيكم.

اعترض أحدهم:

ـ أيُعقل، أننا وبعد كل هذا الوقت الذي مكثنا فيه نترقب ظهورهم في هذه المنطقة النائية، أن نتركهم بما معهم من أموال بهذه البساطة؟

أجابه قائلاً:

ـ أنا أكثر استياء منك. ليس من السهل العودة فارغ اليدين، لكن هذا الرجل قريبي وصديق طفولتي من القرية نفسها، فلو سلبناهم ما بحوزتهم من أموال أو تسببنا بإيذاء الأمريكي المُرافق له سيفضحنا.

استعدت الحقيبة وأخبرت المدير أنه علينا العودة إلى دربنديخان.

استغرب وسألني:

ـ ألن يحتجزوننا لديهم؟!

ـ لا، لأني اكتشفت بأني أعرف كبيرهم «إنه قريبي» وبناء على توصية منه أعادوا أموالنا وتركونا في حال سبيلنا.

استقلينا السيارة، بعد أن ودّعتُ رسول ومن معه، وانطلقنا مسرعين دون أن نلتفت إلى الخلف حتى وصلنا إلى **دربنديخان**.

كان المدير مصدوماً طول الطريق يقرع قومي قائلاً:

يالكم من شعب جاهل نحن هُنا لخدمتكم، نبني السدود بينما أنتم تؤذوننا وتعيقون عملنا.

في اليوم التالي، وعندما عدنا إلى الشركة، اتصل المدير بالسفارة الأمريكية وشرح لهم وهو متذمر أحداث الليلة الماضية قائلاً: أنه يرغب في الوصول إلى مطار بغداد كي يعود إلى أمريكا في أسرع وقت.

بعد مرور أيام، وصلتْ إلى الشركة فرقة أمنية قادمة من العاصمة بغداد بصحبة عددٍ من أفراد الشرطة العراقية من أجل إعادته إلى بغداد، متجاهلاً تهدئتي له بعدم تكرار ما حصل. وبرر ذلك قائلاً:

لستُ مجنوناً كي أُخاطر بحياتي، نجونا هذه المرة لأنك على معرفة بزعيم اللصوص، ما أدراني؟ قد أقضي نحبي في المرة القادمة.

******

بعد عودة **موركن** إلى **أمريكا**، حلّ مكانه مهندس آخر من خبراء هندسة السدود ليكون مديراً للمشروع.

منذ أن التقيته، عرفني على نفسه قائلاً، أنه قادم من ولاية شيكاغو، ونقل لي تحيات المدير السابق ومدير سد بيخمة أيضاً وقد أوصوا بي مُنوهين عن صدقي وأمانتي.

كما أنه طمأنني بأن سلامتنا ستكون من مسؤولية السفارة (الأمريكية) كما أنها ستستعين بالحكومة العراقية زيادة في حمايتنا. اما فيما يخص الوضع الامني في المنطقة، فان سفارتنا سوف تتابعنا كما أنها طلبت من الحكومة العراقية أن تؤمن لنا حماية اكبر في جولاتنا خارج المدينة.

13

ابن الزعيم !!

بعد مرور عدة أيام على وصول المدير الجديد توجهنا إلى مدينة بغداد وحين وصلنا إلى مدخل المدينة، أوقفتنا إحدى نقاط التفتيش وطلبوا منا الهويات، سلّمناهم إياها (أنا والمدير). دققوا فيها، وقد لاحظنا أنهم يتشاورون فيما بينهم بصوت منخفض، اقترب أحدهم مني وخاطبني:

ـ اركن السيارة جانباً ورافقاني.

ركنت السيارة جانب الطريق ونقلت طلبه لمرافقي:

ـ تفضل وترجل من السيارة، يبدو أنهم يرغبون في استجوابنا.

هَزَ المدير رأسه امتعاضاً وقال:

ـ لكننا لسنا مجهولين، ماذا يريدون منا؟

ـ لا أعلم .

رافقناهم، حيث اقتادونا إلى أحد الضباط الكبار، وقد سلموه هوياتنا وعرفوه عني قائلين:

ـ هذا السائق هو ابن زعيم المعارضة الكردية ويبدو أن هذا الامريكي أحد جواسيسهم.

دقـق الضابـط في هويتـي، فوجد أن اسـم والـدي يتطابق مع اسـم قائد حركـة التحريـر الكردية أنذاك.

حينها نهض من مكانه وصرخ قائلاً:

ـ عثرنـا عليـه، إنـه ابن زعيم المتمردين، وقد صفعني بقـوة، وأدخلني غرفـة آمـر نقطـة التفتيـش وهـو يضربني بـكل قوتـه. التفت المديـر نحوي وسألني:

ـ لماذا يضربونك ؟

ـ أنـا ابـن مُـلا واسـم والـدي يتطابـق تمامـاً مـع اسـم زعيـم الحركـة الكرديـة، يشـكّون بـأني ابنـه.

******

عـلى أيـة حـال، عزلونـا أنـا والمديـر عـن بعضنـا، وبعـد مـدة وجيـزة وجـدت نفـسي في سـجن الأمـن العـام، هنـاك تعرضـت إلى الإهانـات والـضرب المـبرح، ثـم احتجـزوني في زنزانة منفـردة سرية في قبـو لوحدي ضمـن السـجن، إلى ما بعـد منتصف الليل مـن ذلك اليـوم، دخل أحدهم واصطحبنـي إلى مكتـب مدير السـجن، حـين وصلت كان مديـر المشروع يجلـس في المقعـد المقابـل لمديـر السـجن، انفجر ضاحـكاً حـين رأني وقال:

ـ لم أعلـم أنك رجل خطير، وأنك ابن زعيم المتمردين وإلا ما رافقتك.

طلـب منـي مدير الأمـن العام الجلـوس بعـد أن طلب لي كوب شـاي. وخاطبني:

نعتـذر منـك، فاسـم والـدك مطابـق لاسـم زعيـم حركـة المتمردين، لذلـك اختلـط الأمر عـلى عناصرنـا واحتجـزوك مُعتقدين أنـك ابنه. لكن

تبين حين استجوبنا مديرك الأمريكي، بأنه مدير سد دربنديخان وأنك سائقه الخاص وقد تأكدنا من صدق أقواله من السفارة الأمريكية.

أُطلق سراحنا وعُدنا إلى سيارتنا لنتوجه إلى وزارة السدود وقد قصصنا ما حدث لنا على مسامع الوزير والمسؤولين هناك، فما كان منهم إلا أنهم ضحكوا كثيراً وقد التفت مديرهم نحوي وقال:

ـ ليتك كنت ابنه، لربما تُخلصنا من مأزق قد نقع به.

ـ لم أكن ابنه واشبعوني ضرباً، لو كنت هو لقتلوني.

أمضيت عدة أشهر مع هذا المدير الجديد، إلى أن اكتمل مشروع السد، فغادر العراق وعاد إلى بلده، بينما قاموا بنقلنا إلى ملاك وزارة السدود.

قبل مغادرته، عرض عليّ المدير مُرافقتهم إلى أمريكا للعمل هناك. اعتذرت عن القبول بحجة أنيّ مسؤول عن زوجة وأطفال فلا يمكنني الابتعاد عن بلادي، فلو كنت أعزباً لما ترددت في مرافقتكم.

انخفضت رواتبنا كثيراً وساءت أوضاعنا بعد مغادرة الأمريكين العراق، حتى أننا فقدنا استقلاليتنا الامتيازات التي كنا نتمتع بها في السابق وباتت الوزارة تتدخل في شؤون عملنا.

14

البعثيون

كان وضعُ العراق يتدهور يوماً بعد يوم، وتحركات البعثيين تزداد، آنذاك وللمرة الأولى وفي تاريخ 7/ 10/ 1959 أثناء مرور سيارته في شارع الرشيد تعرض عبدالكريم قاسم إلى محاولة اغتيال على يد عبدالوهاب الغريري وبعض البعثيين، وقد تعرض إلى إطلاق النار عليه فأُصيب سائقه الذي فقد حياته على الفور، اما صدام حسين والذي كان يؤمن حماية المهاجمين وقد جُرحت ساقة برصاص حُماة الزعيم، لكنه رغم ذلك استطاع الهرب والاختفاء لمدة وجيزة في بيت خاله خير الله الطلفاح، ليتمكن من الهروب إلى خارج العراق بعد ذلك.

بعد مدة، اختلف **عبد السلام عارف** و**الزعيم**[8]، رغم أنه كان ـ عبد السلام عارف ـ الرجل الثاني (أثناء إسقاط النظام الملكي)[9] حيث أنه شغل منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية في حكومة قاسم، وصل الخلاف بينهما إلى أنه قام بمحاولة انقلاب باءت بالفشل وحُكم عليه بالاعدام نتيجة ذلك، لكن تم تخفيض الحكم إلى السجن مدى الحياة وبموجب عفو عام صدر حين ذاك.

8) الزعيم، لقب أول رئيس وزراء للعراق بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

9) المقصود بها، بعد قيام الثورة و الإطاحة بالحكم الملكي.

إلى أن قرأنا في الصحف خبر إطلاق سراح **عارف** وتكليفه بمنصب آخر لما تربطه بالزعيم من صلات عائلية.

لم يمضِ وقت طويل، ففي صبيحة يوم 8/ 2/ 1963 استطاع عبد السلام عارف وأحمد حسن البكر وبالتنسيق مع حراس مبنى الإذاعة والتلفزيون يرافقهما دبابتين، محاصرة المبنى وإحكام السيطرة عليه، خصوصا أن ذلك تزامن مع مقتل قائد الفرقة الجوية في ذلك الصباح، ثم اتجهوا مع قوة عسكرية كبيرة نحو مقر وزارة الدفاع، مع ذلك خرج الزعيم يُرافقه جمهور كبير من محبيه ومؤيدي الحزب الشيوعي الذين كانوا يساندون نظام حكم عبدالكريم قاسم، وقد حصلت مواجهات عنيفة حال وصولهم تمكنوا من الصمود والمقاومة إلى اليوم التالي، لكن في ظهيرة ذلك اليوم تمكن الانقلابيون من السيطرة على معظم المؤسسات والأجهزة الرسمية في الدولة. فقد الزعيم الأمل فاتصل بعارف وسلم نفسه، فأخذوه إلى مقر الإذاعة والتلفزيون، هناك وباسم مجلس رئاسة الثورة أعدموه رمياً بالرصاص، وبهذا كانت نهاية حقبة الزعيم عبد الكريم قاسم، ليتسلّم البعثيون بقيادة عبدالسلام عارف الحكمَ في العراق.

15

سطوة الحرس القومي

بعد أن تسلم البعثيون الحكم في العراق، أعلنوا حالة الطوارئ وشكلوا ميلشيات مسلحة من مناصريهم ومؤيديهم، أسموها (الحرس القومي).

قاموا بحملة تصفيات دموية بين أبناء الشعب من الشيوعيين والقوات الشعبية بالذات.

كما شهدت المدن والمناطق الكردية حملة وحشية وتعرض فيها الناس إلى مضايقات وحصار شديد، فقد نصبوا نقاط تفتيش مرعبة، لأجل نشر الخوف والرعب بين الناس وبذلك تمكنوا من ترسيخ حكمهم الجائر في العراق، حيث أنهم كانوا يقتحمون البيوت ليلاً دون أي عذر، يقبضون على الرجال ويغتصبون النساء وينهبون الأموال والأشياء الثمينة، ثم ينثرون الحبوب ويخلطون المؤن والمواد الغذائية بعضها مع بعض زيادة في التنكيل، كي لا يُستفاد منها البتة.

******

كان لدي صديق يُدعى (الحاج عثمان) من أهالي مدينة كويسنجق، كان من مناصري الشيوعيين، وهذا ما اعطى مبرراً للحرس القومي ليقتحموا بيته بين الحين والآخر ويهددوه، وفي إحدى الليالي اقتحموا بيته وخلطوا كل ما كان يملكه من مواد غذائية ومؤون، بعد أن سرقوا

أمواله وذهبه هددوه بالقتل، لكن زوجته حمدية خانم، وكانت إمرأة شجاعة وجريئة لا تهاب الموت أبدا، أسدلت عباءتها على رأسها وأمسكت بيد ابنتيها الصغيرتين وتبعتهم في تلك الليلة إلى أن وصلت إلى زعيمهم، وكان رجلاً كردياً، اسمه (همزة كردز) توسلت إليه كي يُعيد المسلحين ما صادروه من أموال وذهب وقد استجارت به قائلة:

ـ بعد الله لا أحد لي سواك، أطفالي صغار ولا نملك شيئاً، أخذوا كل ماجمعناه طيلة سنوات.

حكى لي الحاج **عثمان** على لسان زوجته **حمدية خانم**، أن **همزة كردز** أشفق عليها، ورقّ لها قلبه وطلب منها الجلوس إلى أن يحضر الجميع إلى هنا، كي يُعيد لها أموالها وذهبها.

هكذا وبعد قليل عاد الحرس القومي إلى زعيمهم، وقد سأل همزة كردز حمدية خانم:

أخبريني مَن مِن هؤلاء أخذ أغراضكم؟.

أشارت بيدها إلى أحدهم أنه هو. فصاح عليه وقد طلب منه إعادة كل أموال وذهب حمدية خانم إليها، مُمتدحاً إياها قائلاً: بيّض الله وجهك يا أختي، إنكِ امراة شجاعة وشريفة، ليحفظك الله لأطفالك.

في الحقيقة، تخطى ظلم الحرس القومي الحدود، لقد كان لهم مقر خاص مقابل محكمة أربيل تُديره مجموعة من (التورانيين)[10] والعرب، كان أبرزهم (صنعان ولطيف وهمزه كردز، إضافة إلى أحد رؤوساء (الجحوش)[11] باسم (حمه ي صابر) وكان مقره في محلة التعجيل، يتمتع بصلاحيات كثيرة أحدها أنه إذا رأى أي شخص مرتدياً الزي

10) (التورانيين) هم الأقلية التركمانية في العراق.

11) الجحوش بمعنى المرتزقة.

التقليدي الكردي(رانك وجوغه) الكردية يرميه بالرصاص ويُرديه قتيلاً على الفور، وقد خصص الحرس القومي سرداب (فندق سفين) للقيام بعمليات التعذيب والتصفية الجسدية لكل مَنْ ينتمي للحزب الشيوعي.

كان الشيوعيون أصحاب مبدأ فلا يخافون ولا يتأثرون بأي شيء، في إحدى المرات تم القاء القبض على جمال الحيدري وعاصم الحيدري وخالد عبدالله والعم رحمان وشيخه شل، فخضعوا لكل أصناف التعذيب للضغط عليهم للكشف عن أسماء أعضاء منظماتهم الحزبية، لكن هؤلاء الشجعان صمدوا للنهاية، حتى أن (شيخه شل) والذي كان مسؤول منظمات الحزب الشيوعي في مدينة أربيل، وهو المعروف بصفاء ذهنه الذي ساعده على حفظ أسماء رفاقه الثلاثية، استطاع الصمود ولم يكشف اسم أحد منهم. شجّع هذا الوضع الكثيرين لأن يلتحقوا بالحركات العشائرية الكردية ويحملوا السلاح ضد الحكومة طلباً للخلاص من ظلم الحرس القومي وجورهم، وبهذا اتسعت دائرة الحركة والتحق بها ثلة من المثقفين والمحامين والضباط ذوي الدرجات والرُتب أيضاً.

16

طَيّ صفحة سوداء

مساء 17/ 11/ 1963 هاجم عبدالسلام عارف المقرات العامة للحرس القومي مُستعيناً بالطائرات والدبابات والمُدرعات وقد تمكّن من السيطرة عليها، وفي اليوم التالي تمّ إلقاء القبض على أغلب قيادات حزب البعث منهم (أحمد حسن البكر) الذي كان رئيساً للوزراء آنذاك، ثم أصدر عبدالسلام عارف بياناً بشّر فيه العراقيين بحلِّ تنظيمات حزب البعث والحرس القومي، وبذلك تم طي صفحة سوداء من تاريخ العراق. مع أن ظلم وعنف حكم عبد السلام عارف لم يختلف كثيراً عن ظلم البعثيين، فقد استمر حكمه إلى أن أنهت حادثة سقوط طائرته العمودية حياتهُ وحُكمه معاً، فقد احترق مع الوزراء الذين كانوا يرافقونه في جنوب العراق بتاريخ 13/ 4/ 1966 عندما كان في زيارة إلى مدينة البصرة، لتضع حدا بذلك لحكم عبدالسلام عارف، ولم يُعرف هل كان ذلك مجرد حادثة أم أن أحداً تربص بهم.

كان لعبد السلام أخٌ (عبد الرحمن) ضابط كبير في الجيش العراقي يخدم في منطقة خليفان، عاد إلى بغداد لتسلم الحكم عوضاً عن أخيه على إثر تحطم طائرته، فأصبح بذلك رئيساً للجمهورية العراقية، وقد اتصف باعتداله ونزاهته، عمل على توطيد علاقته مع الشعب إجمالاً والأكراد خاصةً، حيث أنه تفاوض مع قياداتهم ما أثمر عن

ردم الفجـوة ما بـين الشـوفينيون العرب والأكـراد وقد تبـدى ذلك بتأمين عبورهـم اليسـير عبر نقـاط التفتيش ، وبذلك اسـتقرت المـدن والقصبات الكرديـة لتنعكـس إيجابـاً عـلى تحسـن الوضـع الاقتصـادي فيها.

اسـتغليتُ أنـا هـذه الفرصـة وطلبـتُ نقـل خدمتـي إلى مدينـة أربيـل، فـكان لي مـا أردت، فانتقلـت للإقامـة في بيت شـقيقي مُلا سـعيد القريب مـن جامـع الحـاج (بكـر الصائـغ) الواقـع في حي الإسـكان.

17

هو أيضاً منّا

ابتعدت عن أربيل طويلاً، ما جعل يصعب على أطفالي التأقلم خاصة أنهم يتحدثون باللهجة السورانية السليمانية، وقد كانوا محط استهزاء أطفال الحي بسبب ذلك.

لم يطل بهم الزمن إلى أن تعلموا اللهجة الأربيلية وقد تأقلموا مع البيئة الجديدة، فكفوا عن مُطالبتي بالعودة إلى السليمانية.

أهل أربيل اجتماعيون وبسطاء، تخرج نسائهم إلى الأسواق والأماكن العامة بعبائاتهم السوداء والنقاب على وجوههن، يتحايدن الاختلاط بالرجال، بينما كانت نساء السليمانية ترتدين التنانير القصيرة والملابس غير المُحتشمة ولا يتحرجن من الاختلاط بالرجال. كما كان الرجال في السليمانية يشربون الخمر، على عكس الرجال في أربيل الذين يقضون جلّ أوقاتهم في المساجد.

كانت الحياة صعبة بالنسبة لي أيضاً، فقد اعتدت في دربنديخان على الاجتماع كل ليلة مع أهل الحي في بيت أحدنا للهو والمرح، في حين أني لا أعرف أحداً هُنا.

مكثنا في حي الإسكان قرابة العام لننتقل إلى منزل مُلا حسن جوامير القريب من جامع شيخ عمر باليساني في حي (سيطاقان).

كان أغلب سكان سيطاقان من عشيرة (خوشناو) تربطهم ببعض علاقات متينة. لم يمض على استقراري بينهم عدة أشهر حتى مُنيت بمعارف وأصدقاء، فقد كان والدي مُلا ودرجت به العادة أن يتزوج امرأة من كل منطقة يستقر فيها وكانت إحدى زوجاته من سكان قرية (كونه فلوسة) في منطقة خوشناوتي ما جعل بعض جيراننا يتقربون منا معتبرينا أقرباء لهم.

حتى أن حركات المعارضة في أربيل أقل من مثيلاتها في السليمانية. فغالبية سكان أربيل لا انتماء لديهم أو أنهم يؤيدون الحكومة فانعكس ذلك على المدينة استقراراً وهدوءاً.

كان أكثر الأغوات والشخصيات العامة والعائلات الارستقراطية يؤيدون الحكومة المركزية، يرتبط بعضهم بعلاقات مُباشرة مع كبار المسؤولين في بغداد، لا سيما (الشقاوات)[12] الشاذين جنسياً والقوادين منهم. عدى عن المومسات اللواتي كن من المحضيات عند كبار المسؤولين.

كنت ذات مرة أقص شعري في محل تحت القلعة، دخل رجل ضخم البنية وأخرج من جيبه مستند بختم رسمي قذفه في وجه الحلاق بغضب، وخاطبه:

ـ ألا تخجلون...؟!

كيف ترضى أن تعمل قواداً للمسؤولين، لا... وتريد توريطنا في ذلك أيضاً!!.

ـ من أجبرك على اللجوء إلي كي أساعدك على التعيين؟

---

١٢) الشقاوات، الخارجين عن القانون

ـ لم أتوقع أن تكون قواداً بشيبتك هذه!

ـ شؤوني وأنا أدرى بها. لم يكن أنا من طرق بابك، بل أنت من توسل كي أساعده.

ـ لا بارك الله فيك ولا في مساعدتك هذه.

تفاجأت أنك أخبرت ذلك المسؤول بأني من جماعتكم وأن لدي نساء جميلات، ليتجرأ ـ هذا الذي أقرب ما يكون شبهاً بالقرود ـ وبعد أسبوع واحد فقط من تعييني، أن يقول لي أنت كصاحبك (يقصدك أنت) لما لا تفعل مثله وتأتينا بنساء جميلات.

اندهشت مما جرى وتدخلتُ قائلاً:

ـ كيف تجرأ أن يطلب منك ذلك؟

أشار إلى الحلاق وقال غاضباً:

ـ إسأل هذا القواد؟

يبدو أنه جعله يعتقد أنني منهم ويمكنه الاعتماد عليَّ.

ظننت أنهم شرفاء ويحترمونني، لم أعلم أنه يمسح يده القذرة بثيابي.

لو أن الحلاق لم يكن قد بدأ فعلاً بقص شعري لكنت تركت المحل إلى غير رجعة، حرصاً على سمعتي.

18

انقلاب البعثيين

لم يستمر حكم **عبدالرحمن عارف** كثيرا، فقد انقلب عليه البعثيون بتاريخ 17/ 7/ 1968 ليستلموا السلطة في العراق، وقد أصبح أحمد حسن البكر رئيساً للجمهورية ورئيساً لمجلس قيادة الثورة وصدام حسين نائباً للمجلس لكنه لم يشغل أي منصب داخل الحكومة، مع أنه كان يتمتع بحضور قوي ومُلفت على الساحة السياسية في العراق، يشارك في كل الاجتماعات والندوات الرسمية واللارسمية، وغالباً يجلس بجانب رئيس الجمهورية يرتدي ملابس مشابهة لملابس الرئيس هيئةً ولوناً ونمطاً وكأنه رئيس آخر للدولة وليس نائباً لرئيس الحزب.

19

الحادي عشر من آذار

مع بدايات تسلمهم السلطة في العراق، أظهر البعثيون مرونة كبيرة مع عامة المواطنين والأكراد منهم خاصة. واستجابة لدعوة بريماكوف ـ وزير خارجية الاتحاد السوفيتي آنذاك ـ فتحوا باب الحوار مع حركة التحرير الكردية فتمخّض عن بعض النتائج الايجابية خلال مدة قصيرة. وللمرة الثانية وعلى لسان صدام حسين استفسرت الحكومة العراقية من بريماكوف إن كان ودولته يضمن لها أن تقطع حركة التحرير الكردية علاقاتها باسرائيل والغرب إن وقّعت معها الحكومة العراقية أي اتفاق.

أجابه **بريماكوف**:

ـ لا يمكنني ضمان ذلك ولكن في حال فشلنا في ثنيها عن إقامة علاقات منع إسرائيل والغرب سنتخلى عنهم نحن أيضاً، ونكون لصفكم.

على هذا الأساس تم توقيع بيان الحادي عشر من آذار لسنة 1970 والذي ولأول مرة أقرَّ مجموعة من الحقوق القومية المشروعة، منها منح الحكم الذاتي وضمان الدراسة والتحدث باللغة الكردية في المؤسسات الرسمية في **كردستان**.

شـهدت في هـذا اليـوم المـدن العراقيـة خـروج حشـود جماهيريـة كبيرة رافعـين شـعار الأخـوة الكرديـة العربيـة، الرجـال والنسـاء والكبـار والصغـار جميعهـم عبروا عـن سـعادتهم بتوقيع هـذا البيـان، لا يغيب عن ذاكـرتي مشـهد المطربـين والشـعراء الأكـراد يتقدمـون الحشـود الجماهيرية الكبـيرة، يصدحـون بقصائـد وطنيـة ــ كانـت سـبباً في زج الكثيريـن في السـجون فيـما سـبق ـــ لقـد كان نشـيد أيهـا الرقيب مـازال شـعب يلهج بالكرديـة باقيـاً، لا يحطمـه واضـع المدافـع في أي زمـن (ئەی رەقیـب ەرمـاوە قەومـی کورد زبان) للشـاعر دلدار يـدوي في آذاننـا، وقد صعد الشـاعر الشـاب بكر زانا على كابينة شرطـي المرور أمام قهـوة (قەرداران) في تقاطـع (کوتـری سەلام) مـردداً ذلـك النشـيد بملء فمـه وكان يصيح (هيـا اذهبـوا وكلـوا نـارا من فوهة مدفع أسـطة رجـب) بهذا الشـكل عبّر كل واحـد عـن سـعادته في ذلـك اليوم.

فُتحـت في الأيـام التاليـة مقـرات الحـزب الديمقراطـي الكردسـتاني في جميـع المـدن والقصبـات الكردية وقـد تركت قـوات البيشـمركة[13] المناطق الجبليـة، ليتـم إعـادة هيكلتهـم مـن أجـل انضمامهـم إلى قـوات حـرس الحـدود، ليكونـوا جـزء مـن القـوات الداخليـة الرسـمية.

الخـال سـيد كان واحـداً مـن البيشـمركة القدامـى وكان قـد مـرّ وقت طويـل منـذ أخـر مـرة رأيتـه فيهـا. ذهبـتُ في إحـدى الليـالي إلى بيتـه كـي أرحـب بعودتـه وخاطبتـه:

ـ مقارنـة بأهـالي القريـة كنتـم الأفضـل حـالاً، لم يكـن ينقصكم شيء، هـل لي أن أعلـم مـا الذي دفعـك إلى صعـود الجبل وتـرك والـدك العجوز وحيداً؟!

13) البيشمركة: القوات الكوردية في اقليم كوردستان العراق.

أجابني:

ـ لم أكن أنوي صعود الجبل لكني أُجبرت على ذلك.

ـ كيف؟

ـ هربتُ من ظلم آغا قريتنا.

ـ لكنك كنت مراهقاً، بماذا ظلمك؟

ـ ذات مرة كان قد اصطاد لي والدي غزالة بريّة جميلة ــ على سفح جبل **قرجوغ** ـ وكنتُ قد تعلقتُ بها، لكن حين رأها ابن الآغا معي أخبر والده أنه يريدها له فطلبها الآغا من أبي، انزعج والدي كثيراً لكنه لم يستطع رفض طلب الآغا، فطلب مني التخلي عن الغزالة واعداً إياي اصطياد غيرها.

ولأني كنت قد تعلقتُ بالغزالة بشدة بكيتُ ورفضت التنازل عنها، لكن والدي انتزعها مني بالقوة وسلّمها لابن الآغا أمام ناظري.

بكيت حينها طوال الليل ولم أغفو ولو للحظة. وكان والدي مُتكدراً أكثر مني، لكنه علل عجزه الآغا، خوفاً من بطشه، كما أنه قد يطردنا من القرية، لذلك لم يهتّم لحزني ولا دموعي التي لم تفارق مقلتي إلى الصباح.

مع إشراقة الصباح ودون مشورة أحد وقبل أن ينهض والدايّ من النوم خرجتُ من القرية وسلكتُ طريق بيستانه وتمكنت من الوصول إلى الأخوان المسلحين ـ المقصود بهم الذين حملوا السلاح ضد الحكومة ـ وانضممتُ إليهم، منذ ذلك الوقت وإلى هذه اللحظة لم أتوقف عن التنقل أبداً، تنقلتُ بين أغلبية مناطق كردستان مشياً على الأقدام، رغم أني عانيتُ من التعب ومرارة الغربة وقسوة الجوع، لكني فضلت ذلك على البقاء في ظل آغا ظالم ومستبد.

كان هناك الكثير جالسين في غرفة الضيوف، بعضهم مُسلحاً، سلاحه أمامه، قلت له:

ـ لا أعرف أحداً من الأخوة المسلحين، أيمكن أن تُعرفنا عليهم؟

ـ اعتذر، نسيتُ نفسي، كان ينبغي أن أُعرّفكم على بعضكم لكن حادثة هذه الغزالة لا تخرج من رأسي ولا استطيع نسيانها.

عرّفني على الجميع، أحدهم كان يرتدي (رانك وجوغ) من النوع الجيد وفي خصره مسدس بأربعَ عشرة طلقة، أشار إليه قائلاً:

وهذا آغا قُرى **طقطق**. (لفت نظري من بين جميع الحضور) فالتفتُ إليه وسألته:

ـ علمنا أن ابن عمتي قد حمل السلاح وصعد الجبل بسبب ظلم الآغا، لكن ماذا كان ينقصك وأنت أغا بالفعل؟ تُرى ما هي حكايتُك؟

أجابني ضاحكاً:

ـ التحق هو بالشمركة من أجل غزالة، فكيف لا أفعل أنا وقد استولت الحكومة على عشرة آلاف دونم من الأراضي الزراعية التي أملكها بحجة الإصلاح الزراعي، لم تترك لي سوى ثلاثمائة دونم فقط.

اندهشت لسماعي ذلك منه وسألتهُ مستغرباً:

ـ امتلكت هذه المساحة لوحدك؟!

ـ نعم. وهناك آغوات كانوا يملكون مساحات أكبر مما كنتُ أملك بعشرات المرات، لهذا انقلبنا على الحكومة.

ـ لكن الثلاثمائة دونم التي تركوها لك ما زالت تُعتبر كثيرة عليك، هناك فلاحين أصولهم من هذه القرى ولا يملكون دونماً واحداً، حتى

أنهم يبذرون نصف ما يملكون من البذار لك ولأمثالك كما أنهم يعملون في الرعي لديكم، ومع ذلك تجدهم راضين بينما أنتم عكس ذلك.

بدا لي انزعاج الآغا من كلامي وقد أعطاني ظهره والتفت إلى الخال سيد غاضباً:

ـ لم يكن ينقصُنا سوى محاسبة قريبك هذا لنا، وكأنه محامي الحكومة أو أحد أعضاء الحزب الشيوعي.

ردَّ الخال ضاحكاً:

ـ لا تُسيء فهمه، فقد كان عسكرياً في القوات الإنكليزية لسنوات طويلة ثم عمل في سد بيخمة ودربنديخان وقضى حياته مع الإنكليز والأمريكان، ولا شأن له بالسياسة.

عندما سمع ذلك، التفت إليّ قائلاً:

ـ حين منحنا الانكليز هذه الأراضي والقرى، وما دُمت قد عملت معهم طيلة هذا الوقت لِمَ تفكر مثل شيوعي وليس مثلهُم؟

أجبته:

ـ لم أكن شيوعياً أبدا ولا أريد محاسبتك، لكن ما لفت نظري في هذا المجلس أنكما أنت والخال سيد سردتما علينا حكاية التحاقكما بالجبل (البشمركة)، لكن الحكايتان متناقضتان، أحدكما بسبب ظلم الآغا والآخر من أجل سحق الفلاحين والمحافظة على مصالحه الشخصية، فهل يجوز هذا ؟!

ما كان منه إلا أنه استاء أكثر، حتى أنه غادر المجلس غاضباً دون توديع أحد.

توجهتُ إلى ابن عمتي بالحديث قائلاً:

ـ يبدو أنه لكلٍ منكم حكاية مختلفة، يبدو أن كلامي لم يُعجب الأغا وخرج غاضباً.

وضع ابن عمتي يده على كتفي وقال:

ـ اشرب الشاي قبل أن يبرد، لا تهتم، لو أنك التحقت بالبشمركة لكانت لديك أسبابك الخاصة أيضاً.

أجبته:

ـ كيف؟

هَزَ رأسه وقال:

ـ جاء بعضهم للثأر والبعض الآخر ليحافظ على مصالحه الشخصية والبعض ليحمي نفسه وقليل فقط ممن لم ينقصهم شيء، كان دافعهم حب الوطن والشعب، وهؤلاء كانوا مُهمشين وتجدهم دائماً في الجبهات الأمامية من أجل الدفاع عن الوطن.

مُستغرباً التفتُ إلى المُسلحين في المجلس وسألتهم:

ـ وما هي حكاياتكم؟!!

التفت إليّ أحدهم وقال:

ـ دعك منا، فكما قال الخال سيد، لا تخرج حكاياتنا عن إحدى الحالات التي أشار إليها، لكن دعني أحكي لك حكاية قائد ذو شأن، لو لم أكن شاهداً عليها لما صدقتها. استرسل في حديثه وقال:

ـ ذات مرة، ترأس قواتنا في منطقة هيران ونازنين قائد قوة كان يتناول يومياً ثلاث دجاجات وديَكة في وجبة الغداء بينما لم يكن من نصيبنا إلا

الخبز والشاي نتناوله غداء لنا. في أحد الأيام، زارنا القائد العام، وقد حضر الطباخ (عزولة) فجأة ومعه صفيحة كبيرة ممتلئة بسيقان ورؤوس الدجاج وسكبهُ أمام الضيف شاكياً له قائد الفرقة:

ـ أترى قائدنا الذي يمتدح نفسه كثيراً ويردد لكْ على مسامعنا بأننا فريق واحد نتناول وجباتنا المعتادة معا، وكذلك ستكون حياتنا وموتنا لا ينقصنا شيء، أودك أن تعلم أنه غير صادق، فنحن ينقصنا كلَّ شيء، بينما يعيش هو كالملوك ـــ وما تراهُ طعام اسبوع واحد فقط ـــ في حين أننا لا نجد ما نقتات عليه سوى الخبز والشاي.

التفت القائد العام إلى قائدنا ووبخه غاضباً:

ـ كيف تناولت كل هذه الدجاجات والديّكة من غير أن تُشرك رجالك؟

تناهى إلى مسامعنا أثناء ذلك أصوات قرع وصياح من بعيد، تساءل القائد العام عن هذه الأصوات، وقد انتصب واقفاً.

أجاب قائد الفرقة متجنباً إثارة شكوكه:

ـ لا شيء يا سيدي، القرية كبيرة وعدد سكانها كبير وتُسمع هذه الأصوات يومياً.

همَّ القائد العام أن يركب فرسه ليغادر المكان، لكن بدأت الأصوات تتعالى مرة أُخرى. في هذه المرة لم يهتم لكلام القائد، التفت إلى حُراسه وأمرهم:

ـ تتبعوا مصدر هذه الأصوات وأخبروني ماذا تكون، أشعر أن أحدهم يستنجد بي.

انتشر الحراس في المنطقة، كلٌ في اتجاه، عادوا بعد مدة وجيزة ومعهم شخص، حين اقتربوا عرفنا من يكون... إنه (جمال برنو) أحد أفضل القناصين ضمن قواتنا معروف بشجاعته في جميع الجبهات.

قالوا للمسؤول:

ـ سيدي وجدنا هذا الرجل محبوساً وحيداً في غرفة مظلمة، وكان يصرخ قائلاً انقذوني لقد سجنوني بدون وجه حق.

التفت المسؤول إلى جمال برنو وسأله :

ـ أخبرني يا ولدي لماذا سُجنت؟

وجه جمال برنو أصبعه مشيراً إلى القائد قائلاً:

ـ أترى هذا القائد الذي يبدو أمامك وكأنه ملاك، إنه فاسق، يُمارس الفاحشة مع زوجتي وقد وضعني في السجن كي يُبعدني عن طريقه.

عقد المسؤول الكبير حاجباه وقد جحظت عيناه من شدة الغضب، وقال مُخاطباً قائد الفرقة:

ـ هل هذه مكافأة من يُضحي بروحه في سبيل الوطن؟

هل مهمته أن يدافع عن أمثالك؟

يا حيف، ليتني ما سمعت هذا أبداً.

والتفت إلى جمال برنو وخاطبه:

تدافع عن مَنْ يا ابني؟

الأفضل أن تترك سلاحك وتذهب لتعيش مع أُسرتك وأولادك، يبدو أن هؤلاء اعتادوا على هذه الأفعال، لذا عشرات مثلك رموا بأسلحتهم وانضموا إلى الجحوش قهراً.

حين انتهى من سرده، اندهشتُ من هذه الحكاية أكثر فالتفتُ إلى الخال سيد وسألته هل هذا نضالكُم؟

أجابني:

ـ لا تسئ الفهم، أصابع اليد الواحدة غير متساوية، ونحن لسنا ملائكة، بيننا الصالح والطالح.

أما أنا شربتُ الشاي، ودّعتُهم وعُدتُ إلى منزلي.

*****

حكمنا أنفسنا لمدة أربع سنوات، كان للبعثين خلالها مقر صغير بجانب برج الاتصالات في أربيل. وكان عدد المرتادين لا يتجاوز عدد أصابع اليدين، في حين كانت مقرات الحزب الديمقراطي والحزب الشيوعي، تنتشر بشكل ملفت للنظر في كل أحياء ومدن وقصبات كردستان.

انتهت هذه المرحلة التي ساد فيها القتل والتهديد من قِبَلْ البعثيون، فعاش الناس بسلام يحذوهم الأمل أن يتم الاتفاق بين الحكومة المركزية وقيادة حركة التحرير الكردية، لكن لم تستقر الأوضاع طويلاً، فمع انتهاء السنة الرابعة، أصدرت الحكومة المركزية قانون الحكم الذاتي مُتجاهلة رأي ممثلي الشعب الكردي ومطالبهم الشرعية، كما فُصلت مدينة كركوك عن كردستان، ففي شهر أذار سنة 1974 التحقت جماهير كبيرة من الرجال والنساء، صغار وكبار بالثورة ولجؤوا إلى الجبال. حتى أن عناصر الشرطة المحلية في أربيل تركت أبواب مقرات عملهم مُشرعة على مصراعيها، وقد توجهوا إلى الجبال ضمن جماعات. عُرفت الثورة هذه المرة بثورة الضباط.

لأجل ملء الشواغر التي تركها هؤلاء. فازدادت بذلك أعداد البعثيين ورجال الأمن، وقد أصبحت المقرات البعثية تزدحم بهم بعد أن كانت فارغة.

استولى الرعبُ على أهالي المدينة فكانوا يراقبون الوضع بحذر شديد، وكانت الحكومة تشك بالجميع، انتشر الجواسيس في المقاهي وبين الناس. وأعادت الحكومة فتح مقرات الجحوش، فبدأ الانتهازيين من أصحاب النفوس الوضيعة التواصل معهم للانضمام إلى (جاش بوليس).

20

سلكتُ طريق الجبل مُجبراً

كنتُ أكره كثيراً الانتماء إلى الحزب وحمل السلاح، لذلك بقيتُ في عملي في مديرية سدود أربيل. كنتُ أقضي يومي مع الموظفين والعمال في المديرية القلائل ـــ بعد أن التحق أكثرهم بالبشمركة ـــ وقد تسببت الأوضاع الأمنية السيئة في توقف العمل خارج المدينة حتى أنه توقف العمل في بعض المشروعات رغم عدم الانتهاء منها.

وفي صباح أحد الأيام وقبل بدء الدوامي الرسمي، اقتحمت مفرزة من الشرطة بيتنا والقوا القبض عَلَيَّ وقيدوا يديَّ، اقتادوني إلى مركز الشرطة، وأنا أُردد بأني بريء ولم أفعل شيئاً. لكنهم تجاهلوني ورموني داخل الزنزانة ضرباً، وبعد ساعة أخذوني إلى ضابط التحقيق لأخذ أقوالي. سألني الضابط غاضباً:

ـ ماذا فعلت بسيارة المديرية؟

ـ أوقفتها في الكراج البارحة بعد انتهاء الدوام الرسمي ويشهد الحُراس بذلك.

ـ سألوا الثعلب مَنْ يشهد لك، قال ذيلي.

جميعكم مخربون وفوضويون، وما بقائكم هنا إلا لتنهبوا ممتلكات المديرية وتُهربوها إلى المخربين (پيشمەرگە).

ـ أقسـمُ بـالله أنـه لا علم لي بشيء، وإن كانت سـيارتي قـد سُرقت فعلاً، فـلا يد لي في ذلك ويشـهد الحُـراس كما أخبرتك.

مـا أن انتهيـت مـن كلامي حتـى صفعنـي بـكل قوتـه، وكأن رصاصة طائشـة اخترقتني.

ـ لِمَ لا تفهـم، لقـد أمسـكنا بهـم، مثلك هم ينكـرون أيضـاً، إن لم تكن أنـتَ أو هم، مَن يكـون إذن؟

هل يكون والدي مَن سرقها؟!

******

بعـد أخـذ أقوالي وفتـح ملـف لي، أرسـلوني بمرافقة شرطـي إلى قاضي التحقيـق في محكمـة أربيل.

طلب مني القاضي قائلاً:

ـ ضع يدك على كتاب القرآن هذا وأَقسم على قول الحقيقة.

وضعتُ يدي على القرآن وقُلتُ أُقسم بهذا القرآن أن أقول الحق.

بدأ الحاكم يُقّلب أوراق الملف ويقرأ عليَّ أقوالي.

سألني:

هل هذه أقوالك؟

ـ نعم.

ـ هل لديك أقوالٌ أُخرى؟

ـ لا.

«كان الحاكم إنساناً طيباً، وقد اقتنع بأقوالي ولم يسألني المزيد»

ـ يا بُني، سأفرج عنك بكفالة.

وأنصحك بقول كل مالديك حين تمثل أمام المحكمة، ولا تنسى أن الحق سينتصر دائماً، فإن لم يكن لك يدُ في ذلك ستتم تبرءتك ويُفرج عنك .

******

هكذا أُفرج عني بكفالة وقد عُدتُ إلى البيت مسرعاً وأنا أُحدثُ نفسي قائلاً:

نجوت بمعجزة هذه المرة أيضاً، إنها المرة الثانية التي يتم فيها القبض عليّ بلا ذنب، مرةً بحُجة أني ابن قائد المتمردين، والثانية بحجة سرقة سيارة الحكومة مع أني بريء، صدق أجدادُنا حينما قالوا (الخرة اليابسة تلتصق بمؤخرة الإنسان).

لذا لم أعد أحتمل أكثر فقررتُ الصعود إلى الجبل والالتحاق بالآخرين ممن التحق بقوات البشمركة. ودعتُ زوجتي وأطفالي وتوجهتُ إلى قرية **باداوة ملا أفندي** وحدي، ومن هُناك اتجهتُ إلى قرية **سيبةردان** ثم إلى **كسنزان ودربندي كومسبان**، قطعتُ المسافة سيراً على الأقدام إلى أن وصلتُ إلى قرية **سماقولي** مع حلول الليل، التقيتُ هُناك بجميع عناصر الشرطة وضباط القوات الداخلية، البعض منهم كانوا من أقاربي وأصدقائي الذين رحبوا بي وقد تناولنا وجبة العشاء معاً، ثم جلسنا في مجموعات يسرد كلٌّ منّا قصته على الآخرين إلى وقت متأخر من الليل. حينها تذكرت ــ وقد ارتسمت ابتسامة على شفاهي ــ كلام الخال (لو كنتَ في الجبل، لكانت لك قصة مختلفة أيضاً).

قضينا تلك الليلة في سرد القصص والأحاديث الطريفة والمزاح والضحك، وكان عناصر الشرطة قد تمركزوا في مقرات مؤقتة هناك، ولأنني لم أكن منتمياً إلى أي حزب، سلكتُ الطريق إلى الجبل، أتنقل بين الجبال والوديان، فكنتُ أسير على قدميّ لأيام في بعض الأماكن، وفي أماكن أُخرى أستقل سيارة الجيب إن صادفَ مرورها إلى أن وصلتُ إلى مدينة هرير وباتاس وقد أدركني الليلُ. بعد استراحة قصيرة، تناولتُ خلالها الخبز والشاي في أحد البيوت وقد صادفتُ فيه صديقاً أربيلياً، حين عَلِم بأني صهر إحدى العوائل السورجية حرص على ملازمتي للنطلق معاً إلى قرية (آموكان) وصلنا إلى هناك مع أذان الفجر، قصدنا بيت نسيبي، وكانوا قد جمعوا أغراضهم استعداداً للذهاب إلى كهف سراود القريب من قرية اشكوته.

سألتهم:

ـ نحنُ تركنا المدينة خوفاً من الحكومة، لكن مَمَ تخافون أنتم لتجمعوا أغراضكم وتغادروا هكذا؟ أجاب شقيقُ زوجتي:

ـ غادر أهل القرية بيوتهم واختبأوا في الكهوف منذ أسبوع، لم يبقَ سوى بيت الآغا وعدد من الأشخاص.

قضينا الليل معهم وفي الصباح تناولنا الفطور وودعناهم. ثُمّ توجهنا أنا وصديقي إلى بيت (لاوك أغا شيخ أغا) آغا القرية طلبتُ منه أن يُزودنا بالأسلحة ويسجلنا في صفوف البيشمركة لديه.

لكنه رفض الفكرة وقال: بالرغم من أني قائد مليشيا هنا، لكني أنا أيضاً مثلكم لا أعلم ما عليَّ فعله، سوى انتظار أوامر الجهات العليا.

واسترسل في حديثه قائلاً: أرى أن تُكملوا مسيرتكم كما بدأتم بإرادتكُم، إلى أن تصلوا إلى جومان وحاج عمران، حيث يتجمع كبار

المسؤولين هُناك، رُبّما تحظون بمناصب جيدة لديهم، إلى أن يأمروننا ونصل إليكم.

أعجبني جداً اقتراح لاوك آغا، فودعناه وسلكنا الطريق أنا وصديقي نسيرُ حيناً ونركب سيارة حيناً آخر من سبيلك نحو خليفان ومن هُناك إلى ديانا وناوبردان وجومان، عندما وصلنا إلى هُناك كان الليلُ قد أدركنا.

كثيرون كانوا قد لجؤوا إلى تلك المنطقة، يتوزعون على البيوت، ينتشر الرجال في الجوامع والمقاهي والأزقة، يضطجع بعضهم على الأرصفة، كان منظرهم مأساوياً، وكأنه يوم الحشر، تجمع الناس بشكل فوضوي.

توجهت أنا وصديقي إلى المسجد وتمددنا إلى الصباح، عندما استيقظنا صباحاً قصدنا المقهى الواقع أمام المسجد، تناولنا الفطور، ثُمّ توجهنا إلى المكتب السياسي للحزب، أردنا أن نلتقي بأحد يستمع إلينا، لكن أحداً لم يهتم بنا، بل أنهم توجهوا بكلامهم إلى الجماهير غاضبين وقالوا:

ما الذي أتى بكم إلى هُنا وبأمرٍ مِنْ مَن؟

لا قدرة لنا على تدبّر أمورنا فكيف نحنُ وأنتم، هل تعتقدون أنكم تقومون بجولة سياحية؟

ستُدركنا طائرات العدو بعد لحظات، فيحولون المنطقة إلى قطعة من نار.

لم يكن أمامنا مكان نرتاح فيه سوى المسجد والمقهى، عدتُ إلى المسجد الذي يعجُّ بالناس، وقد رُصفت أمامه توابيت فيها جثث الشهداء الذين لقوا حتفهم جراء قصف الليلة الماضية، كانت التوابيت مفتوحة وقد وضعوا على الجثث قوالب من الثلج.

سألتُ أحدهم:

ـ لِمَ رُصفت هذه الجثث هُنا ولم تُدفن؟

ـ هـؤلاء قسـم من شـهداء قصف ليلـة البارحـة، ألم تنتبه حينـما قصفتنا الطائرات؟

ـ لا، لم أنـم لأكثـر مـن ليلة في الأيـام الماضية، لذلكَ اسـتغرقتُ في نوم عميق ليلـة البارحة ولم أسـتيقظ إلا صباحاً.

هَزَ رأسه وقال:

ـ ليكـن نومـك خفيفاً، لأنك مـن الآن وصاعداً سـترى الكثير من هذه الأفـلام، فقـد تُقتـل مثلهم وأنـت في عز نومك ـــ وأشـار بيـده إلى بعض الحُفـر، التـي حُفرت حول المسـجد على شـكل حـرفي (L وT) الإنكليزية

ـ هل ترى هذه الحفر؟.

ـ نعم، لِمَ حُفرت؟.

ـ لنختبـيء فيهـا، حين تُدق صافـرة الانذار يلجأ النـاس إلى تلك الحُفر للاحتـماء فيهـا، وأنت أيضاً حين تسـمع صافـرة الإنـذار أسرع إلى إحدى هـذه الحفـر ولا تُغادرها إلا حين تُغـادر الطائرات.

قضينـا اليـوم هكـذا وبحلـول الظلام ذهبـت إلى المقهـى لتنـاول وجبة العشـاء، وجـدت النـاس هنـاك يـسردون قصصهـم فيـما بينهم.

التفت أحدهم نحوي وخاطبني:

أخبرنا قصتُك ولِماذا التحقت بالثورة؟

أجبته:

ـ قصتي طويلة جداً، باختصار أنا سائق حكومي، قام أحدهم بسرقة سيارتي لايصالها إلى هنا، وقد اتهموني بسرقتها وبعد التحقيق معي افرجوا عني بكفالة إلى حين محاكمتي. ومخافة أن يُزج بيّ في السجن تركتُ منزلي وعائلتي وأتيتُ إلى هنا لأرى إلى أين سيأخذني مصيري.

مع منتصف الليل، اضطجع كلٌ منا في مكانه، وقد اتخذ من الأريكة الطويلة الموجودة في المقهى سريراً له، وما إن أغمضتُ عيني حتى سمعت صوت صافرة الإنذار، فلم أدرِ كيف نهضتُ وخرجتُ من المقهى وقبل وصولي إلى حُفر الاختباء كانت قد وصلت الطائرات وقصفت المكان.

كانت ليلة دهماء والظلام فيها دامس، ارتباكي جعلني أُضيع طريقي، وعوضاً على أن أتوجه إلى حفرة من الحفر، رميتُ بنفسي داخل أحد التوابيت المرصوفة أمام المسجد لأستقر فوق الجثة التي بداخله.

فزعت، وكادت روحي أن تخرج مني، وأوشك قلبي أن يتوقف من شدة الخوف. فأنا أخاف من رؤية الميت منذ صغري، فما بالك وأنا أحتضنه!

حينما سمعتُ الصافرة للمرة الثانية في إشارة إلى انتهاء الغارة، خرجت مسرعاً من التابوت وتوجهت إلى المقهى، تجمدتُ لبعض الوقت وفكرتُ مُتسائلاً:

ما الذي أوصلني إلى هذا الحال، لو أنهم لم يسرقوا سيارتي لما تركتُ عائلتي وواجهتُ هذا المصير المظلم.

بقينا عدة أيام على هذا الحال، لم يسأل عنا أحد، التفتتُ إلى أحد أصدقائي وقلت له:

ـ إلى متى نبقى ننتظر هنا، لنغادر ونتوجه إلى مكان آخر، لربما فتح الله أمامنا باباً.

أجابني أحدهم:

ـ سمعتُ أن الناس في مدينة (قلعة دزة) أفضل حالاً من الناس هنا.

ـ لماذا ؟ بينما مقر الحزب هنا؟

21

انطلقنا نحو منطقة قلعة دزه

فكرتُ قليلاً، فوجدتُ فكرته جيدة، التفتُ إلى صديقي وخاطبته:

ـ إن هـذا الرجـل عـلى حـق، الجميـع تجمعـوا هنـا، ماجعـل الفـوضى تعـم، لنذهـب إلى قلعـة دزه، هنـاك سـنضمن الأكل والمبيـت الآمـن على الأقل.

استحسن صديقي الفكرة أيضاً.

تركنـا المقهـى وتوجهنـا إلى قلعـة دزه، كنّـا نسـير وئيـداً ونسـأل عـن الطريـق المـؤدي إلى الموقـع، صادفنـا في الطريـق الكثـير مـن الأصدقـاء الذيـن كانـوا في طريقهـم إلى (قلعـة دزه) أيضـاً، أمضينـا عـدة أيـام ولياٍل في الطريـق، وفي ليلـة مررنـا بقريـة باليسـان وذهبنـا إلى جامـع القريـة واضطجعنـا عـلى الفـرش هنـاك، وبعـد برهـة جـاء رجل عجـوز وطلب منّـا مرافقتـه إلى بيتـه والبيـات هُنـاك. سُـعدنا بذلك كثـيراً، كانـت بطوننا تُصـدر أصواتـاً مـن شـدة الجوع، فلـم نـذق الطعام منـذ يومـين، انبعثت عنـد عتبـة الباب رائحـة البرغل المطبـوخ وقد مـلأت المـكان، دخَلنا وهو يُرحـبّ بنـا ترحيبـاً حـاراً، وقـد قدمـوا لنـا وجبـة دسـمة مـن البرغل مع اللبـن، أكلنـا منهـا حتـى الشـبع، ثـم احتسـينا كوبين مـن الشـاي الحلو، وتمددنـا ونمنـا مرتاحـين حتـى الصباح.

في الصباح الباكر، صاح علينا الرجل العجوز قائلاً:

انهضوا لتناول الفطور كي تنطلقوا قبل شروق الشمس، وإلا ستتعبون من شدة الحرارة خاصة أن طريقكم طويل.

تناولنا الفطور ـــ اللبن والخبز والشاي ـــ وتوجهنا إلى جسر هيزوب، صادفنا في طريقنا عدداً من الشبان يحملون على أكتافهم أكياساً سفريةً (بقجة) مع جهاز الراديو والمسجل، أصوات غنائهم وتصفيقهم يدوي في الجبال، أسعدتني رؤيتهم كثيراً، كانت معنوياتهم مرتفعة، ابتهجتُ لمنظرهم وهم يقطعون الطريق الجبلي بفرح غامر وكأنهم في جولة سياحية. حيياهُم وانضممنا إليهم، أحدهم يتمتع بصوتُ شجي، وكان يُغني أغاني حسن زيرك بصوته الذهبي طوال الطريق، وكأنه بلبل يُغرّد.

وصلنا إلى هيزوب ليلاً، وقد انفصل عنا الشبان ليتوجهوا إلى قرية قريبة من عين ماء جارية.

أخبرونا أنهم سينامون هناك، ليتابعوا طريقهم صباحاً.

بينما اتجهتُ أنا وصديقي إلى **جوارقرنة** ومنها إلى **رانيه**.

وصلنا إلى **رانيه** ظهراً، كانت الشمس في كبد السماء، اتجهنا مباشرة إلى جامع **رانية** الكبير، غسلنا وجوهنا بماء الساقية المشهورة فيها، ثم تمددنا لنيل استراحة قصيرة، ذهبنا بعدها إلى الفرن وقد اشترينا رغيفين من الخبز الحار، وانشغلنا بأكلهما ونحن في طريقنا إلى **قلعة دزه** .

وصلنا إليها مساءً، توجهنا إلى مقر الحزب، وهناك وجدنا الكثير مثلنا، كانوا قد جاءوا من مختلف المناطق.

سألتهم:

ـ بقي القليل على الغروب، هل سنبقى هنا أم يمكننا الذهاب إلى مكان آخر من أجل الراحة؟

ردّ أحدهم:

ـ انتظر معنا، مع الغروب سيرافقنا أحد كوادر الحزب ليوزعنا كل شخصين أوثلاثة على بيت من بيوت السكان هُنا.

ـ وهل سيقبل أصحاب هذه البيوت أن يقتحم الآخرون بيوتهم كل ليلة ؟ !

ـ لا أظن، لكنهم مجبرين، لا يمكنهم الاعتراض.

وهكذا كلما حلّ الليل قادونا أمامهم كقطيع من الأغنام ليوزعونا على البيوت. كان نصيبي أنا وصاحبي على بيت تاجر أحذية.

في ذلك اليوم وقبل أن يأخذونا إلى البيت الذي سنبيت فيه، توجهنا إلى محل للأحذية كي نشتري زوج من الأحذيه الإيرانية، وقد طلب التاجر سعراً مُرتفعاً، رجوناه أن يخفض لنا (25) فلساً، لكنه رفض رفضاً قاطعاً، وكان جلفاً في تعامله معنا، فلم يخفض لنا حتى خمسة فلسات! لذلك وعندما وصلنا إلى بيت مُضيفنا والتقيناه وجهاً لوجه، أدركنا أنه التاجر نفسه الذي اشترينا منه الأحذية.

كان ثريّ، بيته جميل جداً، اصطحبنا إلى غرفة الضيوف وقد أحضر لنا فراشاً ووسائد وخاطبنا:

ـ ناموا هنا

«كنتُ جائعاً جداً وبطني يقرقر من الجوع، لكني خجلتُ أن أطلب الطعام»

لم يخجل صديقي وردّ عليه:

ـ ما هذا الكلام؟

إن لم نـأكل شـيئاً لا يُمكننـا النوم. نسـير منذ عـدة أيـام إلى أن وصلنا إلى هُنـا، نتلهـف للقمـة دافئـة، وتُريدنـا أنتَ أن ننام وننسـى جوعنـا؟ اذهب واحـضر لنا شـيئاً نأكله.

انزعـج صاحـب البيـت مـن كلام صديقـي كثيراً، لكنه تماسـك نفسـه وامتنـع عـن مجادلتـه وخـرج غاضبـاً وعـاد بعـد قليـل ومعـه صحنين من البرغـل البـارد وقدمهـما لنـا قائلاً:

ـ هيا كلوه ؟!

مـن شـدة الجـوع لم يهمني أنـه بـارد، فتناولتـه بشراهـة. بينـما مضـع صديقـي لقمـة ثـمّ نهـض وتوجـه إلى الثلاجـة وأخـرج قدريـن كبيريـن ورفـع الغطـاء عنهـما، فوجـد في الأولى أرزاً مطبوخـاً وعليه قطـع من لحم الدجـاج المقـلي والآخـر مليئـاً بمـرق الباميـة الشـهي.

التفت إلى صاحب البيت وخاطبه غاضباً:

ـ أتعتقـد بأنّـا عديـما الفهـم ولا نعلم أن هـذا البرغل هو بقايـا طعام من أيام مضت؟

اندهشـت مـن صديقـي كيـف عَلِـم بأنهـم تناولـوا طعاماً آخـر وليس البرغـل الـذي أحـضره لنا.

سألتهُ له:

ـ كيف علمت ذلك أن الطعام قديم؟

ـ مـن مذاقـه، فحـين تناولت ملعقة منـه وجدته بارد وناشـف، علمتُ حينهـا أنـه ليس طعـام اليوم وإنـما مرّ على بقائـه في الثلاجـة وقت طويل.

بعد أن أكلنا وشبعنا، صاح صديقي بصوت مرتفع أحضروا لنا الشاي، وكأنه نزيل فندق خمس نجوم.

بعد برهة، دخل مالك البيت منزعجاً، وضع أمامنا قدحين من الشاي البارد. عندما شربتُ منه وجدته كعصير الزبيب من شدة برودته، لم أشعر بطعم الشاي فيه، وقبل أن يَمدْ صديقي يدهُ إلى قدح الشاي، همست:

ـ إن هذا الشاي بارد جداً، وكأنه فم الميت، أرجو أن لا تصرخ كالسابق، فهو ليس مجبراً أن يخدمنا فلا تفضحنا أكثر.

ـ لمَ، وهل نسيت أننا رجوناه كما يفعل اليهودي، حينما اشترينا منه الحذاء؟

أجبته:

ـ هذا أسلوبه، لم يجبرك على الشراء منه.

أجابني وقد أشار بيده إلى وسط الغرفة:

ـ انظر، إنها صورة لينين معلقة هناك، يبدو أنه ينتمي إلى الحزب الشيوعي، لذلك لم يرغب باستقبالنا، لكنه رضخ خوفاً.

ـ مهما كان، أجده مُحقاً، لا تنسى حين انقلاب رؤساء العشائر على عبد الكريم قاسم في بداية أيلول عام ألف وتسعمائة وواحد وستون كُنّا قد اعتبرنا ما قاموا به ثورة، بينما وصفها الحزب الشيوعي ببيان رسمي بأنها حركة عشائرية فاشلة.

قضينا ليلتنا هناك وحين استيقظنا صباحاً، تناولنا الفطور وتوجهنا إلى مقر الحزب وطلبنا منهم تأمين مكان دائم للمبيت فيه كي لا نُضطر لأن نكون ضيوف بالإكراه على الآخرين.

قال المسؤول: اذهبوا إلى معسكر قيادة القوات وسجّلوا أسماءكم لديهم، وسجدون لكم مكاناً للمبيت وتناول الوجبات.

ذهبنا وسجلنا أسماءنا كما طُلب مِنا، لكننا لم نجد اختلافاً كبيراً بين هذا المكان والأماكن الأخرى، كان المكان مُزدحماً وفوضوياً يفتقر للنظام، يسعى كلّ فرد لتأمين نفسه بنفسه، وحين يأتي موعد تناول وجبات الطعام لا نجد الأطباق ولا الملاعق، وفي بعض الأيام نأكل من الجردل أو طشت الغسيل مباشرة، وفي أحيان أخرى لا يبقى ما نأكله فنذهب إلى المطبخ باحثين عما التصق بقعر القدر أثناء الطبخ.

بعد مضي شهر واحد، فقدتُ صبري ولم أستطع المقاومة أكثر، فحدثت صديقي برغبتي قائلاً:

ـ لنرجع إلى جومان، على الأقل ستُتاح لنا الفرصة هناك للقاء مسؤول كبير في الحزب أوالحكومة،

في حين أننا إن مُتنا هُنا لن يسأل أحدٌ عنّا.

******

وهذا ما كان، سلكنا طريق جومان مرة أخرى، قطعنا الجبال والوديان ووصلنا هيران ونازنين بعد مسير يومين وليلتين، توجهنا إلى مقر الحزب في هيران، كنتُ أعرف كيفي أحد أعضاء الحزب، فقد كان جارنا فيما سبق، لذلك طلبتُ منه توصية أُقدمها إلى مؤسسة الإعلام بغرض التعيين.

رافقني الأخ كيفي إلى المسؤول وزودني بكتاب توصية جيد الصياغة.

وضعت الكتاب في جيبي وذهبتُ في طريقي إلى أن وصلتُ **ناوبردان** بعد يوم وليلة، زرت مؤسسة الإعلام وسلمتهم الكتاب. حولوني إلى

رئيس الفرقة الفنية وكان مسيحياً واسمه (زهير عبد المسيح). طلب مني تقديم مقطع من عمل مسرحي كي يُقيّم أدائي في التمثيل.

نجاحي في الاختبار أهلني للانضمام للفرقة المسرحية براتب شهري قدره ثمانية عشر ديناراً.

بذلك استقريت وكففت عن التنقل بين القُرى، ملكتُ بعض المال فصرفتُ بعضه من أجل تدبر معيشتي، وادّخرت قسماً منه، في حين ما زال أصدقائي بلا عمل يتنقلون من مكان لآخر يومياً، ليكونوا ضيوف قسريين على أحد البيوت ليلاً. ما جعل أهالي المنطقة في انزعاج من هذا الوضع وقد فقدوا صبرهم أخيراً، فامتنع أغلبهم على استقبال أي منهم في بيوتهم فكانوا يغلقون أبوابهم في وجوههم.

كانوا على حق في ذلك، لأن ما ادخروه من مؤونة لعام كامل، استهلكوها خلال شهرين فقط.

قلقتُ لمصير أصدقائي ولم أكن قادراً على فعل شيء، فلم يكن الأمر ليوم أو مدة مُحددة، من صعوبة الظروف هناك لا يسع الإنسان التفكير إلا في مصلحته. غادر أحد اصدقائي المكان وتوجه إلى المدينة ليُسلم نفسه للحكومة بعد أن فقد الصبر. بينما بقي صديقي الآخر في الحي الذي أسكنه وقد أصبح كالثعلب الهزيل من شدة الجوع، ساعدته بما أستطيع لفترة من الزمن لكنه لم يُطق صبراً، قرر هو أيضاً المُغادرة، فغادر. بذلك بقيتُ وحيداً هناك.

في هذه المرحلة أجّرت لنا مؤسسة الإعلام منزلاً في كلالة وأمّنت لنا بعض المستلزمات، لكن لقلة تلك المستلزمات تمَّ توزيعها علينا بالقرعة، كان حظي طيباً، كنتُ أول من حصل على فراش وبطانية ووسادة، كان كل فريق مكون من اثنين وثلاثين فرداً، ستة عشر منهم حصل على فراش ولحاف.

سعادتي كانت كبيرة في تلك الليلة لأني لم أعد في حاجة للنوم في المسجد أو أُفرض على أحد السكان للمبيت في بيته. لذلك عملت على تحضير فراشي باكراً واضطجعت في مكاني، وقبل أن أغط في النوم، جاء أحد الموظفين الذي لم يحصل على فراش ولحاف يحاول استفزازي بكثرة حركته كي يحرمني النوم، حاولت تجاهله لكنني لم أنجح. فخرجتُ ساخطاً وشتمته قائلاً:

«خرى بيكم وبفراشكم» سأذهب للنوم في المسجد أفضل من النوم هنا بينكم.

كان الظلام دامساً، ذهبتُ إلى المسجد الكبير في **كلالة** وقبل أن أصل إلى قاعة المسجد، أمسك أحدهم بساقي في مدخل المسجد واستوقفني قائلاً:

ـ تعال ونم هُنا. فانحنيتُ وتمددتُ بجانبه. لكن بعد مدة وجيزة، رائحة مزعجة أصابتني بالغثيان، وبرغوث تسبب في حكة بجسدي، ومن شدة انزعاجي كنت أُحرك ساقي في كل الاتجاهات حتى أني أزحت اللحاف عني. رغبت في تشغيل ضوء الجيب للكشف عن مصدر الإزعاج لكنني توجستُ من لفت نظر طيران العدو. بعد تردد أشغلتُ الضوء وسلطته لأستكشف المكان تحت اللحاف، تفاجأت بأن شريكي هو **جورجه المجنون**. معروف عنه أنه أحد مجانين أربيل، موصوف بقذارته الشديدة، يُشَاهدُ دائماً وأصابعه في أنفه، يتلذذ بأكل مخاطه وكأنه الحلوى!!. تنبعث من جسده رائحة نتنة تصل لمسيرة يوم، لم يكد يقع نظري عليه حتى وليتُ هارباً مثل رصاصة طائشة، اتجهتُ إلى باب المسجد، احتضنني أحدهم، وجهت الضوء لوجهه فإذا به **صبحي كويي** المُمثل خاطبني وهو يُقهقه:

ـ اعذرني لم أقصد إغضابك، لم أعلم أنكَ سريع الغضب.

قبلتُ اعتذاره وعدتُ معه إلى المنزل المُخصص للفرقة، قهقهوا حين رأوني، كانوا ينتظرون عودتي ويتلهفون لأقص عليهم ما حدث، خاصة حين علموا بقصة **جورجه المجنون** من **صبحي**. وقد طلبوا معرفة تفاصيل لقائي به في ظلمة الليل وكيف وليتُ هارباً منه حين عرفته، ضحك **شيرزاد رنجرو** والآخرين لوقت متأخر من تلك الليلة.

مكثنا في **كلالة** لوقت طويل دون أن نقوم بأي عمل رغم أننا موظفين في الحكومة نتقاضى رواتبنا شهرياً يساعدنا على إعالة أنفسنا، وهذا ما كان يُميزنا عن العاطلين عن العمل، لكن المُشترك بيننا وبينهم هو الضجر والملل الذي يدفعنا إلى مكان آخر.

ففي أحد الأيام بينما كنتُ أتمشى في الشارع في كلالة وناوبردان، لفت انتباهي مطعم كبير، اشتهيتُ أكل تُمَّنْ ويابسة فيه، كان وقت الظهيرة والمطعم مكتظ بالزبائن، دخلتُ وطلبتُ ما أُريد، وقبل أن يُحضروا طلبي ارتفع صوت صافرة الإنذار وهرع الناس وهم يصيحون من كل جانب، اختبئوا بسرعة... إنها الطائرات.

ركضتُ مع الآخرين نحو سفح التلة الكبيرة مقابل المطعم، لم تكن هناك أية صخور كبيرة كي اختبئ خلفها، لذلك تمددتُ على الأرض. كان الاستاذ فؤاد ذنون طويل القامة، يكاد يُعادل شخصين في الطول، وقد وقف أمامنا وكأنه عمود كهرباء، مُستهزء بالطائرات وهو يُردد شلغم[14] مطبوخ...شلغم مطبوخ. فما كان مني إلا صرختُ فيه:

ـ يا أستاذ هذه ليست مُزحة، تعال واختبيء كي لا تكشفنا الطائرات.

قهقه ضاحكاً وقال:

ـ أتقولون أنكم مختبؤون؟! حماكم الله، عليكم أن تعرفوا أنكم تبدون كالقطيع ـ في تجمعكم ـ من بعيد.

14) شلغم: ثمار تُشبه الفجل.

لم يمضِ وقت طويل حتى أدركتنا الطائرات وبدأت تقصف رافد الماء الذي كان يجري بهدوء، كما أنها قذفت قنابل النابالم الحارقة، وقد وقعت إحداها بالقرب من المطعم حيث كُنّا فتحولت المنطقة إلى جحيم حقيقي، والمدهش أن هذا الانفجار الكبير أدى إلى أصابة أنف الاستاذ فؤاد بشظية صغيرة لتجرحه. لم نتمالك أنفسنا فقهقهنا وخاطبناه قائلين:

ـ انظر ماذا فعلت بنفسك يا استاذ لو اختبأت لما أُصيب أنفك هكذا.

ردّ علينا ضاحكاً:

ـ لا تهتموا، مَن يأتي إلى هنا عليه أن يتحمل أحداث كهذه وأسوأ منها أيضاً.

أردنا العودة إلى المطعم كي نتناول الطعام، لكن استوقفنا صوت بكاء طفل صغير آتٍ من بعيد، تتبعنا الصوت، وجدنا والد الطفل محشوراً تحت صخرة كبيرة يُعاني سكرات الموت، حاولنا إنقاذه بكل السُبل، لكن كانت الصخرة كبيرة جداً فلم نستطع تحريكها من مكانها.

سألتُ الطفل:

ـ كيف حدث ذلك لوالدك؟

أجابني بعينين باكيتين:

ـ أراد أبي أن يحفر لنا حُفرة لنختبئ فيها كي لا ترانا الطائرات، لكن انزلقت الصخرة فوقه.

بعد مدة وجيزة، وصلت مجموعة أخرى لمساعدتنا، شرعوا بتحطيم الصخرة مُستعينين بمطارق حديدية كبيرة لتتمكن من إخراجه أخيراً، لكنه كان قد فارق الحياة.

حينها اقترب شاب في مقتبل العمر من الطفل ومسح دموعه بيديه وقال:

ـ هذا الطفل من قريتنا ونشكركم على تقديم المساعدة له، سنحمل جثة والده إلى القرية لندفنه هُناك.

******

سرنا بتمهل نحو المطعم، صُعقنا حال وصولنا بمنظر صاحب المطعم وهو غارقٌ في دمائه، أحشائه مدلوقة في قِدر الثريد وكأنّ المنظر مُفتعل ليكون بهذه البشاعة، كما كان الجرحى يتوزعون في المطعم، فهَبَّ الجميع لإنقاذهم والعمل على نقلهم بسيارة الجيب إلى مستشفى جومان.

عَلِقَ هذا المنظر الفظيع في ذهني طويلاً، لنعتاد مع مرور الوقت على رؤية هذه المناظر المأساوية والأسوأ منها أيضاً، فأصبحت اللحظة الراهنة محور اهتمامنا.

بعد هذا الحدث، تساءل الرفاق:

ماذا نفعل هنا (بلا شغل ولا مشغلة)؟ دعونا نذهب إلى ماوت ونؤسس استديو للأعمال الفنية نترزق منه. لا يمكن أن ننجز شيئاً هُنا نتيجة الفوضى، يُحتمل أن يكون الوضع أفضل هناك لبُعده عن الأنظار.

انطلقنا في طريقنا إلى هيران ونازنين، وقد استغرقت رحلتنا يومين وليلتين، قطعنا خلالها الطريق الجبلي على مراحل، سيراً على الأقدام، وفي تاريخ 24/ 4/ 1974 وصلنا نحن إلى مدينة رانية ـ بينما تابع البعض السير إلى مدينة قلعة دزة ـ وتوجهنا إلى المسجد الكبير لأخذ قسط من

الراحة بالقرب من ماء قوله. بعد مرور ساعة واحدة وقبل أن ننطلق، تردد خبر قصف مدينة قلعة دزة.

وصلنا قلعة دزة، كانت المدينة مدمرة بالكامل، وكأنّها دُمرت في الحرب العالمية، كان الناس يتحسرون وينتحبون أينما تصادفهم، الشهداء والجرحى لا تُحصى أعدادهم وكأنه يوم الحشر.

تجولنا بين الجرحى نبحث عمن سبقنا من الرفاق، لم يمض وقت طويل حتى لَمَحَنا شيرزاد رنجرو وصاح لنا من بعيد:

ـ الحمد الله نحن بخير.

كان وجهه أسود كالفحم من دخان بارود النابالم لكنه لم يكن مُصاب، كان مظهره يثير الضحك، لم أتمالك نفسي قهقهتُ وأنا أخاطبه:

ـ لو كان معي كاميرا الآن لما ترددت في التقاط صورة لك بهيئتك هذه التي تشبه قاعدة القدر المحروقة!

ـ عن ماذا تتكلم ونحن في هذا الظرف؟!.

قضينا تلك الليلة في قلعة دزة وقد عزفنا على تأسيس الاستوديو والعودة إلى كلالة، هكذا سلكنا طريق العودة إلى كلالة.

في الواقع، كنتُ قد تعبتُ من التنقلات الكثيرة هذه، وشعرتُ بانزعاج وضيق، خاصة أني اشتقتُ لأُسرتي وأطفالي كثيراً، فقررتُ أخذ إجازة رسمية لزيارة أربيل.

لهذا ذهبت إلى (دارا توفيق) رئيس مؤسسة الإعلام، حيث كان هو المُكلف بإدارة شؤون الوزارة من خيمة خارج مدينة جومان، طلبت منه منحي إجازة لمدة أسبوع واحد، سألني:

ـ ماذا ستفعل في هذا الأسبوع؟

ـ أريد الذهاب إلى أربيل لزيارة عائلتي.

ـ ألديك خبرة بهذا الطريق؟

ـ نعم، زوجتي من سكان هذه المنطقة، وأنا أحفظ كل شبر منها.

ـ لن يكفيك أسبوع واحد، سأجعلها ثلاثة أسابيع، وكُن حذرا جداً وأنت في طريقكَ إلى هُناك، وعندما تصل توارى عن الأنظار، إلى أن يحين موعد عودتكَ إلى هنا.

ـ حسناً، سأفعل.

أعطاني اذن مرور لتسهيل مروري على الطريق، ثم شكرته وودعته، وفي اليوم نفسه ذهبتُ في طريقي، مررت بـ **ميركه سور** وعندما وصلت إلى **شاندر** وجدت أمامي جسراً مصنوعاً من حبل غليظ على الزاب الكبير، عبرتُ الجسر وسرتُ بمحاذاة حافة النهر المعروف بنهر **بيخمة** إلى أن وصلت قرية **بيكي** كان بيت عديلي الأسطة **عمر** في تلك القرية، عرجتُ عليهم وقضيتُ الليلة عندهم.

في الصباح نهضنا من النوم وتناولنا الفطور معاً، أردتُ المغادرة، لكن الأسطة عمر أبى إلا أن أبقى لتناول طعام الغداء معهم وبعدها يمكنني المغادرة. اقترح أن يصطحبني إلى بستان كبير زرعه هذا العام بالرقي والبطيخ، لم تكن الفكرة سيئة فرافقته للبستان خاصة أنه مرَّ وقت طويل لم أذق فيه طعم الرقي والبطيخ، فجأةً بدأت دبابات الحكومة تقصف المنطقة فتعفرنا بالتراب، لكننا والحمدلله لم نُصَب بأي شظية، تركنا المكان بسرعة وعُدنا إلى القرية، تناولنا الغداء وزودوني ببعض الماء والخبز مؤونة الطريق ثم انطلقت إلى قرية سركندال وعرجتُ على أحد أقاربي هناك، تعشيتُ عندهم وواصلت المسير نحو قرية توزكي وسهل زرارتي.

كانت ليلة حالكة السواد تصعب فيها الرؤية، أفزعني صوت نباح الكلاب المسعورة وعواء الذئاب شعرتُ بروحي وصلت إلى منخاري، اسرعتُ الخُطى ولم أدرِ كيف قطعتُ ذلك الطريق الطويل، بعد ساعات وصلت إلى قرية تقع على نهر في سهل الزرارتي، بيشمركة همزه سيوي كانوا متواجدين هناك، قضيتُ ليلتي عندهم، وفي الصباح واصلتُ المسير قبل شروق الشمس.

قبل الظهيرة وصلت إلى قرية توزكي، انقسم سكان القرية ما بين مؤيد للجحوش ومؤيد للكرد في حين أن بعضهم كان من المُستقلين. لذلك كان من الصعب التمييز بين الصالح والطالح فيهم، جلست بالقرب من حافة النهر القريب من تلك القرية وغرقت في الخيال وانشغلت بالتفكير في كيفية قطع ما تبقى من المسافة، كنتُ أجهل المنطقة، ولم أكن أعرف أحداً كي أطلب منه المساعدة. بينما أنا كذلك جاء شاب للنهر، ألقى التحية وقال لي:

ـ يبدو عليك التعب، أعتقد أنك قادم من مكان بعيد.

ـ نعم، كنتُ في زيارة لأقاربي في قرية بيكي والآن أريد العودة إلى مدينة أربيل.

نظر إلى ملابسي وقال ضاحكاً:

ـ لاتخف، لستُ شرير، أعلم أنكَ قادمٌ من الجبل، ملابسكَ الخاكية مع الكتافية والحذاء الايراني تشي بأنكَ كُنتَ في الجبل، ما يعني أنك من بيشمركة.

عندما قال ذلك لم أتمكن من إخفاء الحقيقة عنه، سردتُ له قصتي الطويلة. تعاطفَ معي واحتضنني وقبّلني وقال:

الحمـدلله أنـك وثقـت بي ولم تقـع بـين يـدي الأشرار. أمسـك بيـدي وأخـذني معـه إلى بيتهـم، تناولنـا الطعام معـاً وقضيـت تلك الليلـة عنده.

جلسنا حتى ساعات متأخرة من الليل وقد عرفني بنفسه قائلاً:

اسـمي شـفيق فقدتُ والديّ منذ زمن بسـبب حادث مؤسـف، أعيش مع شـقيقتي في هـذا البيت، استرسـل في حديثه قائلاً:

لا سـلطة للبيشـمركة عـلى قريتنـا، لـذا بعض الناس اسـتلموا أسـلحة مـن الحكومـة والبعـض الآخـر يعملـون مـع البيشـمركة في الخفـاء، لكن لا تخـف أبـدا، أعـرف الجميـع هنا، غـداً قبل شروق الشـمس، سـآخذك إلى سـائق اسـمه مجيـد إنـه صديقي وهـو ملتحـق بالثـورة في الخفـاء يعمل سـائقاً بـين هـذه المنطقـة ومدينة أربيـل، سأرسـلك معه. لا تخـف وثق به.

ـ ليـس أمامـي إلا الوثـوق به؟ سـلمتُك نفـسي لأرى إلى أين سـيأخذني مصيري.

ردّ مبتسماً:

ـ ما رأيكَ أن أُسلمُك للجحوش، فأقبض بذلك مبلغاً جيداً؟

أجبتهُ مازحاً:

ـ وهل هناك أفضل من أن يكون رأسي مفيداً لك.

نمنـا في وقـت متأخـر من الليـل، ونهضنـا باكـراً تناولنـا الفطـور معاً، ثـم ذهبنـا معـاً إلى مجيـد السـائق وعرفني بـه قائلاً:

ـ هذا الرجل بيشمركة وأنا أئتمنك عليه.

كنـت قـد أخفيت مسدسـاً تحـت ملابـسي، أخرجتـهُ وقدمتـه هدية إلى شـفيق وقلـت له:

ـ أُهديك هذا المسدس تذكاراً مني، فقد قدمت لي معروفاً كبيراً، انت تستحق أكثر بكثير، لكني لا أملك شيئاً آخر. قبّلنا بعض وصعدتُ سيارة الجيب وانطلقت مع السائق مجيد إلى أربيل.

كان العم مجيد خبيراً بالطريق، في مناطق كثيرة كان يتنحى عن الطريق الرئيس ويسلك طرقاً فرعية، حين نسأله عن السبب يُجيب: إن هذه المنطقة مليئة بالجحوش، بذلك نتفادى الوقوع في شباكهم، علينا توخي الحذر لنأمن شرهم.

كان قد تبقى القليل لنصل إلى مدينة أربيل، لنجد أنفسنا محاصرين بمصادمات بين القوات الحكومية وبيشمركة (همزة سيوي) وقد حشدت الحكومة الكثير من قوات الجحوش ووضعتهم في المقدمة، حيث كانت تمتلك الكثير من الذخيرة والأسلحة.

أوقف العم مجيد سيارته بعيداً وتساءل بصوت مسموع:

ـ من أين أتت هذه القوات فجأة؟

ـ هذا لسوء حظي، ماذا أفعل الآن؟

ـ ادعوا الله أن تنتصر قوات البشمركة وإلا سننتهي جميعاً هنا، كما أنه لا يمكننا التراجع وإلا سيشكون بنا ويقصفوننا.

ببركة الله، لم تستمر المواجهات وقتاً طويلاً، أجبرت قوات البيشمركة القوات الحكومية على التراجع، وأحكمت سيطرتها على المنطقة. واستئنفنا نحن المسير، وصلنا إلى مدينة **أربيل**، حي **بسته بيازة** مع الظهيرة، ترجلتُ من السيارة في الشارع الستيني وبجانب معمل السجاد اليدوي خاطب العم **مجيد** الجميع قائلاً:

مَن يريد العودة معي غداً، عليه أن يتواجد هنا قبل شروق الشمس.

كنتُ مشتاقاً للتجول مساءً في الشارع الدائري تحت القلعة، لذا وعندما وصلت البيت، استحميتُ، أكلتُ وشربتُ الشاي، وارتديتُ ملابساً عادياً استعداداً للخروج.

استقليتُ الباص الذاهب إلى السوق، أخذت دورة كاملة حول القلعة، كنتُ أُحدثُ نفسي (مَنْ يضمن أنّي سأعود حياً ثانيةً، قد تكون هذه المرة الأخيرة التي أرى فيها القلعة). عندما وصلت إلى المحكمة والتفت إلى بناية محافظة أربيل، شاهدتُ ثلاثة مقرات حزبية بجوار بعض وبأسماء مختلفة، أحدهم باسم (الحزب الديمقراطي الكردستاني) والآخر باسم (الحزب الثوري الكردستاني) والأخير باسم (الحزب التقدمي الكردي).

لفتني هذا الأمر بشدة، اقتربتُ أكثر، كان لديّ رأيت صديقي عثمان ــ كان خبازاً فيما مضى، ويتمتع بموهبة فنية، لقد كان يعمل في الفرقة الفنية المسرحية مساءً ــ كان يرتدي رانك وجوخ من النوع الأصلي، ويضع مسدساً تحت حزام ظهره ويجلس أمام باب مقر الحزب الثوري الكردستاني، حين شاهدني، دعاني إلى احتساء الشاي معه.

توجهتُ إليه وبعد التحية والسلام سألته:

ـ ماذا تفعل هُنا؟

ـ أنا الآن أعمل هنا ومسؤول في هذا المقر.

ـ رغم معرفتي السابقة بكَ، إلا أني لم أعلم بأنك على علاقة بالسياسة، أعرفكَ خبازاً، ألا تُخبرني كيف أتتك هذه الفكرة؟

أجابني ضاحكاً:

ـ ليبقى الأمر سراً بيننا. بعد اندلاع الثورة توجه الناس إلى الجبل،

افتتحتْ الحكومة ثلاثة أحزاب معاً، واحتسبوا مدة عملي خبازاً على أنها سنوات نضال في الجبهة وخصصوا لي راتباً جيداً، لذا أعمل الآن في السياسة ولم أعد خبازاً.

دعاني بحرارة إلى تناول الطعام عنده، لكني اعتذرت منه وعدتُ إلى البيت، قضيتُ تلك الليلة مع عائلتي، ومع الصباح وقبل شروق الشمس، توجهتُ مع عائلتي إلى العم مجيد وركبنا سيارة الجيب، سلكنا الطريق نفسه الذي أتينا منه، ومن هناك قطعنا الطريق من قرية إلى أخرى ومن جبل إلى آخر إلى أن وصلنا إلى ناوبردان.

بقينا أنا وعائلتي في تلك المنطقة مدة من الزمن، لكن، وبسبب ازدياد الهجمات الجوية من قبل الحكومة على تلك المنطقة، خاف أطفالي كثيراً، فاتجهتُ بهم إلى إيران ـــ في الجانب الآخر من الحدود ـــ واسكنتهم في مخيمات النازحين هناك، وعُدتُ وحيداً إلى عملي في ناوبردان.

22

الإنهيار

بقيت في **ناوبردان** مدة، ثم زرتُ عائلتي في المخيمات، لكن قبل ذلك ذهبت إلى سوق نغده من أجل شراء بعض اللوازم والمواد الغذائية والفواكه، خلال تجوالي، وقعت عيني على أحد عناصر البيشمركة وهو جالس على الرصيف وقد وضع أمامه بعض الجوارب وملابس الأطفال ليبيعها، أعتقدني أعرف هذا الرجل من قبل، كان قد درس المرحلة الثالثة في كلية الزراعة/ جامعة السليمانية، لكن وبعد تعثر المفاوضات بين الحكومة والثورة، التحق بالثورة خوفاً من إلقاء القبض عليه، ليصبح ساعياً للبريد.

أدهشتني رؤيته، بادرته قائلاً:

ـ ماذا تفعل هنا؟ ألم تكن ساعياً للبريد في قوات الثورة؟

تنهّد وبحسرة أجاب:

ـ ليتني متُّ وما وصلتُ إلى هذا اليوم، أخطأتُ حين تركتُ دراستي وخرجتُ إلى الجبل، لو كنتُ خدمتُ عائلتي لكان أفضل بكثير. لقد خُدعتُ، اعتقدت أن مصير شعبي مرتبط فعلاً بايصال هذه الرسائل التي كنت أحرص على طويها كأنها حجاب وأُخفيها داخل سروالي كي أنقلها بأمان من قائد إلى قائد آخر، ليتبيّن لي أن ما يتناقلونه في الرسائل

كان دعـوات لحضـور ملذاتهـم الخاصة (حفـلات البغاء والخمـرة) عوضاً عـلى أن تكـون دعوات لمناقشـة آلام الشـعب وأوجاعه.

ـ مـاذا تقـول٪٪٪؟! أرجـوك قُـل أن رسـائلهم كانـت عـن الأسـلحة والعتـاد كـي يتقبلهـا عقـلي، لكن أن تكـون عن البغـي والخمرة هـذا ما لا يُمكـن تصديقه...!

ما علاقة ذلك بالثورة؟

ـ أنـا أيضـاً اسـتغربتُ ذلـك مثلـك تمامـاً. أذكـر أن القائـد أرسـلَ في طلبـي وسـلمني رسـالة صغـيرة تشـبه الحجـاب. أوصـاني قائلاً، أمسـك هـذه الرسـالة يـا بُنـي وانتبه لئـلا تقع منـك في الطريـق، ففيهـا مصير هذه الأمـة، أسرع واحـرص عـلى ألا تنـام أو تتوقـف في الطريـق إلى أن تبلـغ القائـد وتُسـلمه هذه الرسـالة ولا تعود قبـل أن يُرفق معكَ جوابـه. وأذكر جيـداً جـوابي لـه٪ قلـتُ لـه حينها طالمـا أن مصـير أمتـي في هذه الرسـالة أتعهـد بـألا أتوقـف قبـل أن أوصلهـا إلى القائد.

استرسل عنصر البيشمركة قائلاً:

سرتُ يومـاً وليلـة وكانت الطائرات تُحلق فوق رأسي طيلة تلك المسـافة وتُسـقط قنابلهـا فتنفجـر مـن حـولي. لكنـي لم أستسـلم وواصلت المسـير بعزيمـة وهمـة عاليتـان دون أن يغمـض لي جفـن، حتى وصلـتُ إلى القائد المقصـود. كان القائـد جالسـاً هـو وبعض عناصر البيشـمركة أمـام فانوس قديـم داخل كهف، أخرجتُ الرسـالة من جيـب سروالي وقدمتها له قائلاً:

أنـا مُكلف بتسـليمك هذه الرسـالة وفيها مصـير أمتنـا، إقرأها وزودني بجوابـك كي أنقلـه إليهم.

سألته:

ـ تُرى ما في هذه الرسالة التي ستُغير من مصير الأمة؟

ـ كُـن عـلى ثقـة بأنني لم أكـن أعلـم بـما فيهـا والقائـد الـذي استلمها منـي لم يكـن يعلم أيضـاً. لذلـك اندهش هو أيضـاً وطلب مني قـراءة هذه الرسـالة الهامـة والتي سـتُغير مصـير الأمة.

ـ وهل قرأتها؟

ـ أجـل، لكـن ياليتنـي لم أفعـل، تمنيـتُ أن أكـون جاهـلاً لا أعـرف القـراءة.

ـ لماذا...؟ هل كانت تحمل أخباراً سيئة أزعجتك؟

ـ لو أخبرتكَ ما احتوته لما صدقتني أبداً.

ـ يكادُ الفضول ينهشني، أخبرني بسرعة ماذا تضمنت الرسالة؟

ـ حين فتحتُ الرسـالة وقرأتُها سـطراً بسـطر. «وصلتنـا بعض الأطعمة الجيـدة ومـن ضمنها الخمر والويسـكي، وهنـاك بغي صبيـة وجميلة، حينما تصلـك الرسـالة، أدعـوك للانضمام إلينـا بسرعة، كي نسـتمتع معاً لبعض الوقت».

بمزيد من الاستغراب سألته:

ـ ومَـنْ الـذي يـأتي بالخمـر والويسـكي والغانيـات إلى هـذه الجبـال والوديـان، بينـما المفـروض أن تواجـد هـؤلاء ـــ البشـمركة ـــ أساسـاً من أجـل ضـمان حقـوق الأكـراد لا مـن أجـل المـرح والفجـور!.

وكيف كانت ردة فعل القائد حين قرأت عليه الرسالة؟

ـ كـدتُ أُجَّـن، في تلـك اللحظـة اسـتغرقتُ في أفـكاري، لم أنتبـه إلى القائـد، فقـد حضرتنـي عـشرات الهواجـس، وفكـرتُ أنـه مـن الأفضـل أولاً قتـلُ هـذا الكلـب ثم العـودة ثانية من حيـثُ أتيت وقتـل القائد عديم الـشرف الـذي أرسـلني بهذه الرسـالة ـ هؤلاء مَـن خدعوني أنـا وعشرات

الشباب أمثالي ـ وبعد ذلك أُطلق رصاصة في جيبني بذلك أُكفّر عن حمقي وسذاجتي لانجراري ورائهم، ظننتهم خصّوني بعمل مُشرف، لم أعلم أنهم من أجل رشفة من هذا الزقنبوت وجسد بنت ليل منحوني شرف القوادة.

ـ وهل قتلتهم؟

ـ لا، فبعد تفكير مطول، قررتُ أنه لا جدوى من تلويث يدي بدمائهم النجسة، لذلك قررتُ الانسحاب والعمل بائعاً على الرصيف إلى أن يفتح الله عليّ باباً آخر واجتمع بعائلتي.

حزنتُ كثيراً بسبب لقائي بهذا البيشمركة الشاب، حدثتُ نفسي: (هل ياترى هذه حال جميع القادة؟) اذا كانوا غير قادرين على تحمّل الحياة في الجبال والوديان لِمَ لا يلتزمون أماكنهم ويتركون الثورة للأوفياء والأشداء، أسئلة كثيرة دارت في خُلدي، وجميعها كانت بدون إجابات.

من شدة تأثري لم أرغب في إكمال التجول وعُدتُ مهموماً إلى الخيمة تناولت الغذاء مع عائلتي ثم اضطجعتُ في مكاني، حاولتْ زوجتي التحدث معي ومعرفة سبب حزني، لكن دون جدوى، فكرتْ (ماذا أقول لها؟ لو علموا ما علمت، هم أيضاً سيفقدون الأمل تماماً).

قضيتُ عدة أيام في المخيم مع عائلتي وبعد انتهاء إجازتي، جهزّتُ نفسي ووضعت حقيبتي على كتفي، أردتُ التوجه إلى الكراج الرئيسي لأعبر الحدود، وأعود إلى وظيفتي، التقيتُ بمسؤول المخيم عند الباب وسلمّت عليه، ردّ التحية وقال:

ـ عُد إلى عائلتك، لقد انهارت الثورة، فقد اتفقت حكومتنا مع الحكومة العراقية على إنهاء الحرب، اتفق الشاه مع صدام حسين على كل شيء، وقد أبلغونا أنكم أمام ثلاثة خيارات، إما أن تمكثوا هنا

وتكونـوا لاجئـين، أو تعـودوا إلى العـراق، أو تُغـادروا إلى بلـدان أخرى، فأغلبيـة بلـدان العـالم فتحـت أمامكـم الأبـواب وسـيتم قبولكـم بصفـة لاجئـين بسـهولة.

بمجـرد أن انتهـى مـن كلامـه، تجمـدتُ مـكاني، لم أتوقـع انهيـار هـذه الثـورة الكبـيرة وفيهـا مئـات الآلاف مـن عنـاصر البيشـمركة المُدججـة بالأسـلحة والعتـاد بلحظـة واحـدة.

أجبته:

ـ نحـن مـن قام بالثورة ونحـن مَن يُقـرّر إن كانت ستسـتمر أم تتوقف. هـل صـادف أن قـام شـعبٌ بثـورة وانتظـر الآخريـن والأعـداء ليقـرروا مصـيره؟! نحن شـعب لا ينقصُنـا شيء، لدينا أسـلحة كثيرة وهـذه الجبال والسـهول درعٌ قـوي تعمـل على حمايـة ظهورنا.

أنا عائد لأكمل كفاحي.

هَزَ الرجل رأسه ووبخني قائلاً:

ـ لِمَ لا تسـتوعب، أقـول لـك أن كل شيء قـد انتهـى وليـس أمامكـم سـوى هـذه الخيـارات الثلاثـة.

قفلتُ يائساً إلى خيمتنا وطلبتُ من زوجتي الاستعداد لنعود إلى العراق.

استغربتْ ذلك وسألتني:

ـ مـاذا تقـول؟ ولمـاذا أتينـا إلى هُنـا إذَن؟ ألا تخـاف أن يقبضـوا عليـك بسـبب سـيارتك المسروقـة؟

ـ لا أعلـمُ شـيئاً، هـذا مـا أخـبرني بـه مسـؤول هـذا المخيم.٪ قـال لقد انهـارت الثـورة وانتهـى كل شيء. ومن الأفضـل أن نصـل إلى الحدود قبل أن تزدحـم بالعائديـن، وإلا سـنتجرع الكثـير من الآلام.

هكـذا عبرنـا الحـدود، كان منظـراً مأسـاوياً، وجدنـا النـاس وكأنهـم قطيـع مـن الحيوانـات وهـم في طريقهـم للعـودة إلى المناطـق التـي تقـع تحـت سـيطرة الحكومـة المركزيـة، بينـما كان الجيـش العراقـي في اسـتقبالنا، حيـث كانـوا يسـتلمون الأسـلحة ويكدسـونها فـوق بعضهـا ولم يسـمحوا لنـا أن نأخـذ معنـا أي شيء باسـتثناء الأكل فقـط، كانـت السـيارات العسـكرية مـن نـوع إيفـا في انتظارنـا كـي تقلنـا إلى أربيـل.٪ سـجلوا أسـمائنا وركبنـا هـذه السـيارات التـي أوصلتنـا إلى مدينـة أربيل .

كان يـوم حزيـن، لم أتخيـل أن أعيشـه أبداً، عـلى طول الطريـق وصولاً إلى حـدود سـلطة الحكومـة المركزية صادفنـا الكثير من عناصر البيشـمركة وقـد تركـوا أسـلحتهم، وتحولـوا إلى مـا يشـبه قطيـع أغنـام تائه بـلا راعٍ، يسـيرون وهـم في حيرة مـن أمرهم يبـدو عليهم الـذل والإحبـاط، التفتُّ إلى أحدهـم، كان بجانبي وسـألته:

ـ بماذا تشعر وأنت تراهم على هذه الحالة؟

تنهّد قائلاً:

ـ أشعر بضيقٍ يُنبئ بموتي.

ـ هل سبق وسمعت بثورة ذابت بلمحة عين كما ذابت ثورتُنا هذه؟!

ـ ما سمعتُ ولا رأيتُ.

كان هـذا البيشـمركة مُحبطـاً تماماً، اسـتمر يُـردد طول الطريـق عبارة ما سـمعتُ ولا رأيتُ شـيئاً كهذا...

عـلى أيـة حـال وصلنـا إلى مدينة أربيـل، فتحوا أبـواب سـيارات الإيفا العسـكرية، نزلنـا منهـا وإحسـاس بالذل والخجـل يعتمرنا، تجمهر حشـد كبـير من النـاس على جوانب الشـوارع، يحتلـون الأرصفـة في انتظار عودة

أهاليهم وأقرباءهم من المناطق الجبلية، لكننا سرنا دون أن نجرؤ على رفع رؤوسنا من شدة الخجل نخشى النظر في وجوهم.

توجهتُ في اليوم التالي إلى عملي، استقبلني أصدقائي وبشروني بأنني مشمول بقرار العفو وقد طويَّ ملف سرقة السيارة، فحدثتُ نفسي، (بعد ماذا، بعد خراب البصرة) كما يقول المثل الشعبي لدينا!.

داومت لمدة، ثم طلبتُ إحالتي على التقاعد.٪ فتحتُ دُكانا صغيراً في الحي الذي أسكنه، كنت أبيع فيه حلوى الأطفال.

ذات أمسية توقفت سيارة أمام الدكان ونزل منها أحدهم، ألقى التحية وقال:

ـ أعطوني عنوان هذا المكان، أنا أعمل في مشروع سد بيخمة ومديرنا يوغسلافي الجنسية، أرسلني إليك لنقل رغبته في أن تعمل معهم.

ـ ماذا تقول؟

كدتُ أن أطير من شدة الفرح، أغلقتُ الدكان وذهبتُ معه. بعد وصولنا اصطحبني إلى مديرهم وخاطبهُ وهو يُشير نحوي.

ـ إنه مَن تبحث عنه.

قام المدير عن كرسيه ومَدَ يدهُ نحوي مصافحاً بحرارة وقال موجهاً حديثه لي:

ـ سمعتُ بأنك عملت مع الإنكليز والأمريكيين في مشروع سد بيخمة ودربنديخان خلال مرحلة الحكم الملكي، وعلمتُ أنك تُجيد اللغة الإنكليزية، هل هذا صحيح؟.

هززتُ رأسي وأجبته بالإنكليزية قائلاً:

صحيح، كنتُ عسكرياً ضمن الجيش الليفي الإنكليزي لعدة سنوات ثم عملت في مشروعيّ سد بيخمة وسد دربنديخان.

ـ حسناً، زملاؤك الذين عملوا معك في المشروعين، أثنوا عليك وقد تكلموا عن خِصالك الحميدة وذكاءك وإخلاصك في العمل، لا سيما مستر موركن الذي مدحك كثيراً ـ مؤكداً بأنك صادق وأمين ويمكنني الوثوق بك ـ لذلك أرسلتُ في طلبك أريُدك من اليوم سائقاً شخصياًلي.

شكرته مُجدداً، وطمأنته بأني سأكون عند حسن ظنه. جلسنا معاً لبعض الوقت واحتسينا القهوة.٪ بعد الانتهاء من تناول القهوة طلب حضور سكرتيره وقال:

ـ لقد تم تعيين هذا الرجل المحترم اعتباراً من هذا اليوم بوصفه سائقي الخاص، خذهُ معك وسلمه مفتاح أحد البيوت مع تأمين المستلزمات الضرورية له.

أخذني السكرتير إلى مجموعة من البيوت، التي تنتظم فيما يُشبه مجمع سياحي صغير، فتح باب أحدها وخاطبني:

ـ سيكون هذا مكان إقامتك، تفحصه وإن كان به نقص أخبرني كي نعوضه لك.

ألقيتُ نظرة سريعة على المكان ثم شكرته كثيراً لأني لم ألحظ فيه نقص.

وهكذا، وبعد تعييني في مشروع سد بيخمة شملني الله برعايته مرة أخرى وتنعمت بحياة سعيدة ومستقرة. نِلتُ ثقة المدير وترسخت هذه الثقة بمرور الأيام، إلى أن جاء اليوم الذي عينني فيه مسؤولاً على جميع سيارات الشركة، وكان يعتمد عَليَّ في شراء بعض المواد والمستلزمات بما فيها المواد الغذائية.

******

وصلت نسبة الإنجاز في سد بيخمة إلى مراحل متقدمة تكاد تقترب إلى الكمال حين احتل العراق الكويت، ما جعل الولايات المتحدة الأمريكية تُعلن الحرب على العراق بالتنسيق مع بلدان أخرى، انتهت هذه الحرب بإخراج القوات العسكرية العراقية من الكويت، وبهذا شهد الوضع في العراق عامةً تدهوراً كبيراً من النواحي الاقتصادية والسياسية ما انعكس على الناحية الأمنية أيضاً.

******

طلب المدير مني ذات مساء موافاته إلى غرفته الخاصة، وحين حضرت سلمني حزمة كبيرة من المفاتيح:

ـ هذه المفاتيح لجميع المخازن، احفظها معك، فنحنُ سنسافر إلى بلداننا، قد نعود حين يتحسّن الوضع. بيتي ومحتويات المخازن كلها أمانة لديك، إن احتجت يمكنك استعمال ما تريد.

وهذه الثلاجات مليئة باللحم والمواد الغذائية المبردة، كذلك فيها بعض المواد الغذاية المعلبة التي لن تكون صالحة للأكل بمرور الوقت، لذلك من الأفضل أن تتقاسمها مع الموظفين وتستفيدوا منها.

قبّلني مودعاً وتَرَكَني ليغادر إلى بغداد، حزنتُ على فراقه كثيراً، لكن لا يُمكنني فعل شيء.

23

الانتفاضة

بقينا على هذه الحال عدة أشهر، أذهب يومياً إلى السد وأعود بعد الظهيرة، وفي ظهيرة أحد الأيام أغلقتُ المخازن، وركبتُ سيارة السازوكي الجميلة التي كنتُ استخدمها عائداً إلى أربيل، وفي مساء اليوم نفسه، تعالت الأصوات في الحي الذي كنا نسكن فيه، خرجت من البيت لأستكشف مصدرها، وجدتُ بعض شباب الحي وآخرين لم أعرفهم يتحدثون عن الانتفاضة الجماهيرية.

انضممتُ إليهم وسألتهم:

ـ ماذا تقولون؟

أجابني أحدهم.

ـ بدأت الانتفاضة في **رانية** و**السليمانية** وستصل هذه الليلة إلى مدينة **أربيل** وسيعملون على إخراج الجيش العراقي منها.

تدخل آخر:

ـ أنتَ محظوظ ستصبح هذه السيارة الجميلة من نصيبكَ.

كدتُ أطير من السعادة عند سماعي هذه الأخبار، لكن ومن جهة أخرى قلقتُ من إمكانية تعرض مخازن مشروع سد بيخمة للنهب.

عزمتُ على العودة إلى السد حالاً... أخبرت زوجتي بنيتي.

حاولت ثني قائلة:

ـ هل أنت مجنون، ألم تسمع بأن حشود كبيرة خرجت إلى الشوارع.

يقولـون أن المسـؤولين والموظفـين في دوائـر الدولـة تركـوا مواقعهـم وهربـوا.

ـ لهـذا السـبب بالـذات يجـب إعـادة هـذه السـيارة إلى المـشروع بأسرع وقـت، لئـلا يطمـع بها أحدهـم ويسـلبني إياهـا وأُحرج كما حـدث حينما نهبـوا سـيارتي في المرة السـابقة.

اسـتقليتُ السـيارة وعـدتُ إلى مـشروع بيخمـة، حين وصلـت ركنتُ السـيارة في الكـراج وعلقـت المفاتيـح في المـكان المعتـاد، ثـم توجهـتُ إلى المـكان الـذي اعتـدت قضـاء وقت راحتـي فيـه، تمـددتُ مترقبـاً، قلِقاً.

وقبـل أن أغط في النوم سـمعت طرقـاً على الباب، خرجتُ أستكشـف مَـن يكـون، كانـوا جمهـرة مـن الناس يهاجمـون المـشروع وقد نهبـوا كل ما كان صالحـاً ويُفيـد، بـما فيهـا السـيارات وجميع المـواد الاحتياطيـة، التفتَ أحدهم نحـوي قائلاً:

ـ يُقـال بأنك كنت السـائق الخـاص لمدير المشروع وتعـرف كل الأماكن هنـا، تعال معنا كي ترشـدنا عـلى تلك الأماكـن الهامة.

ـ وهل أبقيتم شيئاً لأدلكم عليه؟ لقد سلبتم كل شيء.

في جُنـح الظـلام سـلكتُ طريقـي باتجـاه مدينـة حريـر وقضيـت تلـك الليلـة عنـد أحـد أقـاربي، وفي الصبـاح الباكـر توجهـتُ إلى الكـراج واسـتأجرت سـيارة تقلنـي إلى مدينـة أربيـل.

كانت الفوضى تعم أربيل، تبدو مظاهر القلق والاضطراب على وجوه الناس المُتجمهرين في الأزقة والشوارع وهم ينتظرون تحرير المدينة، كانت الحكومة قد نشرت رجالها في الأماكن الحساسة والشوارع الرئيسة ولاسيما شارع الستيني. قضينا تلك الليلة في رعب، لم نعلم كيف سيكون مصيرنا هذه المرة.

في الصباح وقبل شروق الشمس، سمعنا صوت إطلاق النار في حي برايتي، صعدت إلى السطح كي أراقب الوضع، وجدت البعض يراقبون من السطوح كما فعلت أنا، بينما اتجه البعض إلى دائرة الأمن ومقر جهاز المخابرات.

بينما تُحلق المروحيات في السماء وتطلق النار على المتظاهرين وبالأخص أهالي مجمعي **دارتوو** و**بنصلاوة**.

لم يستمر الوضع على هذا الحال كثيراً، قبل الظهيرة انهارت الحكومة وتم تصفية المعسكرات والأجهزة الحكومية من قبل الجماهير المنتفضة، قُتل الكثير من رجال الحكومة، وغادر الناجون منهم المدينة، وقد انقضت قوات السلب والنهب على المؤسسات الحكومية نهبوها ولم يتركوا فيها شيئاً.

الجهاز الوحيد الذي بقي صامداً هو جهاز المخابرات العسكرية الكائن في شارع كركوك، صمدَ إلى ما بعد الظهيرة، بيدَ أن قائد أحد المفارز الأمنية اقتحم الجهاز هو ورجاله وسيطروا عليه، وقتلوا كل من كان هناك يقاوم واحرقوا جثثهم. بذلك تم تحرير مدينة أربيل من حكم النظام، لتعم الاحتفالات أرجاء المدينة.

خرجتُ من بيتي وتوجهتُ بحذر نحو دائرة الأمن، كان المكان مكتضاً بالناس، منهم مَن كان يبحث علَّه يعرف مصير أحد أفراد عائلته أو أقاربه ممن أُقتيدوا إلى هنا في يوم من الأيام ليختفوا في سراديب

السجون، ومنهم مَن جاء بقصد النهب والسلب بينما أنا وأمثالي كنا نجمع الأوراق والمستندات لنفهم ما جرى ويجري، بينما جاء آخرون للبحث عن ملفاتهم الشخصية كي يَحرقوها خوفاً من اكتشافها، ويرتبط هؤلاء بمصالح مشتركة مع الأجهزة الأمنية.

وقعت بين يديَّ ورقةٌ سببت لي الحزن حين قرأتها، حيث حوت على صور أشخاص وتحت كل صورة معلومات تعريفية عنها، عرفتُ منها صورة برخوكة المجنون وقد عرّفوا عنه كما يلي:

(كان هذا المجرم أحد عناصر البشمركة لأجل ذلك نال جزاءه وقُتل) كنت قد لاحظت ـــ من خلال ما تحصلت عليه وراجعته من الوثائق والكتب الرسمية ـ تورط رؤساء المفارز الأمنية الخاصة ذوي الأصول الكردية بخطف الأبرياء بتهمة انتمائهم إلى البيشمركة وتسليمهم إلى الدائرة الأمنية ليلقوا حتفهم تحت التعذيب.

وجدتُ أيضاً في دائرة الاستخبارات، ورقة رسمية موجهة إلى فرع سنجار تتضمن توجيهات تدعو إلى نشر خبر كاذب ـ إشاعة ـ مفادها أن الاتحاد الوطني الكردستاني على خلاف كبير مع الحزب الشيوعي العراقي، وأنهم شنوا حملة قتلوا فيها الكثير من كوادر الحزب في مدينة كويسنجق، وبهذا تبيّن لي كيف تمكّن النظام في العراق من زرع الفتنة والخلاف بين الأحزاب الكردستانية.

تأثّرتُ كثيراً بعبارةٍ مكتوبة على جدار أحد السجون الإنفرادية (ولدي العزيز **دلوفان**، والدك مقبوض عليه هُنا وهو بريء وهم سيقتلونني، فإذا كبرت لا تنسى أن تثأر لوالدك من هؤلاء الوحوش). كثيرة هي المشاهد المأساوية، لن تنتهي مهما تحدثنا عنها، حُررت أربيل، لكن لم تدم حُريتها طويلاً فما لبث أن سيطر رجال الحكومة المركزية ـ قوى الأمن ـ عليها ثانيةً.

24

الهجرة الجماعية

مساء يوم 31/ 3/ 1991 كنت عائداً مع حماي من السوق، رأينا الشاحنات الكبيرة وهي تنقل العوائل، أوقفنا إحدى الشاحنات وسألنا سائقها:

ـ يبدو أنكم تهربون من كركوك.

ـ لا، نُريد الهرب من قوشتبة لأن القوات العراقية اقتربت كثيراً من تلك المنطقة ويُقال أنهم في طريقهم إلى هنا.

التفتُ إلى حماي واقترحت عليه:

ـ لنؤجر سيارة ونخرج نحن أيضاً من المدينة قبل أن تصل القوات. فإن وصلتْ لا يُمكننا فعل شيء.

لم يثق حماي بمعلومات السائق، كان أكثر تفاؤلاً مني، أجابني:

ـ لا أظن أن أربيل يمكن أن تسقط بهذه السهولة.

أيعجز بيشمركة كل هذه الأحزاب في الجبهة الكردستانية عن حماية المدينة؟

ـ عددهم قليل جداً مقارنة بقوات الحكومة، أظن أنهم لن يصمدوا أمام الدبابات والمدافع.

ـ ألم يكونوا هُم مَن أخرج تلك القوات من المدينة وحررها؟

ـ كان الجيش منهاراً حينها، لذلك لم يصمد أمام انتفاضة الشعب في **كوردستان** فآثر الانسحاب والهرب. لكن٪٪٪ يبدو أن الحكومة هذه المرة ضمنت تأييداً دولياً من أجل احتلال **كوردستان** مرة أخرى، لذلك تتقدم بثقة.

******

في الليلة نفسها كنت جالساً مع أخي في بيت حماي، نناقش خططنا لأجل الخروج من مدينة أربيل قبل أن تقع بيد القوات العراقية، وبينما نحن كذلك، دوّت أصوات انفجار، كانا انفجارين، اهتز البيت من عزمهما، خرجنا وخرج الآخرون أيضاً من بيوتهم إلى مكان الانفجار، استمرت أصواتُ المدافع تلك الليلة مما أربك الناس أكثر. بدأ الذين يملكون سيارات منهم بجمع بعض المواد الضرورية لينطلقوا بعدها.

بدا مشهد تلك السيارات خلال سيرها وهي تخرج من المدينة وكأنها رتل طويل من النمل. اكتظت الشوارع بالجميع، من كان راجلاً يهم مسرعاً يحرص على اصطحاب أطفاله معه وكأننا في يوم الحشر. لم ينم أحد في تلك الليلة. ونحن أيضاً حملنا بعض المواد الضرورية وتوجهنا إلى بيت العم **محمد مشن** وطلبنا منه توصيلنا إلى طريق **شقلاوة**.

أجابنا: «من عيوني» واتصل بخاله كي يأتي مع الشاحنة التي ستقلنا إلى شقلاوه.

وصل خاله بعد وقت قصير، وقد كانت الشاحنة مكتظة بالناس الذين صعدوا وهو في طريقه إلينا، بالكاد وجدنا مكان لنا بينهم.

سلكنا الطريق مُرغمين نحو حي شورش، ومن هناك توجهنا إلى بيرزين كانت المروحيات تحوم فوق رؤوسنا وتُطلق النار علينا من

أسلحة الدوشكا، وقد ارتمت عشرات الجثث على الطريق كما انتشرت الكثير من السيارات المحروقة وقد تفحم رُكابها تماماً.

سلكنا الطريق مجبرين نحو حي **شورش**، ومن هناك إلى **بيرزين**، وكانت المروحيات تدور فوق رؤسنا، وكانوا يطلقون النار على جموع الهاربين مستخدمين سلاح الدوشكة.٪ وجدنا في الطريق العشرات من الجثث متروكة في تلك المناطق المكشوفة، والكثير من السيارت المحترقة التي تحّول الركاب فيها إلى فحم محروق تماماً.

وصلنا مساءً إلى مصيف بيرمام، قضينا الليلة هناك، وفي الصباح توجهنا إلى مدينة شقلاوة، وصلنا إلى هناك وقد تمكّن منّا الجوع فانهارت قِوانا، لكن كانت جارتنا **جميلة خان** تزرع الطمأنينة في قلوبنا وتقول بأنه لم يبق إلا القليل ونصل إلى شقلاوة، بيت ابنتي هُناك. سأُعد لكم قدراً كبيراً من حلوى السكر حين نصل، كما أني سأطبخ قدرين كبيرين من التمن والمرق فتأكلون وتشربون الشاي.

وصلنا أخيراً إلى مدينة شقلاوة وتوجهنا إلى بيت **روخوش** التي كانت تسكن مع بيت حماها، دخلنا إليه، يعمه صمت مطبق، في غرفة الضيوف يضطجع رجل على السرير كأنه ميت، بالقرب منه على الطاولة فانوس غير شغال وكأس ماء وقطعة خبز. صف طويل من النمل شق طريقه إلى جسد هذا الشيخ الطاعن في السن، على الأرجح أنه حمو إبنة **جميلة خان**، بدا أنه انزعج من رؤيتنا كثيراً، ردّ على تحيتنا له بعدم اكتراث.

أغلب الظن أن العائلة هربت خوفاً من وصول القوات العراقية. بعد تفتيش البيت لم نجد إلا نصف كيلو من الأرز مما أطاح بأحلامنا في أن نحظى بضيافة كريمة وقد بتنا ليلتنا والجوع يقرصنا.

في الصباح جاء ابن الرجل وبدون أن يُلقي التحية، توجه بحديثه إلى جميلة خان، قائلاً:

حتى الآغا فرّ هارباً، أنصحكم بالهرب أيضاً، وبسرعة، قبل وصول القوات العراقية التي باتت قريبة جداً.

بإسلوبه المهذب طردنا من بيته، فتوجهنا ونحن جائعين إلى ناحية **حرير**، في الطريق مررنا ببستان مزروع بالبصل الأخضر، توقفنا فيه وقد ملأنا بطوننا منه لسد جوعنا. وأكملنا المسير، وصلنا بعد الظهيرة وتوجهنا مباشرةً إلى بيت خال أولادي، وقد أكرمنا وقدّم لنا جبن وخبز كثير فأكلنا إلى أن شبعنا، عند المساء اقترح أن ننتقل إلى غرفة كبيرة أخبرنا أنه خصصها لنا للإقامة فيها طالما نحن في ضيافته. كان طيباً وشهماً حين خفف من ألمنا النفسي بقوله:

تصرفوا وكأنكم في بيتكم، لا تحزنوا، لا يعلم أحد ما قد يحدث غداً، فالله قادر على جبر خواطركم وإعادتكم إلى بيوتكم بخير وسلام.

بقينا عنده عدة أيام، نذهب صباحاً إلى السوق من أجل مراقبة الوضع، فنأتي بالكثير من الأخبار والدعايات، كان بعضها يروج إلى أن دبابات الحكومة العراقية وصلت إلى مدينة شقلاوة ولم يبقَ أمامهم إلا القليل ليصلوا إلى هنا، وبعضها يُروج إلى أن مدينة أربيل تحررت وطُرد الجيش العراقي إلى خارج حدودها وعاد سكان المدينة للتنقل فيها بحرية تامة.

انتشار هذه الدعايات، جعلت الناس يتخوفون ويقلقون كثيراً، فلم نعُد نعلم كيف نتصرف وماذا نفعل؟ هل نرجع إلى بيوتنا أم نهرب إلى المناطق الحدودية؟.

عـلى أية حـال، صرفنا ما كان معنا مـن أموال وأصبحنا حمـلاً ثقيلاً على قريبنـا مـا جعلنـا غـير مُرتاحين لوضعنـا، لـذا قررت العـودة مـع عائلتي إلى مدينـة **أربيـل** بـأي شـكل مـن الأشـكال كـي أنعـم بالاسـتقرار ثانية.

عُدنـا، ولفـتَ انتباهنـا دبابـات الحكومـة العراقيـة التـي دمرتهـا قوات البيشـمركة في قريـة **كـوري**، بينـما انهـزم الجيـش وانسـحب إلى مصيـف **بيرمـام** واسـتقر هناك، كـما انتشرت على طـول الطريق الكثير من سـيارات المواطنـين المعطلـة والمركونة عـلى جانبي الطريـق تركها أصحابهـا بكل ما فيهـا مـن مـواد، وانتـشرت الجثـث عـلى الأرصفة أمام مشـفى الـولادة في مدينـة أربيـل، كانـت تبـدو عليها آثـار الطلقـات النارية.

انتـشرت الدبابـات والمدرعـات التابعـة للجيـش في الشـوارع وأعـداد كبـيرة من عنـاصر القوات العسـكرية والأمنيـة لتفتيش الناس على مسـافة كل بضعـة أمتـار، بـدا المنظـر حزينـاً وكأنـه كابـوس، خيـم عـلى المدينـة الصمـت، لا يُسـمع فيهـا صـوت لعصفـور حتـى، خِفـتُ كثـيراً مـن أن يقبضـوا علينـا وينهـوا حياتنا بأبشـع الأسـاليب، إلى أن وصلنـا إلى بيتنا في حـي مفتي بسـلام.

عند باب البيت، خرج أحد جيراننا مُرحباً بنا مهنئاً بعودتنا سالمين قائلاً:

ـ لم يبـقَ إلا أنـا في هذا الزقـاق والحال كذلك في الأزقـة الأخرى، حطّم الجيـش أبـواب معظم البيـوت ونهب ممتلكاتهـا، انتبهوا في الليـل كثيراً ولا تفتحـوا البـاب لأحد، فهنـاك الكثير ممـن يُضمر الشر.

أمضينـا عـدة أيام نعـاني الخـوف والقلق، كنـت أذهب يوميـاً إلى رأس الشـارع في الزقـاق حيـث نعيـش، أستكشـف الوضـع مـع مـن بقـي مـن أهـل الحـي ومـع الظهـيرة أعـود إلى البيـت ولا أخرج حتـى اليـوم التالي.

كان في الحي قصاب شاب، وضع في حديقة الزقاق كُلابَة حديدية تُستعمل لتعليق اللحوم والذبائح، فكان يذبح يومياً ما بين رأسين أو ثلاثة رؤوس من الأغنام ويبيع لحومها لساكني الحي، لم تذق عائلتنا اللحم منذ فترة طويلة، لذلك ذهبت إليه كي أشتري كيلو لحم، وعندما أخرجت الفلوس من جيبي كي أعطيه ثمن ما طلبته، وجدته يطلب أقل من ثمنه بكثير، لذلك سألته:

ـ متى انخفض سعر اللحم٪٪٪ أم أنك تريد مساعدتي؟!

ـ لا، المسألة ليست هكذا، مع تَركْ الأهالي للمدينة تبقى الكثير من الأغنام دون رعاية، ما جعلني أتلقاها وأذبحها وأبيع لحمها بثمن رخيص صدقة عن مالكها.

وخلال مدة قصيرة جمع هذا القصاب مبلغاً كبيراً من المال جراء بيع لحوم أغنام الناس، فأصابه الغرور ونسي أصله، ومع أنه كان متزوجاً وأب لطفلين إلا أنه اتخذ له زوجة ثانية وأقام احتفالاً كبيراً بهذه المناسبة في ذلك الوقت الحرج، لكن لم يمضِ بضعة أسابيع حتى انفصل عنها، وبذلك أنفق كل ما جمعه وما كان يمتلكه.

حين علمتُ بذلك حاولت التخفيف عنه، فقلت له مواسياً بأنني حزين لأنكما انفصلتما، لكنه قهقه وأجاب:

ـ ولا يهمك أبداً، قالت العرب قديماً (مال الهوى للهوى) أنت تعلم بأنني لم أتعب بجمع ذلك المال فقد حصلتُ عليه من بيع لحوم أغنام الآخرين.

بعد مدة بدأ الناس يعودون رويداً رويداً إلى مدينة أربيل، خصوصاً بعد انتشار أقاويل تؤكد بأن الحكومة قد تغيرت كثيراً وأنها فتحت أحضانها لجميع العائدين وأن الوضع سيستقر أكثر.

بقيت فترة من دون عمل، ثم وجدت أنه من الأفضل أن أفتح الدكان مرة أخرى وأبيع فيها حلويات الأطفال والمرطبات وبعض الفواكه لأجل تأمين معاش عائلتي.

كان الوضع سيئاً، فُقدت الثقة بين الحكومة والمواطنين، كل طرف ينظر إلى الآخر من منطلق الشك والريبة. فلم تستمر هذه الحال طويلاً وسحبت الحكومة مؤسساتها إلى ما بعد حدود **قوشتبة** مجبرةً. بهذا خرجت الحكومة من المدن الكردستانية الثلاثة باستثناء مدينة كركوك، فتحولت مدينة أربيل إلى مدينة للأشباح، لا كهرباء فيها ولا ماء. لقد اختفت جميع الخدمات الحكومية تماماً، يتجول الناس فيها تائهين، عاطلين عن العمل، نُهبت الدوائر الحكومية مرة أُخرى وتعرضت للخراب.

لكن هذا الوضع لم يستمر كثيراً بعد قرار أحزاب الجبهة الكردستانية إجراء الانتخابات البرلمانية وتشكيل حكومة كردية، كان الشعب الكردي تواقاً جداً للتحرر، لذلك سمحوا بصدرو الكثير من الصحف والمجلات والمنشورات وازدادت أعداد الأحزاب والمنظمات المدنية، كما توجهت بعض العوائل المعروفة إلى تأسيس حزب أو منظمة تحت عناوين وشعارات براقة، حتى أن البعض منها يتم إدارتها من قِبل أشخاص لا يتعدى عددهم أصابع اليد الواحدة، كان بينهم من رفع شعار كردستان الكبرى وبجميع أجزائها وقد توزّع عدد من مسؤولي أفواج الجحوش وآمروا المفارز على بعض هذه الأحزاب ليُظهروا استعلاءهم وغرورهم على الشريحة الفقيرة والكادحة كالسابق.

كنتُ جالساً في دكاني يوماً وزارني الأسطة أحمد، ألقى التحية، فدعوته إلى الجلوس واحتساء شراب بارد، سألته:

ـ أسطة أحمد كيف ترى الوضع؟

تنهّد قائلاً:

ـ من أين أبدأ وأين أُنهي؟

ـ لماذا؟ ولماذا هذه التنهيدة والحسرة.

ـ أنت تعلم بأنني كنتُ مقاولَ بناءٍ أُشيدُ المنازلَ والبنايات الكبيرة في زمن الحكومة المركزية وأني دون عمل منذ مدة، وقد بدأ وضعي الاقتصادي يتدهور يوماً بعد يوم، لدرجة أني بتُ عاجزاً عن تأمين مصروف أولادي.

ـ وإلى متى سننتظر، ألا تعرف أحداً قد يساعدك في إيجاد عمل ما؟

ـ بلى أعرف الكثير، بعضهم من الشخصيات المعروفة في المدينة، لكن الذين كنت أعرفهم وكانوا مسؤولين في الأجهزة والدوائر الحكومية، تركوا مدينة أربيل ويعملون الآن في الجهة الأُخرى من مدينة **آلتون كوبري** لدى الحكومة المركزية، استرسل الأسطة أحمد في حديثه قائلاً:

أحد الذين عرفتهم سابقاً، رجل عربي الجنسية كان مسؤول الاستخبارت العسكرية في أربيل يقطن كركوك الآن ويشغل منصب مسؤول الاستخبارات في شمال العراق، خلال الأيام الماضية زرته وشرحت له وضعي على أمل أن يساعدني. كان رده:

ـ ماذا تريدني أن أفعل لك؟

ـ أود أن تساعدني في إيجاد عمل أُدبر به حياة أُسرتي.

ـ حسناً، هل يُمكنك أن تجمع رفاقك القدامى ممن كنتَ تعمل معهم في مجال النضال السياسي لتؤسس حزباً معهم؟

استغربتُ كثيراً مما قاله الأسطة أحمد وسألته:

ـ مـاذا تقـول، ألم تعمـل في حـزب معـارض للحكومـة فيـما سـبق؟ ألم تكـن أحـد أعضـاء حـزب يسـاري، أيجـوز هذا الـشيء؟!

أَخرج الأسـطة أحمد سـيكارة وأشـعلها، بدأ يدخن وقد سـحب نفسـاً عميقـاً وقال:

ـ هـذا بالضبـط مـا أراده، أن أؤسـس حـزب ممـن تركـوا العمـل في السياسـة بعـد انهيـار الثـورة الكرديـة، ويكـون مقر هـذا الحـزب في أربيل عـلى أن يوفـروا الدعـم المـادي لنـا.

ـ لنفرض أنكم أسستم هذا الحزب، ماذا سيستفيد هم؟

ـ «ضاحكاً» كان يأمل أن نساعدهم في تنفيذ أجندتهم مقابل ذلك.

ـ لنفترض أنكم أسستم هذا الحزب ماذا سيستفيدون هم؟

أجاب الأسطة ضاحكاً:

ـ كان قصده أن ننفذ أجندتهم مقابل هذه المساعدة.

ـ أيُعقل ذلك يا أسطة أحمد؟!

ـ سـأدعوك للإجابـة عـلى هـذا السـؤال، فأنـت تعرفنـي منذ سـنوات طويلـة هـل تعتقـد بـأن أخلاقـي تسـمح بذلك؟

ـ لأني لا أشك في أخلاقكَ سألتك.

ما تقوله لا يستوعبه عقلي.

ـ وأنا مثلك لم أستوعب، لذلك سألته:

كيـف يُمكنكـم مسـاعدتنا وقـد سـحبتم جميـع مؤسسـاتكم مـن إقليم كردستان؟

حينها أجابني وهو يضحك:

حقاً...؟! كيف تعتقد أننا قد نسحب يدنا من كوردستان في حين أننا نعتبرها جزء من العراق، وسنحافظ عليها كما نحافظ على عيوننا؟.

إذن لِمَ سحبتم مؤسساتكم منها؟.

حين سألته، وضع مسؤول المخابرات يدهُ على كتفي وقال:

أنت رجلٌ عاقل، كنتُ أعلم أنك ستسألني هذا السؤال، إنها مسألة معقدة فكما تعلم أمريكا والصهاينة تدخلوا في شؤون العراق بمساعدة بعض دول الخليج التي تزودهم بمعلومات استخبارتية، لذلك رأينا أنه من الأفضل في هذه المرحلة أن نتعامل بطريقة خاصة مع هذه المنطقة إلى أن تفشل خطط الأعداء وعندها سنعود مرة أخرى ونحن بكامل قوتنا.

قطعتُ حديث الأسطة أحمد وسألته:

ـ أخبرني ما هي هذه الأجندة التي يعملون على تحقيقها من خلال تأسيسهم لهذا الحزب؟

ـ باختصار يريدون تأسيس حزب شكلي أُكلفُ بإدارته وكأنه دكان العطار أُنفذ تعليماتهم فقط. ولأني مناضل قديم كما تعلم وقد سُجنت مرات عدة بسبب ميولي اليسارية وتعرضتُ للتعذيب بسببها، صحيح أني تركتُ السياسة بعد فشل الثورة الكردية لكني لم أخضع لأحد أو أتخلى عن مبادئي يوماً. اشتغلت في المقاولات وتمكنتُ من كسب رزقي وإعالة أُسرتي، لكني الآن عاطل عن العمل رغم أنه لدينا حكومة وبرلمان، لكن شيئاً لم يتغير، لذلك لن أشوه تاريخي النضالي من أجل الحصول على المال لذلك رفضت طلبه.

في هـذه الجلسـة دخّـن الأسـطة أحمد علبـة سـجائر كاملة لشـدة ما كان به مـن حـسرة وحزن ثـمّ ودّعنـي وغادر.

أخذني حديث الأسـطة أحمـد إلى بحر عميق من الخيـال وحَدّثتُ نفسي:

(لمـاذا علينـا أن نكـون أمة تعيسـة الحظ، وأن نكـون ورقة بيـد أعدائنا، البارحـة كانـت الحكومـة تجمـع الخونـة في أفـواج الجحـوش واليـوم تفتح لهـم محلات عطـارة تحت تسـمية الأحـزاب).

موطنـي مـليء بأحـداث غريبـة وعجيبة، لـكل الأوطان رايـة، لكن هنا لـكل واحـد رايـة، ولـو أن للأوطـان قائـداً، هنـا لـكل واحـد يعتقـد أنه هـو القائـد. لذا تأسسـت أحـزاب جديـدة في مدة قصـيرة، فكانـت أعداد الأحـزاب تـزداد يوماً بعـد يوم.

والأغـرب مـن ذلـك أن كل حـزب مـن هـذه الأحـزاب، يصنـع لـه تاريخـاً طويـلاً مـن النضـال. فكانـت أربعـة أحزاب تحتفـل في اليوم نفسـه بمناسـبة الذكـرى السادسـة والخمسـين لتأسيسـها.

درجَ مؤخـراً اجتـماع عـدد مـن الأفـراد لتأسـيس حـزب أو منظمـة، وأردتُ أن أكـوِّن منظمـة أسـوة بهـا. بـدأتُ أولاً في جمـع أسـماء الأحزاب والمنظـمات الحاصلـة المُرخصـة رسـمياً كـي أعـرف ما هـو المجـال الذي لم يشـتغل فيـه أحـد فاشـتغل عليه.

ثِقـوا بـأني اجتهدتُ كثـيراً، بيْدَ أني لم أجد مجالاً يمكـن العمل فيه، حتى أن المهنيـين والعاطلـين والنسـاء والرجـال والأقـزام وأصحـاب العاهات كانـت لهـم منظماتهم. ولا تسـأل عن الأحـزاب الموجودة فكانـوا من أقصى اليمـين إلى أقـصى اليسـار. فكـرتُ مطولاً حتـى جاءتني فكـرة لم تخطر ببال في يـوم مـن الأيـام. مع أن جميـع الأحـزاب والمنظـمات قد تأسسـت بغطاء إنسـاني إلا أن المنظمـة التي خطـرت ببالي، لم تكن لا اجتماعية ولا إنسـانية.

كثيراً ما سمعتُ من وسائل الإعلام الغربية كما قرأت في مجلاتهم بأن الدول الديمقراطية المتقدمة قد فكرت في حقوق الحيوانات أيضاً وأسست منظمات لذلك، حتى أن الفنانة العالمية الشهيرة بريجيت باردو قد خصصت ما تبقى من حياتها في خدمة الحيوانات والاهتمام بهم، وصرفت الثروة الطائلة التي كانت قد جمعتها من الغناء في الملاهي لتربية الحيوانات والمحافظة عليهم من الانقراض.

هرعتُ إلى ديوان المحافظة. وفي الطريق تزاحمت عشرات الأفكار في رأسي، فكنتُ أفكر:

(لو أسستُ هذه المنظمة من أجل الاهتمام بالحيوانات سأتمكن من إنقاذ كافة الحيوانات البرية في بلادي من الانقراض فلا تختبيء الخنازير والدببة في الكهوف هرباً من الصيادين، ولا يعانون من أجل الطعام، سأنقلهم إلى حديقة الحيوانات ليعيشوا فيها بسلام ودون خوف)

على أية حال، وصلتُ إلى مسؤول المنظمات اللاحكومية في ديوان المحافظة وقدمت له العريضة طلبتُ فيها منحي إجازة تأسيس منظمة باسم (منظمة الرفق بالحيوان).

سرح مسؤول المنظمات وهو يُدقق في العريضة ولم يتكلم، ثم سحب نفساً عميقاً من سيجارته ونظر إليّ.

«فقلتُ في نفسي ربما أعجبته الفكرة لذلك هو صامت».

بعد قليل وضع العريضة جانباً والتفت يُخاطبني:

ـ ماذا تريد أن تفعل؟ هل للإنسان حقوق في بلادنا كي تكون للحيوانات حقوق؟

ـ تهتم الدول المتقدمة بالحيوانات وفيها منظمات عديدة تتولى مسؤولية الحفاظ عليها.

ـ فكـر في ذلـك حينما يتمتع الإنسـان لدينـا بكافة حقوقه كـما هو لديهم، وليس كما هو الآن مسـلوب أبسـط حقوقه.

فكـرتُ قليـلاً وقد اقتنعـتُ بكلامـه، سـحبتُ العريضة وعدتُ يائسـاً إلى البيـت. انشـغلت بحديـث هـذا المسـؤول حتى المسـاء، من جهـة كنتُ أقـول (كيـف يمكـن السـماح بوجود العـشرات مـن الأحـزاب والمنظمات المختلفـة، ولا توجـد منظمـة واحـدة للدفـاع عـن حقـوق الحيـوان) ومن جهـة أخـرى أقـول (المسـؤول محق، مـاذا اسـتفدنا من عـشرات الأحزاب والمنظـمات الموجـودة لنفكـر في تأسـيس منظمـة للحيوانات؟!).

26

من صاحب دكان إلى دكان آخر !!

كان لـدي صديـق يعمـل أسـتاذاً في الجامعـة، كان سياسـياً قديـماً ومن البيشـمركة القدمـاء، وبـدلاً من الانشـغال بعمله الأكاديمي كان منشـغلاً بتأسـيس حـزب.٪ كنـت أزوره في بيته في المسـاء وكنّا نتكلـم عن الأوضاع ونحلل الأحداث السياسـية، ومسـألة اسـتقلال كردسـتان وتحرير الكورد بشـكل خاص.

كانـت تربطنـا نقطـة مشـتركة وهـي حـب الوطـن والحلـم باسـتقلال كردسـتان، كنـا نتكلـم كثيراً عن التحـرر بيد أنّـا لم نكن نعرف مـاذا نفعل ليتحقـق حلمنا.

لطالمـا تسـاءلت (يبـدو أن الأسـتاذ ينـوي أن يؤسـس حزبـاً سياسـياً يحقـق مـن خلالـه أحلامـه وإلا لِمَ ينشـغل بهـذا الموضـوع بدل أن ينشـغل بمحاضراتـه وطلابـه؟!!)

ولم يكتـفِ الأسـتاذ بهـذا وإنـما كان يحتكـر شاشـات معظـم القنـوات التلفزيونيـة وكان دائـم التحـدث عـن الاسـتقلال والإمـارات الكرديـة مردداً:

(للكـورد منـذ القـدم عدد مـن الإمارات المسـتقلة، فما المانـع أن يكون لهـم دولـة مسـتقلة؟.٪ ويذكر الفاتيـكان مثالاً وهـو يقول:(تعادل مسـاحة

الفاتيكان مساحة مدينة شقلاوة وعدد السكان فيها لا يتجاوز ألف شخص، بيد أنها دولة مستقلة).

حينما كان الأستاذ يذكر لنا تلك الأمثلة، كنّا نتفاءل كثيراً، ونرغب في خلع أحزمتنا لنصنع منها راية نعلن بها استقلال كوردستان.

في صباح أحد الأيام كنت قد فتحتُ الدكان لتوي، وبينما أنا منشغل بتنظيم الأغراض فيه، رَنَ جرس الهاتف، كان المتصل صديقي الأستاذ وقال:

ـ وافني إلى مقر حزبي حالاً، القريب من دار البرلمان على الشارع الستيني.

ـ ماذا تريد؟

ـ ستعرف حينما تأتي.

كان لديّ فضول في معرفة ما يُريده، حاولت كثيراً أن أجعله يخبرني، لكن دون جدوى. كان مصراً على تكتمه قائلاً:

ـ حين تصل ستعلم كل شيء.

ـ ما اسم الحزب؟

ـ حزب ولاية الموصل.

أغلقتُ الدكان وأوقفت سيارة تاكسي وسألته:

ـ أريد الذهاب إلى مقر حزب ولاية الموصل.

كان السائق شاباً أخبرني وهو مندهش:

ـ سمعت باسمه في نصوص معاهدة **سيفر ولوزان**، لكني لم أسمع بوجود حزب في كوردستان بهذا الاسم.

ـ اتجه إلى مقر المجلس التشريعي الكائن في الشارع الستيني، وسأجد المكان بنفسي.

حين وصلت إلى هناك نزلت من سيارة التاكسي، بدأت أسأل، من مكان إلى آخر، تفقدتُ أغلبية المقرات لكني لم أجد لافتة أو حتى دلالة تُشير إلى وجود الحزب، وأي شخص اسأله عن هذا الحزب، كان يجيبني (لم أسمع بهذا الحزب من قبل)!!

بعد ساعة من البحث والاستقصاء، أشار شاب بيديه إلى منزل كبير وقال:

كثيرون يتوجهون عند الصباح والظهيرة والأمسيات إلى ذاك المنزل، يبدو أنه مطعم أو منظمة خيرية. أنا أيضاً أكلتُ هناك مرةً، ولا أعلم لِمَ لم يطالبني أحد بالمال حين خرجتُ؟

إن زرت ذلك المكان ستجد أناساً كُثر قد يفيدونك في سؤالك.

أخذت بكلام هذا الشاب وذهبت إلى هناك، فوجدت العشرات من الكبار والشباب جالسين في قاعة الضيافة ويتناولون قشطة قيمر واللبن مع الصمون والشاي، حييتُهُم فردوا التحية وهم منشغلون بتناول فطورهم، سألتهم:

ـ أبحثُ عن حزب ولاية الموصل، هل تعلمون أين يقع؟

ـ أنت في مقر حزب ولاية الموصل.

اعتقدتُ أنهم يمازحوني، لأن المكان كان أشبه بمطعم خيري أو تكية وخان وليس مقر حزب.

لذلك كررت السؤال:

أقصد حزب ولاية الموصل هل تفهمونني؟

شاب بين الحضور قال:

ـ لا تخجل يا خال إن كنت لم تفطر بعد، اسحب صينية وضعها أمامك وتناول الفطور معنا.

أصابني الشك، فكرت (المطعم ليس هكذا، أترى هذه دار عجزة ؟! أو ربما مؤسسة رعاية اجتماعية؟ لِمَ لا؟ ألم أكن أنوي تأسيس منظمة للرفق بالحيوان، يبدو أن صاحب هذا الديوان قد فكر بالرفق بالمساكين وفتح هذا المطعم المجاني لإشباع الجائعين!!)

شاورت عقلي مرة أخرى للتأكد فضّلتُ تكرار السؤال نفسه، التفتُ إلى الشاب وسألته:

ـ لم أفهم ماذا كان جوابك؟

ـ هنا مقر حزب ولاية الموصل.

ـ أتيتُ لرؤية الأستاذ شوكت.

ـ سر نحو غرفة المقهى ومن هناك اصعد الدرج ستجد من يرشدك عليه.

عندما صعدت إلى الطابق العلوي، وجدت أمامي رجل وبيده منشفة وليفة وقد دخل الحمام، لم أعرفه من قبل، حدثتُ نفسي (ما علاقة الحزب بتوفير الحمامات والمطاعم للعامة، أيُعقل أن يكون هذا مقر حزب؟!)

وبينما أنا أتامل الوضع، وجدت صديقي وبيده كوب من الشاي واقف أمامي وبادرني قائلاً:

ـ انتظرتك طويلاً، لِمَ تأخرت؟

ـ أبحث منذ ساعة، لا أحد يعرف مكان مقركم.

ـ لكن كثيرين يحضرون إلينا ليلاً ونهاراً.

ـ هل هذا مقر حزب أم مطعم؟!

أجابني ضاحكاً:

ـ الاثنان.

أمسك بيدي ورافقني إلى غرفته.

همستُ في أذنه:

ـ مَنْ هذا الرجل الذي يُمسك بمنشفة ويقف أمام باب الحمام؟

ـ ألا تعرفه؟

ـ لا، هذه أول مرة أراه فيها.

ـ إنه نائب رئيس الحزب.

ـ لِمَ يستحمّ هنا، أليس لديه حماماً في بيته؟

ـ إنه بيته، وفي الوقت ذاته مقر حزبنا أيضاً، أو لنقل هو دار الضيافة.

لم أستوعب ما قاله تماماً، فقلتُ في نفسي (كلما عاش الانسان كلما رأى العجائب) على أية حال، دخلتُ معه إلى الغرفة، رحب بي بحرارة وتحدث مع أحدهم بسماعة الهاتف دون أن يذكر اسمه، قال له: لدينا ضيف عزيز، تعال وأحضر له معك كوباً من الشاي.

تكهنت: (يبدو أن هذا الرجل عامل في المقر) بعد قليل دخل إلى الغرفة رجل أشقر، نحيل وطويل القامة وبيده كوب من الشاي وقال:

ـ أين أضع الشاي يا أستاذ؟

أشار بيده إلي:

ـ ضع الشاي أمام الاستاذ واذهب إلى مسؤول منظمة الطلبة والشباب وأعلمه بالحضور إلى هنا ولتحضر أنت أيضاً معه.

ـ حاضر يا أستاذ. وخرج.

بعد قليل عاد إلى الغرفة مع رجل أصلع، عريض المنكبين طويل القامة.

حينما كنت انظر إلى هيئة وقوام وملابس الرجلين، كنت أشك بأن يكونا عاملين هنا، لكن وبحسب إحضار الشاي والماء واستعدادهما لتقديم الخدمة داخل غرفة الضيوف، يبدو بأنهما عاملان بسيطان.

على أية حال، التفت صديقي نحوي وقال:

دعني أُعرفك بداية على الأستاذين أولاً:

ـ مسؤول فرع العاصمة ومسؤول تنظيمات الطلبة والشباب، وهما أعضاء في قيادة الحزب.

بعدها توجه بالحديث لهما:

ـ وهذا الاستاذ(وكان يقصدني) من البيشمركة القدماء وبقرار من الآغا صدر بالأمس، أصبح عضواً في قيادة الحزب وسيعمل معنا من الآن فصاعداً.

فما كان منهما إلا أنهما نظرا إلى بعضهما وتوجها نحوي مُتمتمين:

ـ نبارك لك.

كان الخبر مُفاجئاً لي، لم يكن لديّ علم مسبق به، لذا همستُ في أذن صديقي وقلتُ:

ـ أتُدرك ما الذي تقوله؟

ـ لم أُخبرك لأني أردتُ أن أُفاجئك.

ـ وما هو عملك هنا؟

ـ أنا سكرتير الحزب.

ـ تناضلون من أجل ماذا؟

أشار إلى لوحة معلقة على الجدار خلفه:

ـ شعار حزبنا هو تأمين المعيشة والزواج بسهولة إضافة إلى المطالبة باستقلال الأجزاء الأربعة لكوردستان.

قبل أن ينهي حديثه، وصل خبر من الطابق الأول يؤكدون فيه بأن وجبة الظهيرة جاهزة، ـ تعالوا لتناول الغداء قبل أن يبرد الطعام ـ قطع صديقي حديثه وقال:

لنذهب ونتغدى وإلا لن يبقى لنا شيء، سنكمل حديثنا فيما بعد.

ذهبنا إلى غرفة الضيافة، كانت مليئة بالمقاعد والموائد وكأنها مطعم، وفي غمضة عين لم يبق مكان فارغ لأحد، لا أدري كيف ظهرت كل هذه الأعداد من الناس، جلسوا وشمروا عن سواعدهم، كانت أصوات مضغهم للطعام تصل خارجاً وكأنهم دود نظفوا المائدة في غمضة عين.

أثار انتباهي عجوز سمين يشبه القُلة، بطنه قد وصل إلى بلعومه من كثرة الأكل، كان يسحب شيش اللحم ويُدخله إلى فمه فلا يُبقي منه شيئاً.

همستُ في أذن صديقي وسألته:

ـ من هذا العجوز؟

ـ إنه مناضل قديم ونائب أول لرئيس حزبنا وآغا منطقة كويسنجق لديه أراضٍ كثيرة وحوض لتربية الأسماك. وحوض آخر كان قد ملأ به

بطنه فأصبح مثل كرة القدم، لذا لم يكن بإمكانه الجلوس على الكرسي فتربع على الأرض ووضع في حضنه صينية مليئة بالكباب واللحم المشوي، من كثرة ما أكله كاد أن يستفرغ.

ـ ومن هذا الرجل؟

ـ إنه المسؤول الإداري لحزبنا.

لفت نظري أفندي كان يدور حول الموائد ويتذوق من الأكلات.

ـ ومن هذا الأفندي؟

ـ إنه مستشار حزبنا.

قبل أن أرفع يديّ عن الأكل، دخل طفلان أسمران مدورا الرأس حفاةً، جلسا إلى المائدة وباشرا بالأكل.

ـ وهذان من يكونان؟

ـ هذان بدون أهل، نائب رئيس الحزب كفلهما ويرعاهما في سبيل الله.

انتهينا من الأكل فاحضروا بعض الرقي والبطيخ وقشّروه، فتناولناه كما فعلنا بالكباب واللحم واحتسينا بعد ذلك الشاي. التفتُ إلى صديقي وقلت:

ـ والآن ماذا علينا أن نفعل؟

ـ لا تفعل شيئاً، استمر في إدارة الدكان، وزُرنا بين بين لنأكل معا ونشرب الشاي، وإن كانت لديك ملحوظة أو رأي أخبرنا بها.

ـ ألن تُلام إن لم أتواجد هنا يومياً ؟

ـ لا حاجة لذلك، نحن على عكس الأحزاب الأخرى، بدلاً من استدعاء الجماهير، ننزل نحن إليهم لأننا لا نريد اتعابهم، وانت كلما

رأيت أناساً وأنت في دكانك وعاملتهم بالحُسنى كلما كان ذلك مفيداً لنا، فهؤلاء جمهورنا.

ـ حسناً، بمَن يكون ارتباطي؟

ـ أنت مرتبط بي مباشرة، يُفضل أن تحضر لتناول الوجبات الثلاث هنا، نأكل ونتحدث معاً.

ـ حسناً، بالاضافة إلى تناول الطعام ماذا سأفعل أيضاً؟

ـ حتى الآن لا شيء، حينما نحصل على استقلال كوردستان ونفتح مقرات في جميع المدن، آنذاك سيكون لدينا عمل كثير، لكن الآن يمكنك أن تستمر في عملك وتزورنا بداية كل شهر لتقبض راتبك ومقداره ألف دينار.

لم أستوعب كل ما قاله، لكني خجلتُ من الإكثار من الأسئلة مرة واحدة لذلك قررتُ لزوم الصمت، وتأجيل تلك الأسئلة للأيام المقبلة.

كانت دار ضيافة حقيقية. كُنت أمارس عملي في الدكان منذ الصباح إلى الظهر، وفي المساء أذهب إلى دار الضيافة وأبقى إلى وقت متأخر من الليل نتحدث ونمزح معاً ونلعب الطاولة.

وكان الشباب منشغلين بالعزف والغناء وآخرون في الحديقة يلعبون الكاراتية والكونغ فو. وكان رئيس الحزب يزور المقر مرة كلّ أربعة أشهر. يتحدث عن ولاية الموصل ويوزع الأموال علينا، أما نائب الرئيس فكان ينام في المقر ويستحم ثلاث مرات في اليوم الواحد. كان لدينا قناة تلفزيون وكأنه برنامج ما يطلبه المشاهدون، فكان يغير برنامجه كل دقيقة حسب رغباتنا، لم يكن المدير يجرح إحساس أحد منّا، فكان في منتصف الليل يبث أغاني (أم كلثوم وطاهر توفيق وعلي

مـردان) للعجائـز، بينـما يبـث أغـاني (نـاصر رزازي وحسـن زيـرك وحمه جـزا) إضافـة إلى أغـاني أجنبيـة وعربيـة أخرى للشـباب.

كان مذيـع أخبـار السـاعة الحاديـة عـشر ليـلاً يرغـب بسـماع أغـاني أم كلثـوم، لـذا كان المديـر يضـع أغـاني أم كلثـوم إلى الثانيـة عـشر ليـلاً، ثـم يضـع فيلـماً هنديـاً ليختـم بـه البـث لبرنامـج ذلـك اليوم.

كانـت تلـك القناة بالنسـبة لنـا كل شيء، بفضلها جمعنا جمهـوراً غفيراً، ومـن يُضيـع إبـرة يتصـل بنـا لنعلـن لـه عنهـا وكأننـا ننـادي في الجوامـع، وكان أصحـاب الدكاكـين والتجـار ينـشرون إعلاناتهـم مجاناً.

ومجلـس رئاسـة حزبنـا كان خليطـاً عجيبـاً، من المُـلا إلى المُلحـد، ومن أقـصي اليسـار إلى أقصى اليمـين، من الخونـة الذين باعوا الوطن والشـعب إلى الوطنيـين الشرفاء.

كان مـن بـين هـؤلاء رئيس جحـوش قديـم، كان عندمـا كان إلى المقر، يضـع سـيجارة بين شـفتيه فكانـت تلتصـق بهـا ولا يخرجهـا إلى أن تنطفئ لوحدهـا. وبين فترة وأخرى يسـحب نفسـاً عميقـاً ثم ينفثهـا، كان يلتفت إلى ويقول:

زمـان كان تحـت أمرتي مئتـي محارب، والآن صرتُ أنـا تابعاً للآخرين. كان يُشـير إلى مصيف بيرمام ويقول:

ـ أتـرى **سري رش**...؟ كان أخـوك ـ في إشـارة لـه ـ يمتلـك فيـه فندق خمـس نجـوم، كان كل شيء متوفـر فيه، في الصيف يحضر السـياح العرب، ينزلون إلى أحواض السـباحة والفاتنات الرشـيقات يسبحنَ في الماء وكأنهن الأسـماك تتحـرك وتسـبح برشـاقة، وكان أخـوك يجلـس قبالتهـم، فكأني كنـت في الجنة تحيطنـي الحوريات من كل اتجـاه. حدث مـرة في الثمانينيات، اتصـل بي أبـو عـلاء وكان مديـر أمـن الشـمال أنـذاك وقـال لي رشّـح نفسـك لانتخابـات المجلـس التشريعـي ضمـن دائـرة منطقة كويسـنجق.

قاطعته سائلاً:

ـ وهل كانت الترشيحات بيد هؤلاء يا أخ أحمد؟

ـ بالطبع يا عزيزي، إن لم يُرد هؤلاء ما كان بإمكان أحد أن يُرشح نفسه. وإن طلبوا من أحد ترشيح نفسه عند ذاك يدعمونه ويضمنون فوزه.

قاطعته مرة أخرى:

ـ لكن لم يكن الكل بعثيين ولا ارتباطات لهم مع النظام لينفذوا مطالبهم.

ـ لم يكن لهؤلاء علاقة بتصويت الناس ولمن سيمنحون أصواتهم، بعد انتهاء الانتخابات يغير هؤلاء النتائج كما يريدون، والذي يريدون له الفوز يجعلونه يفوز، ومن يرفضونه يحرقون الأصوات التي حصل عليها.

ـ إذا ففوزك أكيد، طالما أنهم طلبوا منك الترشح أليس كذلك؟

ـ ضاحكاً أجاب:

ـ وهذا ما اعتقدته أنا أيضاً، فرحتُ جداً عندما طلبوا مني ترشيح نفسي، لكنهم غدروا بي ومنحوا ما حصلته من أصوات لغيري.

ـ كيف ذلك؟

ـ بعد انتهاء الانتخابات قاموا بفرز الأصوات، كان مدير الأمن الشمالي معي على الخط يتصل بي بين الحين والآخر، يُبشرني أني في المقدمة في أغلب مراكز الانتخابات، حتى أنه اتصل في الساعة الثانية عشرة ليلاً وطمأنني بأني سأكون الفائز، وقال: غداً تذبح لنا خروفاً وسنكون ضيوفاً لديك.

استمر الأخ أحمد في حديثه قائلاً:

لكـن بعـد مدة قصـيرة، اتصـل بي ثانية: انسـى الخبر الـذي نقلته إليك ونبّـه زوجتـك وأولادك ألا يذكروا شـيئاً لأحـد، يجب أن تعلـم أننا منحنا مـا حصلـت عليـه من أصـوات لآخـر، ولـو علمنا أنـك بُحتَ بهـذا السر لقطعنا لسـانك وسـحبناه من بلعومك.

سألته وبماذا أجبته:

ــ لم يترك لي مجالاً للرد، لقد أغلق الهاتف مباشرة في وجهي.

وكان الآخـر آغـا قريـة سـهل **طقطـق**، يمتلـك الكثير مـن الأراضي في قريتهـم، لكـن انقلـب عليـه سـكان القريـة بعـد الانتفاضـة بسـبب سـوء معاملتـه لهم. فقطعـوا أنفه وطردوه من القرية. فكان يتحسّر بشـدة ويقول:

لـو أن الله شـاء للحكومـة أن تعـود سـألقنهم درسـاً لـن ينسـوه أبـداً.

والنائـب الأول لرئيـس الحزب كان قائـداً للجيش في جمهوريـة مهاباد، كبـيراً في السـن لديـه تاريـخ نزيه في النضـال، يـأتي يومياً إلى المقـر ويتناول الوجبـات الثـلاث وهـو يتحـدث عـن تاريخـه النضـالي الطويـل، في أحد الأيام سـألته:

ـ نعلـم أن لكـم مشـاركة مشرفة في ثورتين وأنكم أصحـاب خبرة، لِمَ لا تكتبـون مذكراتكـم. إنه ليحزنني أن يُنـدس تاريخكم في التراب.

هَزَ رأسهُ وقال بضحكة باهتة:

ـ أتكلـم عـن مـاذا ومـاذا... ؟ لو ذكـرتُ الحقيقـة سـتتحطم معنويات الشـباب، ويفقـدون الثقة بـكل شيء،

ـ كيف؟

ـ عليـك أن تعـي جيداً بأن ليـس كل ما حققناهُ يعكـس الصورة المشرقة ويدعـو للاعتـزاز أوالتباهـي، لدينا الكثير مـن العيـوب والنواقص ونقاط

الضعف، لذلك من الصعوبة قول الحقيقة كما جرت في الواقع. ألا يقول الله سبحانه وتعالى(وأكثرهم للحق كارهون) إذن أغلب الناس يكرهون الحق.

في إحدى المرات حاولتُ جاهداً أن أجعله يقص عليّ بعض تلك الذكريات التي تزعجه ولا يستطيع التحدث عنها.

ـ حسناً، سأرويها لك لكن إياك أن تخبر أحداً بها، وليبقَ الأمر بيننا.

عاهدته على ذلك، وبدأ يروي لي بعض الذكريات المُرة عن أيام نضاله في الجبل ثم سألني:

والآن ماذا تقول...، لو كُنتَ مكاني هل يُمكنكَ توثيق ما حدث وتدوينه؟!

ـ لك كل الحق، وقد صدق أجدادنا حينما قالوا(كلمة الحق مُرة لا يستسيغها الجميع).

في الذكرى السنوية لتأسيس الحزب وفي مرسوم جماهيري، رُفع علم كردستان فوق مقرنا بحضور جمهور غفير وشخصيات شهيرة وأصحاب النفوذ.

من تلك الشخصيات التي تم دعوتها كان مسؤول مخابرات الحكومة الإيرانية في كردستان ورئيس أحد الأحزاب المُعارضة للنظام الإيراني. والأعجب أنهما جلسا يُحيطان برئيس الحزب، أحدهما على الجهة اليمنى منه والآخر على الجهة اليسرى. وقد التفت رئيس الحزب إلى مسؤول المخابرات الايرانية وقال له: لأعرفكما على بعضكما أنت والصديق الجالس إلى جانبي. فالتفت ممتعضاً وقال سمعتُ باسمه.

استمرت الاحتفالات إلى ما بعد وقت الظهيرة، ثم بدأ الضيوف بالمغادرة باستثناء بعض مؤيدي وأصدقاء وكوادر الحزب.

26

حلمٌ كبير ... خيال نحو الأعالي

كان الدكتـور فريـاد اختصاصيـاً في مجـال الأمـراض الباطنيـة وصهـر أحـد متـصرفي مدينة أربيـل في عهد حكـم عبـد الكريم قاسـم، بقي ذلك اليـوم في مقـر الحزب حتـى وقت متأخر من الليل واضعاً سـاق على سـاق يتحـدث عـن حـق تقرير المصـير واسـتقلال كردسـتان بتفاؤل كبـير، كان يقـول: خاننـا الإنكليز نحـن الأكـراد وأصـدروا معاهدة (لـوزان) ضدنا، تراجعـوا عـن وعودهم التـي قطعوها لنـا في معاهدة (سـيفر) لكنهم الآن نادمـون ويؤنبهـم ضميرهـم لـذا يؤيدوننـا في تأسـيس الدولـة الكرديـة. حتـى وإن لم تقبـل الـدول أصحاب النفـوذ والجيران فإنهم سـيرفعون علم كوردسـتان عـلى جزيرة مـن جزرهـم ويطلقون عليها اسـم كردسـتان.

كان رئيس الحزب سعيد بحديث الطبيب كثيراً فخاطبه:

ـ إن كان الأمـر كذلك سأشـتري جزيـرة هناك وآخذكم معـي لتتحقيق أحلامكم.

ـ اذا اشـتريتَ جزيـرة ستسـهل لهم عملهم ولن نحتـاج لأي شيء آخر، بدايـة نؤسـس هناك دولـة مثـل الفاتيـكان، والله كريم سـينصرنا من أجل كردسـتان الكبرى.

أخـذ رئيـس الحـزب حديـث الطبيـب عـلى محمـل الجـد، فالتفـت إلى سـكرتير الحـزب وقـال: سـأتصل بحـزب العـمال البريطـاني، سـنزورهم لأجـل هـذا بالذات وسـنأخذ معنـا الدكتور فريـاد طالما لديـه معلومات في هـذا المجـال كـي نعمل عـلى تأسـيس الدولـة الكرديـة هناك.

حـين سـمع الدكتـور هـذا الـكلام كاد يطير مـن السـعادة، مَـدَ يده إلى جيبـه وأخـرج جـواز سـفره وسـلمه إيـاه قائـلاً: هذا جـواز سـفري، يوم تقـررون. أنـا مسـتعد أن أُضحـي بـكل مـا لديّ مـن أجل كردسـتان.

وهكـذا لم يمـض سـوى عـدة أيـام، ووجـه حـزب العـمال البريطـاني دعـوة إلى حزبنـا وقـد كان الوفـد لهذه الرحلـة مكون من رئيس وسـكرتير وطبيـب الحزب.

مضى على سفرهم شهر كامل، لم نسمع عنهم أي خبر.

حـين عـادوا إلى كردسـتان لم يـزوروا المقـر إلا بعـد أيـام، بينـما كنّـا ننتظرهـم ونحن في شـوق كبير لنعلـم ما حدث بخصوص تأسـيس الدولة الكورديـة وننتظـر منهـم خـبراً مفرحـاً في هـذا الخصـوص، كنّـا نتـداول الموضـوع بيننـا يوميـاً ونظـن أنهم لا بـدّ أن يكونوا قـد أنجزوا عمـلاً كثيراً مـن أجـل تحقيقـه، لذلـك قـد يكونـوا متعبـين كثـيراً ويحتاجون إلى قسـط مـن الراحة.

أخـيراً حـضروا إلى المقـر وطالبـوا بعقد اجتـماع سريع من أجل تسـليط الضـوء على نشـاطات وفد الحزب خـارج البلاد، في الاجتـماع وجه رئيس الحـزب عتاباً شـديد اللهجة إلى السـكرتير العـام للحزب وقال:

ـ لقـد خُدعنـا بشـهادته، إنـه يعتز بنفسـه كثـيراً بيـد أن جعبتـه خالية، لغتـه الإنكليزيـة ركيكـة ويعتقـد أنه أفلاطـون ونحن جهلاء. بسـبب عدم التخطيـط خسّرنـا مبالغ كبيرة دون أن نحقق أي شيء، حتى أن السـكرتير

العام لحزب العمال لم يستقبلنا بنفسه ولم يجالسنا إلا مسؤول استعلاماتهم وكل ما كان يفعله هزّ رأسه فقط، لم يفهم علينا شيئاً لذلك لم يتعاون معنا .

ردّ سكرتير الحزب غاضباً:

ـ هل ما حصل انعدام تخطيط مني أم منكَ؟ غريب فعلاً تظن أنك تقطن في الريف هنا، بينما كان أهل لندن منتشرين في الشوارع يتبادلون التهاني بمناسبة عيد رأس السنة الميلادية وأنت ترتدي سروالاً أبيض من الخام وتعزل نفسك في الفندق لتلعب لعبة نابليون، ولم تسمح لنا أيضاً بالخروج ومُخالطة الناس.

ثمّ التفتَ إلينا وقال:

فيما يخص زيارتنا إلى حزب العمال البريطاني، هو من لم يفسح لي المجال كي أتحدث، حتى أنه لم يكن يميز بين حزبي العمال والمحافظين، كان قد نسي بأننا موجودين في مقر حزب العمال، فيسأل عن رئيس حزب المحافظين ويقول: أنا أحب (جون ميجر) وأرغب بلقائه، لذلك أنهى مسؤول الاستعلامات زيارتنا بالقول: لا شأن لي بهذ بإمكانكم رؤيته بطريقتكم الخاصة.

استمر في حديثه مُلتفتاً إلى رئيس الحزب قائلاً:

ولماذا لا تتحدث عن الدكتور فرياد وكيف انخدعت بكلامه وحصلت له على تأشيرة الدخول إلى تركيا وقد صرفنا عليه بسخاء، بيد أنه اختفى عن أعيننا بمجرد دخوله إلى البلاد.

أخرج رئيس الحزب منديله من جيبه ومسح العرق عن جبينه والتفت إلينا قائلاً:

ـ بالله عليكم لو أنكم مكاني هل كنتم ستصدقونه؟.

فنظرنا في وجوه بعض ولم نتفوه.

ضرب المنضدة بقبضة يده غاضباً وقال:

لِمَ لا تقولون شيئاً؟.

مسؤول فرع العاصمة وكان عضوا في الرئاسة أيضاً تحدث قائلاً:

ـ يا آغا نحن أيضاً صدقنا ذلك، قلنا بما أن الأمريكان وجدوا قارة وطردوا منها الهنود الحُمر وأسسوا فيها دولتهم الحالية سيكون بإمكاننا بناء دولة كردية لو أن بريطانيا منحتنا إحدى جزرها.

أراح كلام مسؤول فرع العاصمة رئيس الحزب فتنفس الصعداء والتفت إلى النائب الأول وقال:

ـ وأنت شاركت في ثورتين، لم لا تقول شيئاً؟

فأجاب النائب الأول لرئيس الحزب قائلاً:

ـ مسؤول فرع العاصمة محق، اليهود أيضاً أصبح لديهم دولة بهذه الطريقة، ألم يعدهم الإنجليز٪؟! وبحسب وعد بلفور صنعوا لهم دولة بالفعل. ازداد رئيس الحزب سعادة حينما سمع كلام النائب الأول للرئيس، فالتفت نحوي وقال:

ـ وأنت أيضاً شاركت في الثورة وتعرف ماذا تعني، ما رأيُك؟

ـ وأنا أيضاً أتفق معهما، الفلسطينيون مثلنا لديهم أرضهم لكنهم حتى الآن ليسوا أصحاب سيادة، بيد أن الإنكليز صنعوا دولة لليهود لأنهم أرادوا ذلك مع أنهم ليسوا أصحاب الأرض، في حين وقفوا ضد حقوق الشعب الفلسطيني في ترسيخ الدولة الفلسطينية على أرضهم،

لذلك أرى:

ـ بأننا لن نتمكن من إقامة دولة كردية دون دعم من الدول الكبرى ولو ناضلنا مئة سنة.

كاد سكرتير الحزب أن ينفجر غيضاً مما قلتُ، فقال:

ـ أيها المنافقون، تعلمون أكثر مني أن إقامة دولة ليست لعبة أطفال ولا يُمكن أن تُبنى على جزيرة دولة أخرى، لكنكم تخشون خسارة مصالحكم، لذلك تجاملون رئيس الحزب بأكاذيبكم هذه.

ردّ رئيس الحزب:

ـ ماذا تقول؟ أنا لم أهدد أحداً كي يوافقني، فقد انقضى زمن الدكتاتورية وفرض الآراء، في ظل الحرية والديمقراطية الكل قادر على التعبير عن رأيه بحرية. وخاطب السكرتير غاضباً أطلبُ حالاً من مجلس الرئاسة تجميد عضويتك إلى حين انعقاد المؤتمر، فقد خنت الحزب والشعب.

اندهش السكرتير وأجابه:

ـ أنا لم أخُن أبداً وإن كان لديك ما تقوله قله بصراحة ليعرفه الأخوة أيضاً.

ـ لماذا في تركيا تنصلت منّا وذهبت إلى السفارة العراقية؟.

ـ ولِمَ لا تقول أني فعلتُ ذلك بغية التجسس؟!

ألم تطلب مني زيارة السفير لأخذ موعد للقائه من أجل توطيد العلاقة بين حزبنا والحكومة العراقية؟!

ضرب رئيس الحزب الطاولة بقبضة يده وقال غاضباً:

ـ لم يبقَ سوى هذا البهتان تلصقه بي وتلطخ سمعتي به وتفضحني.

ـ أُنظر إلى المجتمعين حولك؟ مَن هؤلاء لتحدثني عن الفضيحة؟

ـ هؤلاء أفضل منك لأنهم ليسوا خونة.

ـ ومَن كان يتقدم جيش الحكومة ويقتل الأبرياء؟

بغضب أجاب:

ـ لِمَ لا تتكلم عن نفسك حينما كُنتَ توجه الناس إلى الجبل ضد الحكومة سنة 1974، أسست أنت ومَن معك حزباً كارتونياً باسم الحزب الثوري الكردستاني ممول من الأمن العام.

ـ لقد اتخذت قرارك بطردي من الحزب لذا ليس لديّ ما أقوله.

إلتفتَ إلينا رئيس الحزب وقال:

ـ لقد رأيتم بأعينكم وسمعتم بآذانكم، لم يتمكن من الإنكار حتى.

عند التصويت على القرار، رفعنا أيدينا جميعاً كالعادة تصديقاً على طلب رئيس الحزب.

هبَّ السكرتير واقفاً وقال:

ها قد خرجتُ من تنظيمات الحزب وسأترك كردستان أيضاً مُكرهاً، لكن سيأتي اليوم الذي ستدفعون فيه ضريبة هذه العجرفة والمذلة.

لم نشك بحديث سكرتير الحزب بل كنا متأكدين بأنه يقول الحقيقة، لكن إذا ما خالفنا رئيس الحزب في رأيه، سيفتح ملفاتنا ويتهمنا بالخيانة أيضاً. وكنّا حينها نُعاني من حصارٍ دولي بعد احتلال الكويت من قبل الجيش العراقي، كما عانينا من حصار آخر فرضته علينا الحكومة المركزية بعد سحب مؤسساتها من كردستان، لذلك كنّا مضطرين

للخوض في أي مجال في سبيل تأمين لقمة العيش. وألف دينار شهرياً لم يكن مبلغاً قليلاً، كما أن رئيس الحزب كان يُعطينا مبالغ إضافية في المناسبات والأعياد، فما كان لنا أن نستغني عنه أبداً.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أنخرط فيها بصفوف الحزب في حياتي، لذلك اعتقدتُ بأن مقر حزبنا فقط يشبه قاعة الضيافة، لكن مع مرور الزمن تبيّن لي أن الأحزاب الأخرى التي كنّا نزورها لم تكن تختلف عن قاعة الضيافة في حزبنا. أحد الأحزاب التي قمنا بزيارتها بمناسبة الذكرى السنوية لتأسيسها كان الحزب التركماني، كان رئيسه عازف موسيقى؟! عرفته سابقاً وقد شاركنا معاً في العديد من الأعمال الفنية، كان عازفاً ومُتكلماً ووجيهاً. كانت هذه المرة الأولى التي أزورهم فيها مع وفد من حزبنا، استقبلنا الحراس بحفاوة كبيرة ورافقونا إلى الداخل. كان صوت الموسيقى والطبل يدوي في الغرف وكان رئيس الحزب واقفاً أمامهم كالمايسترو يشاور بيديه والكمان على كتفه يعزف عليه وكان لكل واحد منهم آلته الخاصة يعزف عليها وهم يغنون أغنية للأطفال. كان رئيس الحزب يردد بصوته الجميل (يا بسه يا غاضبة، يا سوداء، لن احتضنكِ بعد الآن) وكان العازفون الآخرون يرددون بصوت واحد (مياو.. مياو) ألقينا عليهم التحية فردوا على تحيتنا بإشارة.

كان منظرهم جميلاً للغاية لم يكن يشبه مقر حزب، وإنما قاعة الاحتفالات. جلسنا صامتين للحظات، ثم وضعوا آلاتهم جانباً بعد أن انتهوا من العزف ورحّبوا بنا.

جلس رئيس الحزب بجانبي، فهمستُ في أذنه:

ـ وضع حزبكم لا يختلف كثيراً عما هو موجود داخل حزبنا، فمقر حزبنا قاعة ضيافة مفتوحة، ومقر حزبكم فرقة موسيقية.

قهقه وردّ:

ـ لم تر شيئاً بعد، زُر الأحزاب الأخرى وستعلم ماذا يشبهون.

في اليوم نفسه زرنا حزبين آخرين، أحدهما كان يرفع راية سوداء مثل رايات أيام الفتح الإسلامي ومكتوب عليها بخط بارز (الله أكبر) وعلى الجدران معلقة آيات قرآنية وأحاديث نبوية بدءاً من باب المقر وصولاً إلى غرفة رئيس الحزب. كأنه حجرة في جامع وليس مقر حزب.

استقبلنا رئيس الحزب ورافقنا إلى غرفته، كانت قد عُلقت لافتة كبيرة خلف رأسه مكتوب عليها بخط كوفي كبير الرسول (ص) يقول: (وإن الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه) بالإضافة إلى لوحة مكتوب عليها بماء الذهب قوله تعالى (لئِن شَكَرْتُم لأزيدنكُمْ)، لقد أكد الجانبان في هذا اللقاء على توطيد العلاقات بين الحزبين وتطرقنا إلى الكثير من الموضوعات منها الاهتمام بالوضع المعيشي للناس وتطبيق العدالة الاجتماعية والمساواة واحترام حقوق الإنسان، كان بين لحظة وأخرى يدخل أحدهم الغرفة ويسلم على الجميع ثم يجلس معنا، لقد كان لقب الجميع موحداً (المُلا) حين كانوا يرحبون بنا، دققت في ملامح الحضور، عساني أجد بينهم (مُلا قريتنا أو مُلا جامع الحي الذي كنا نسكن فيه، لكني لم أر أحداً من هؤلاء ولم أعرف أيٌّ من الحضور، بعد مرور عدة دقائق دخل الغرفة آخر رحبوا به باسم (الملا) وفسحوا له مكان للجلوس بيننا، نظرتُ إليه واكتشفتُ بأني أعرفه، كان فناناً شعبياً في مدينة أربيل غالباً ما كان يشارك في حفلات الزواج، يُغني مع الفرقة الموسيقية كان يتمتع بصوت جميل فحين يؤدي المقامات يبدو كعصفور يغرد. رحبتُ به قائلاً:

ـ إني من المعجبين بصوتك الشجي منذ مدة طويلة، انزعج مما قلتهُ كثيراً، مال بوجهه إلى الجهة الأخرى ولم ينبس بحرف، لاحظ رئيس

الحـزب انزعاجـه من إطرائـي لـه، فالتفت نحـوي وقال:

ـ إنـه فنـان يمتلـك صوتاً جميـلاً، كان يغنـي للناس في السـابق أما الآن فقد هداهُ الله إلى الطريق الصحيح ورسـخَّ نفسـه لخدمـة الله وديننا المقدس.

تمتعـتُ بحضور جلسـة لطيفة تخللها الكثير مـن الموضوعات، موضوع يجـر موضـوع وكأننـا داخـل إحـدى حجـرات المسـجد ورئيـس الحـزب يخطـب بنـا عـلى المنـبر، وكان يذكر مـع كل كلمـة وحديث العـشرات من الآيـات والأحاديـث النبويـة فـيردد الحضور بـين لحظة وأخـرى (الله أكبر .. الله أكـبر).

جـاء وقـت الظهـيرة وأردنـا المُغـادرة لكنهـم رفضـوا وقـد اسـتمهلنا رئيـس الحـزب قائـلاً:

ـ الآن وقـت تنـاول الغـداء وجئتم مع رزقكم المقسـوم لكم، سـنتناول معـاً وجبـة كالدراويش.٪ لم نرغب بكـسر الخواطر، في غرفـة مقابلة كانت المائـدة جاهـزة تقدمنا إليهـا رئيس الحزب وجلسـنا متربعـين. احتوت على العـشرات مـن الأطعمـة، بِـدءاً مـن الديـك الرومي المشـوي وصـولاً إلى الخـروف المحـشي اسـتولت رائحـة الطعـام على تفكيرنـا، كان قد مـرّ عليّ وقـت طويـل لم أذق فيـه لحـم الديك والخـروف المحـشي، لذلك شـمّرتُ عـن سـاعدي مثلهـم دون خجـل وأكلـتُ إلى أن شـبعت وكان بـين فـترة وأخـرى يلتفـت إلينـا رئيس الحـزب قائلاً:

يقـول رب العالمـين (يـا أيها الذيـن آمنوا كُلوا مـن طيبات مـا رزقناكم) فـيردد الحضور عـلى المائدة (صدق الله العظيـم) وأفواههم مليئـة بالطعام.

بعـد الظهـيرة تركنـا مقـر هـذا الحـزب وأردنـا العـودة إلى مقـر حزبنا، لكـن اقـترح مسـؤول العلاقـات في الحـزب:

ـ طالمـا أن إمكانيـة الاجتـماع مـرة أخـرى بهـذه السـهولة، مـا رأيكـم

بزريـارة حزبـين آخريـن؟

وجـدوا الفكـرة ملائمـة، كان لدينـا صديـق تمكـن مـع أعضـاء عائلته مـن تأسـيس حـزب صغـير داخـل شـقة صغـيرة ضمـن بنايـة تجاريـة في مركـز المدينـة، إضافة إلى شـقة صديقنـا هـذا كان هناك مكاتـب المحاميين ومكاتـب عقاريـة ومكاتـب تجاريـة وكانـت قـد عُلّقـتْ لوحـة صغيرة في مقدمـة البنايـة ووضـع بعـض اللوحـات الاسـتدلالية للمسـاعدة عـلى الوصـول إلى مقـر الحـزب في الطابـق الرابـع مـن البنايـة.

عنـد وصولنا كان رئيس الحزب ومعه نائبه ومسـؤول شـؤون الفلاحين والعـمال ومسـؤولة الشـؤون النسـوية، جالسـين متربعين أمامهـم قدر من الدولمـة يأكلـون منه. سـلمنا عليهم، ردوا السـلام ودعونا لتنـاول الطعام، اعتذرنـا عـن قبول دعوتهـم لأننا تناولنـا طعامنا قبل مجيئنـا إليهم.

كنـتُ عـلى علاقة وثيقـة معهم لأننـا أبناء قريـة واحـدة، رئيس الحزب النجل الأكبر لمسـؤول شـؤون الفلاحـين والعمال، كان طفـلاً صغيراً حين تركتُ القرية و كانت أمه مسـؤولة الشـؤون النسـوية امرأة طليقة اللسـان وكريمـة جـداً، في الكثـير من الأحيـان كنا نتنـاول من طبخها حـين كنا في القريـة، لـذا كانت مسـألة عادية أن أفاجئهـم بالزيارة وبدون سـابق إنذار، جلسـنا معهم لبعـض الوقت وتطرقنا إلى المشـاكل التي تعـترض الفلاحين والعـمال، ثم عدنـا متوجهين إلى مقـر حزبنا.

في اليـوم التـالي كان لدينـا اجتـماع لقيـادة الحـزب حيـث قـام مسـؤول العلاقـات بقـراءة تقريـرهِ حول الزيـارات التي قمنا بها في اليوم السـابق إلى مقـرات بعـض الأحـزاب، رئيـس الحزب والحضـور عبروا عـن تقديرهم الكبـير وقالوا:

إن القيام بمثل هذه الزيارات ضرورية من أجل تقوية العلاقات مع هذه الأحزاب وستكون لها نتائجها الإيجابية، كما أنهم اقتراحوا القيام بزيارات مشابهة إلى أحزاب أخرى.

بعدها، التفت رئيس الحزب إلى النائب الأول للحزب وخاطبه:

بالنسبة إلى كتاب وزارة الداخلية المتعلق بتقديم أسماء الأعضاء المؤسسين للحزب أرى أنه من الأفضل تحضير الرد في هذه الجلسة، لذلك سحب النائب الأول ورقة بيضاء وبدأ بكتابة الأسماء، بدأ باسم رئيس الحزب ثم اسمه ثم أسماء باقي أعضاء القيادة حسب الترتيب.

راجع رئيس الحزب الأسماء ثم أخرج من جيبه ورقة صغيرة، مكتوب فيها أسماء ثلاثة نساء وسلمها إلى النائب الأول لرئيس الحزب وقال:

أضف هذه الأسماء الثلاثة كي لا يقولوا بأن حزب ولاية الموصل حزب رجعي ومتخلف لا يحترم حقوق المرأة.

وضع النائب الأول للحزب قلمه جانباً وقال غاضباً:

ـ منذ متى كانت النسوة من كوادر مؤسسات الحزب لكي نسجل أسماءهن؟.

رئيس الحزب أجاب قائلاً:

ـ أعرف بأنهن لسنّ فاعلات في هذه المؤسسات لكن أقترح ذكر أسمائهن كي لا يُقال عنا في الخارج بأنا حزب عشائري ورجعي ولا يهتم بشؤون المرأة ما قد يضر بمصالح الحزب في الخارج.

ازداد غضب النائب الأول لرئيس الحزب فوضع خطاً على اسمه وقال:

ـ جميع أعضاء هذا المقر يعرفون جيداً بأن سمعة هؤلاء النسوة الثلاث سيئة ولا تُفيد سمعة حزبنا أن يكون من بين المؤسسين أسماء لعديمات الأخلاق وإن كنتَ مُصراً على طلبك، فأنا غير مستعد أن يكون اسمي ضمن قائمة فيها أسمائهن.

التفت رئيس الحزب إلى النائب الأول قال له:

ـ ألستم أنتم من يؤكد علينا دائماً أنه ينبغي أن تكون بيننا بعض النساء كي يُصنف حزبنا ضمن الأحزاب المدنية؟

أجابه نائب رئيس الحزب قائلاً:

ـ هل تعتقد أن إضافة أسماء ثلاث نساء مُنحرفات أخلاقياً سيحول حزبنا إلى حزب مدني؟!

ـ أنا سحبت طلبي، لنعرف كيف ستتمكنون من معالجة هذه المسألة؟ هل ستدخلون أخواتكم وبناتكم إلى الحزب؟

صُدم النائب الأول من كلام رئيس الحزب وكأن أحدهم رشه بطاسة من الماء البارد ولم يقل شيئاً.

بعد الانتهاء من تسجيل الأسماء، رُفعت إلى وزارة الداخلية وفق كتاب رسمي وانتهى الاجتماع باسترجاع الذكريات في جو من المزاح. حاول رئيس الحزب التخفيف من انزعاج النائب الأول بسبب طلبه إضافة أسماء النساء الثلاثة على القائمة فوضع يده على كتفه ولاطفهُ قائلاً:

ـ أعلم أن الأمر لم يُعجبك كثيراً، لكن لا تهتم، ما دفعنا إلى ذلك هو مصلحة حزبنا، أليس من الأفضل أن ينظر إلينا الآخرون في الخارج بأننا حزب مدني وعصري وليس حزب متخلف ورجعي؟!

ثم التفتَ إلينا وقال: الكل مدعو إلى تناول الطعام، سنرسل أحدهم ليأتي لنا بالكباب من محلات النجارين.

******

كان مقر الحزب بمثابة البيت الثاني بالنسبة لنا، نقضي فيه أكثر أوقاتنا، لكن ازدادت الأوضاع سوءاً في كردستان حين تفاقمت الخلافات بين حزبي السلطة ـ الحزب الديمقراطي الكردستاني وحزب الاتحاد الوطني الكردستاني ـ بسبب معبر ابراهيم الخليل وما يدره من إيرادات، بدأت حرب إعلامية تتفاقم تُنذر بالأسوأ إلى أن خرجت عن السيطرة تماماً ما أدى إلى نشوب حرب داخلية وبعد معارك دامية خرج الحزب الديمقراطي الكردستاني من أربيل، كان الوضع في غاية السوء إذ أحرق كل حزب منهما مقر الآخر ونهب بعض الأعضاء والمؤيدون أموال وممتلكات الحزب منتهزين أجواء البلبلة والتسيب.

أمسك حزب الاتحاد الوطني الكردستاني بزمام السلطة في أربيل، وكان يحكم متفرداً بقراراته في جميع المناطق الواقعة تحت سيطرته، وهكذا كان الأمر بالنسبة إلى الحزب الديمقراطي الكردستاني الذي بسط نفوذه وسلطته على مناطق استقر فيها خارج أربيل إلى أن ازداد الخلاف واحتدم الصراع بينهما لتزيد الأمور تعقيداً أكثر.

وقع حزبنا في حيرة من أمره، فلم يكن يعرف كيف يحافظ على استقلاله وحياديته من كل ما يجري، حتى أن بعض مسؤولي القيادة والأعضاء التحقوا سراً بأحد هذين الحزبين، ففقدنا بذلك حيادية الحزب ما هدد مستقبله وجعله عرضة للمخاطر، لذلك قدمت استقالتي إلى المكتب السياسي وعُدتُ إلى عملي في الدكان.

حاول رئيس الحزب جاهداً ثنيّ عن موقفي، لكن دون جدوى، عندما نظرت إلى الوضع وجدت أن هذه العجينة تحتاج للكثير من

الماء كما يقول المثل الكردي، وكنتُ قد كبرتُ وتقدم بي العمر ولم يعد بإمكاني تحمل الصراعات والنقاشات، لذلك قررت التزام الحياد بعدم الاقتراب نهائياً من أي من الأحزاب.

دام الصراع بين الحزبين المتناحرين زمن طويل، كادت نيرانهم تصل إلى الكثيرين وكان الخطر يُلاحق مواطني كردستان، فبادر المثقفون ووجهاء المجتمع بالتدخل فكانوا يتواسطون المسؤولين من الطرفين مُطالبينهم بإعلان وقف إطلاق النار والجلوس معاً على مائدة المفاوضات، لكن باءت مساعيهم بالفشل.

ذات يوم كنت جالساً في دكاني وقت العصر، زارني أحد أصدقائي من المثقفين، تحدث عن نية مجموعة من الكتاب والمثقفين تنظيم اجتماع موسع يهدف إلى بلورة مشروع يفرض وقف إطلاق النار على كلا الحزبين المتناحرين. وطلب مني الحضور والمشاركة في ذلك الاجتماع.

في اليوم التالي، اتصل بي منظموا التجمع رسمياً وكان أني لبّيتُ دعوتهم، قاربَ عدد الحضور خمسين فرداً، أحدهم كان شاعر وروائي وكاتب معروف في مدينة أربيل، عاشَ في المهجر مدة طويلة.⁄ يحمل شهادة دكتوراه في الأدب واللغة الكردية من فرنسا، يبدو أنه كان صاحب فكرة تنظيم هذا التجمع، فقد كان المتحدث الوحيد والجميع يستمع إليه، بدأ حديثه قائلاً:

ـ لنقدم مذكرة إلى هذين الحزبين نطلبُ منهما وقف الحرب وإلا سنحرق أنفسنا. استحسن الحضور فكرته ووافقوا عليها بالإجماع.

تعجبتُ كثيراً من اقتراحه، رفعتُ يدي مستأذناً التحدث وقلتُ:

ـ وماذا إن لم يتوقفا عن الحرب؟ عندها علينا أن نحرق أنفسنا فعلاً.

وهـل يجـوز ذلـك ونحن أصحـاب عوائـل، سـيبقى أطفالنا بـلا رعاية إن نفذنـا تهديدنـا؟ إن هـذه الأحـزاب غير مهتمـة لأمرنا، فالسـبب الأول لحربهـم هذه هـي مصالحهـم المادية، فلـماذا نحرق أنفسـنا؟!

كان الأسـتاذ عمـر شـيخ الله دشـتكي ضمـن الحضـور وقـد اتصـف بنزاهتـه ووطنيتـه ـ كان مـن المناضلـين اليسـاريين ـ التفـت إليَّ وقـال:

ـ ندعـوكَ للانضـمام إلينـا، لأنـه يقـول كلمـة الحـق فلو لم نهـدد بحرق أنفسـنا، سـيكون مـن المسـتحيل إيقـاف هـذه الحرب.

ـ أنـا غـير مقتنـع بأنهـم يمكـن أن يرضخـوا لرغبتنـا في وقـف الحرب، فهـم لا يقـدّرون رجـال الدين أوالشـيوخ والوجوه الاجتماعيـة المعروفة في المجتمـع، فكيـف سـيقدّروننا نحن؟

تدخل الشاعر والروائي مُنسق الاجتماع:

ـ اذا لم يسـتمعا إلينـا ولم يوقفـا الحرب، حينها سـنكذب عليهـما بدورنا ونتراجـع ولـن نحرق أنفسـنا. أخـيراً قدمنا المذكـرة إلى الجهـات المعنية مع التأكيـد عـلى أنـه إن لم يلبـى مطلبنـا سـنجتمع بعـد ثلاثـة أيـام كـي نحرق أنفسـنا أمـام بناية محافظـة أربيل.

مضـت الأيـام بسرعـة، لا أعرف كيـف انتهت هـذه الأيـام الثلاثة؛ في اليـوم الرابـع كنـا قـد قررنـا أن نتوجـه معاً نحـو بنايـة المحافظـة وبيد كل منـا زجاجـة مليئـة بالنفـط مـع علبة الكبريـت لأشـعالها، بينـما كان الناسً يتجمعـون حولنـا معتقديـن بأننا سـنقوم بإحراق أنفسـنا فعـلاً، كان فريق الإطفـاء على اسـتعداد تـام للتحرك إن لـزم الأمر، وجمهرة مـن الصحفيين المحليـين والأجانـب ينتظـرون اللحظـة المصيريـة وبيدهـم كاميرات التصويـر كـي ينقلـوا الحـدث ولحظـات الاحـتراق الجماعي عـلى قنواتهم.

كانت أعداد الحشود حولنا تزداد مع مرور الوقت وكأنه يوم الحساب، وبينما كان الناس يرفعون صاحب الفكرة على الأكتاف وهو يُلقي أشعاراً ويُهاجم الطرفين المتحاربين فيقول:

(خرة بشرفك يا ابراهيم خليل) في إشارة إلى الصراع على معبر ابراهيم خليل الذي كان السبب في إشعال فتيل الحرب بين هذين الحزبين.

استطاعت والدة أحد المشاركين في هذا التجمع ـ الرافض والمعارض للحرب ـ الوصول إلى ابنها وقد امسكته من قميصه بقوة وهي تبكي بحرقة وتصرخ بصوت عالٍ: حَرّمتُ عليك حليب صدري إن أحرقت نفسك، وآخر بيده جهاز الجوال يخابر والدته ويقول لها: اشتهي شوربة البرغل اطبخيها لي فسأعود عند الظهيرة.

كان المشهد عجيباً، بدا اضطراب الناس واضحاً وقد أخذوا المسألة مأخذ الجد فكانوا يعتقدون بأننا سنحرق أنفسنا فعلاً، كان المشهد مأساوياً للمراقب، بينما كنّا نعلم أنه مجرد سيناريو لفيلم هزلي من بطولتنا.

على أية حال، كنّا بانتظار انقضاء الوقت المحدد ضمن مذكرتنا المقدمة إلى الحزبين الحاكمين وهما يخوضان حرباً ضروساً، وكان الناس يرفعون كفوفهم إلى السماء يتضرعون إلى الله عز وجل قائلين:

يا رب، يا رحمان يا رحيم اشمل هؤلاء المساكين برحمتك الواسعة وانزل الرحمة في قلوب قادة الحرب ليوقفوها.

ـ لم يبق سوى لحظات على انتهاء الوقت المحدد، أجابَ أحد القادة بدبلوماسية بينما أجابَ الآخر بلهجة عنيفة ـ كانا متفقين في المضمون من حيث نيتهما في إيقاف الحرب ـ تشاورنا فيما بيننا، قال صاحب

الفكـرة، كـما توقعـت لا يهتـم أي مـن الحزبـين لأمرنـا، سـيان عندهما إن أحرقنـا أنفسـنا أم لا.

تدخلتُ قائلاً:

ـ ألم أقل دعونا لا نقترح إحراق أنفسنا، سيتيتم أولادنا إن فعلنا؟

ـ بما أنهما لم يحترما رغبتنا، سنكذب عليهم بدورنا ولن نحرق أنفسنا.

ـ وماذا سنقول لهؤلاء الناس؟

قهقه وقال:

ـ سـنعلن حـالاً أن الأحـزاب المتناحـرة اسـتجابت لمطلبنـا ووعـدت بوقـف الحـرب.

هكـذا قرأنـا البرقيتـين عـلى المُحتشـدين وقـد اختلطنـا بهـم. من شـدة سـعادتهم علـت أصـوات تصفيـق وهتافـات وزغاريـد بين الحضـور، ثم تفـرق النـاس وتوجهـوا إلى بيوتهـم ونحـن أيضـاً عُدنـا إلى بيوتنا.

كـما توقعنـا اسـتمرت الحـرب ولم تتوقف بل كانت تسـتعر أكثـر فأكثر، بيـد أننـا أوصلنا رسـالتنا، كذلك سـعت فئـات أُخرى - إلى إيقـاف الحرب أيضاً، كلٌ حسـب طريقته ووسـيلته.

مسـاء يـوم الثلاثـين مـن آب 1996 وجدنـا أحـد الحزبـين المتحاربـين يقـول للآخر: (لن تعـودوا إلى أربيل مرة أخرى، سـتنظرون إليها من بعيد بالمنظـار فقـط) لكـن وفي اليـوم التـالي، انقلبـت الآية ، فعـاد ذلك الحزب مـع الجيـش العراقـي وهاجمهـم وأجبرهـم عـلى عبـور الحـدود إلى ايـران.

لم يـدُم هـذا الحـال كثـيراً، فالحـزب الـذي أُخـرج عـاد مـرة أُخـرى وبمسـاعدة المدافـع الإيرانيـة في ظـل الصمـت الأمريكـي، ودخـل عـن طريـق منطقـة **قاسـم رش** إلى مدينـة **السـليمانية**، مـا جعـل الآخـر يـترك أماكـن سـيطرته ويتراجـع ليسـتقر خلـف منطقـة (**ديكلـة وقوشـتبة**).

حـاول بعـض الفنانـين التشـكيليين توثيق هـذه الحقبة من خلال رسـم بعـض اللوحـات عـلى الحـدود بين الجانبـين، لدرجـة أنه لم تبـق صخرة أو حجـر دون أن تجـد عليهـا لوحة تُشـير إلى أهمية السـلام. هكـذا حدد طرفي النـزاع المسـلح منطقة **ديكلـة** حدوداً رسـمية بينهما وكأنهم أطفـال يلعبون، منـذ ذلـك الوقـت وإلى الآن وبعـد مـضي كل تلك السـنوات لم تنمـح هذه الحـدود مـن أذهان المواطنـين، ففي العلـن نحن أصحاب سـيادة وحكومة وبرلمـان لكننـا في الواقع شـعبين في إمارتين.

في إحـدى الأمسـيات كنتُ في دكاني حـين زارني أحد أصدقـاء الطفولة واحتسـينا الشـاي معـاً، وبينما كنـا نتحدث عـن الأوضـاع في منطقتنا بادر ضيفـي قائلاً:

ـ الحمـد الله أشـعر أن وضعي أفضل مـن السـابق الآن لأنهم خصصوا لي راتبـاً تقاعدياً بوصفـي أحد عناصر البيشـمركة القدماء.

ـ وأنا أيضاً كنت من البيشمركة، لمَ لم يَقُل لي أحدٌ ذلك؟

ـ لا تنتظـر أن يُخـبرك أحـد ، فالـكُل مشـغولٌ بحالـه الآن، عليـكَ أن تُطالـب بحقكَ بنفسـكَ.

واسترسل في حديثه قائلاً:

أعـرف أشـخاصاً لم يلتحقـوا بتنظيمات البيشـمركة ولو ليـوم واحد ولم يباتـوا في السـجون ولا ليلة، لكنهم يسـتلمون الآن راتباً مـن الحكومة على أنهم كانوا من البيشـمركة وسـجناء سياسـيين.

استحسـنتُ الفكـرة، وذهبـتُ صباحـاً إلى وزيـر البيشـمركة وحصلت منـه عـلى كتـاب رسـمي موجـه إلى رئيـس مجلـس الـوزراء وسـلمته إلى اسـتعلامات مجلـس الـوزراء وطلبـت مقابلـة رئيـس الحكومـة. بنـاء على توصيـة مـن وزيـر البيشـمركة موثقـة بالكتـاب الرسـمي الذي قدمتـه له.

أخذ الموظف الكتاب مني وخاطبني قائلاً:

ـ انتظر قليلاً، سأقوم بتوصيل الكتاب.٪

جلست في غرفة الاستعلامات بانتظار وصول الجواب، في هذه اللحظات دخلت سيدة ترتدي حذاء بكعب عالٍ وقد علقت حقيبة كبيرة على كتفها.٪ ألقتْ التحية على الحضور وتوجهت إلى مسؤول الاستعلامات وطلبت منه مقابلة رئيس الحكومة، أخذ منها بعض المعلومات وطلب منها:

انتظري في القاعة إلى حين يتم استدعاؤك.

كنتُ أعرف هذه السيدة، أذكرها جيداً فقبل سنوات كنا زملاء في فرقة فنية واحدة، إنها مطربة، صوتها جميل. أذكر ذات مساء وبينما أنا جالسا في مقر فرقتنا، دخلت هي إلى المقر ومعها طفلها الصغير، استغربتُ تصرف أحد أعضاء الفرقة حينها، حيث قام برفع تنورتها ومد يده إلى ما بين فخذيها وخاطبها بوقاحة:

ـ كيف الحال هنا؟.

استهجنتُ تصرفه الفج ووقاحته، لم يُعر وجودي أدنى اعتبار ولم يخجل مني ولو قليلاً، توقعتُ أن تُمطره بالسباب والبصاق كردة فعل على تماديه معها، لكنها أجابته بهدوء:

أنتم لا تعرفون بالأصول أبداً، يفني زوجي عمره في جبهات القتال، بينما أنتم لا يشغلكم إلا إحياء الليالي الحمراء، لا تدعوني وشأني أينما كُنت، في بيتي أو هُنا!.

اقتربتُ منها حييتها وسألتها:

ـ ولماذا تريدين مقابلة رئيس الحكومة؟

ـ كي أطلب منه مُساعدة مالية.

ـ هل يعلم بأنك تريدين زيارته؟

ـ وما الحاجة إلى إعلامه، سيتكفلون هم بإخباره.

حدّثتُ نفسي، لن أنشغل بمشكلتها، أمرها يعنيها هي فقط، لذلك توقفتُ عن الحديث معها وانشغلت بنفسي في انتظار مسؤول الاستعلامات كي يُنادي على اسمي فأدخل لمقابلة رئيس الحكومة، لكن لم يمض وقت طويل حتى تمّ استدعاء هذه السيدة وقد زودوها بهوية الدخول واصطحبوها إلى غرفة أخرى.

بينما بقيت أنا منتظراً وكنت أنظر بين لحظة وأخرى إلى ميل الساعة، شارف الوقت على انتهاء الدوام الرسمي، خرجت تلك السيدة من مكتب رئيس الحكومة ترتسم على وجهها ابتسامة وسألتني:

ـ ما زلتَ هنا؟

ـ نعم، انتظر أن يُسمح لي بلقاء رئيس الحكومة.

ـ أما أنا فالتقيته وسلمني مئتين وخمسين ألف ديناراً.

بعد أذان الظهر بقليل، استدعاني مسؤول الاستعلامات وسلمني إذن الدخول واصطحبني إلى مكتب مدير رئيس الحكومة.

كنت أعرف هذا المسؤول جيداً، رحب بي بحرارة وسألني:

ـ ماذا تشرب، شاي أم قهوة؟

ـ لا رغبة لي بشرب شيء، الوقت متأخر وأُفضل رؤية رئيس الحكومة قبل أن ينشغل بعمل مفاجيء فلا أتمكن من مقابلته.

ـ لا تقلق، لقد أوصاني رئيس الحكومة بك وطلب مني التحدث معك والاستماع إلى مطالبك.

ـ أنـا هنـا لمقابلتـه شـخصياً، فلـو كان في نيتـي رؤيتك، كنـت زرتُك في بيتك وشربـتُ شـاياً عندك.

ـ لا بأس، تفضل أخبرني بما أتيت من أجله كي أُحققه لك.

ـ لا داعـي لذلـك، لـو علمـتُ بـأن وقتـه لا يسـمح بمقابلتـي، لكنتُ طلبـتُ مـن تلـك المطربة التـي دخلت عليـه دون موعد مُسـبق حتى، ومع ذلـك خرجت تعلـو وجهها ابتسـامة وبيدهـا المال.

طلـب لي قهـوة وقبـل أن أنتهي مـن شربه، دخـل عجوز بلحيـة بيضاء وبيـده مجموعـة مـن الصـور الفوتوغرافيـة، أخـرج إحداهـا ووضعها على طاولـة مديـر اسـتعلامات رئيس الحكومـة وخاطبه:

ـ علمـتُ أنـك متعجـب أيضاً من ذلـك الوضع، لذلـك أحضرت لك نسخة منها.

ـ ولِمَنْ ستأخذ كل هذه النسخ ؟

ـ أنـت تعلـم بـأن رئيـس الحكومـة كان مندهشـا أيضـاً، فقـد أوصى مصـوره الخـاص قائـلاً:

التقـط له صـورة وعندما تطبعها لا تنسـى حصتي أنا والسـادة الوزراء، لذا سأسـلم هذه الصور له، كي يسـلمها إلى الوزراء خلال انعقاد المجلس.

انشـغلتُ بمعرفـة ماهيـة الصـورة التي بدا لي أنها شـغلت جميـع أعضاء الحكومـة، لـذا طلبـت مـن مسـؤول مكتـب رئيـس الحكومـة رؤيتهـا، ناولنـي إياهـا وهو يسـألني:

إنها جميلة جداً وتذكرنا بأيام النضال في الجبل، أليس كذلك ؟

وقبـل أن أجيـب، تمعّنـتُ فيهـا جيداً، عرفـتُ أنها للرجل نفسـه الذي كان يحمـل هذه النسـخ وقـد ظهر في الصـورة وهو يمتطي ظهـر حمار دون

بَرْدَعَـة أمام مبنى مجلـس الوزراء.

مـن شـدة الضحـك لم أتمكن من الـكلام، نظـر العجوز نحـوي غاضباً وقال:

ـ لماذا تضحك؟ هل تستهزء بي؟

ـ كيـف يمكـن أن أسـتهزيء بـك، إني معجـب بالصـورة، لكـن مـع هـذا، تخيـل لـو كان بيدك بندقيـة صيد وبجانبـكَ كلبين سـلوقيين، عندها كنـت ستشـبه صيـاداً ماهراً.

من حُسن حظي أنه صدقني فقال مبتسماً:

ـ أنـا أيضـاً كنـت أتمنى لـو كان معي كلبين السـلاقيين مـع بندقية صيد، لكنـي رأيـت هـذا الحـمار صدفـة أمـام بناية مجلـس الـوزراء، ومن حُسـن حظـي أني تمكنتُ مـن التقـاط هذه الصـورة معه.

أكملـتُ قهوتي وغادرتُ خائب الأمل، قبل أن أصل إلى الاسـتعلامات نـاداني أحدهم من الخلف.

ـ أيُعقل هذا، تأتي إلى مجلس الوزراء ولا تُلقي التحية علينا؟

عندما التفتُ، عرفته كان أحد رفاق النضال في الجبل، سألته:

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ أنا مستشار رئيس الحكومة.

أمسـكَ بيـدي وأخـذني معـه إلى غرفـة كبـيرة كقاعـة المناسـبات، كان هنـاك مـا يقـارب تسـعون رجـلاً جالسـين عـلى مقاعـد وثـيرة، يمزحون ويضحكـون وهم يحتسـون الشـاي، حييتهم وجلسـت على أحـد الكراسي أمامهـم، همسـتُ في أُذن صديقـي:

ـ مَن هؤلاء؟ هل كلهم مراجعين ينتظرون لتُحلّ مشاكلهم؟

«وهو يضحك»

ـ هؤلاء مستشارو الحكومة أيضاً.

تعجبتُ لكلامه، لا يمكن لأحد الاقتناع به كيف لهؤلاء أن يكونوا جميعاً مستشارون لدى الحكومة، بدا وكأنه مجلس عزاء، فكرت(هل يمزح معي)؟! لذلك كررت سؤالي مرة أخرى:

ـ إذا كان كذلك لِمَ ليس لكلٍ منكم غرفة خاصة به؟ المكان أشبه بالمقهى منه بغرفة المستشار.

ـ في الحقيقة نحن أكثر ممن تراهم هنا الآن، لكن بعضهم مُتغيب، كنّا نحضر سابقاً بداية الشهر فقط لنتسلم رواتبنا، لكن مع تغيير الكابينة الحكومية الأخيرة، جاءت الآوامر من الرئيس الجديد بالالتزام بالدوام اليومي حالنا حال باقي الموظفين الحكوميين.

استدرك وسألني:

ـ أخبرني، لِمَ أتيتَ وماذا لديك؟

ـ أتيتُ بكتاب رسمي من وزير البيشمركة للسماح لي بمقابلة رئيس الحكومة كي يأمر بصرف راتب لي بصفتي من عناصر البيشمركة القدماء. لكن لم يكن لديه الوقت لمقابلتي.

«انتظرتُ أن يُبادر صديقي هذا ويأخذ المعاملة مني ليساعدني على إنجازها، لكنه تملص من الموضوع ولم يتفوه بكلمة».

ـ قد يكون في إمكانك مساعدتي، ربما تستطيع رؤية رئيس الحكومة من أجلي.

قال ضاحكاً:

ـ رؤيـة مَـن؟! لم نلمحـه ولـو مـرة واحـدة، إنه لا يخـرج مـن مكتبه إلا بعـد أن يُنجـز أعمالـه، ونحن هُنـا نقطع الوقـت في شرب الشـاي والقهوة والمـزاح، لنعـود إلى بيوتنـا بعد انتهـاء الدوام.

******

فقـدتُ الأمـل بالحصـول عـلى راتـب التقاعـد الخـاص بالبيشـمركة والسـجناء السياسـين، ولأن الراتـب التقاعدي المدني الـذي كنت أتقاضاه قليـل جداً لم يكفي لتلبيـة احتياجاتي اليومية، اضطـررتُ للعودة إلى العمل كسـائق تكسي، لذلك اشـتريت سـيارة مسـتعملة بالتقسـيط للترزق منها.

كان عمـلي جيـداً في البداية، فالذي كنت أحصل عليـه يومياً مع الراتب الذي كنت أسـتلمه شـهرياً يكفينا حتى نهاية الشهر، لكن ساءت الأحوال مـع مرور الأيام وارتفعت أسـعار المحروقات وسـاءت جودتها، ما جعلني أعمـل يـوم وأقـضي يومـين مُقابلـهُ لصيانة السـيارة مـن الأعطـال اليومية الكثـيرة التـي كانت تُصيبها، كان عليّ اسـتبدال المضخـة كل حين، لذلك لم يعـد بمقدوري تأمـين مصروفي اليومي وقـد زاد عليها مصاريف السـيارة.

لم تسـتمر هـذه الأوضاع طويـلاً، ففي 9/ 4/ 2003 احتلـت الولايات المتحـدة الأمريكية العراق وسـقط نظـام البعث في بغداد، وشـكلت قوات الاحتـلال حكومـة مؤقتة في المنطقة الخـضراء في بغداد.

في البدايـة تـم تأسـيس مجلس باسـم مجلس الرئاسـة تكّون مـن مجموعة مـن القيـادات الحزبيـة وبعـض الجهـات المُعارضـة للنظـام السـابق وقـد اسـتلم كلٌ منهـم رئاسـة الدولـة لمـدة شـهر واحـد، لكـن في الحقيقـة كان الدبلومـاسي الأمريكـي السـابق **بـول بريمـر** هـو الحاكـم المـدني الفعـلي

والمُتحكم الأول في العراق ولم يكن يُعطي قيمة لأيٍ من هؤلاء، بل كان يستخف بهم في بعض الأحيان.

قرر الأمريكان في هذه المرحلة تعيين إياد علاوي رئيساً للوزراء في العراق لمرحلة انتقالية مؤقتة وتم تحديد مقر الحكومة في المنطقة الخضراء ـ تلك المنطقة الواقعة تحت نفوذ وسيطرة السلطة الأمريكية ـ فيما كانت باقي مناطق العراق تشهد مقتل العشرات من الأمريكيين على يد المسلحين من بقايا حزب البعث، كانت المنطقة الخضراء هي الوحيدة التي نعمت بالاستقرار والأمان نتيجة تعزيزها بنقاط التفتيش المُحكمة والمدعومة بوسائل وأجهزة تكنولوجية متطورة تتوزع في جميع أطرافها وكانت جميعها تحت إشراف الجيش الأمريكي، وكان يُفرض على جميع أعضاء مجلس الحكم ولجنة تشكيل الدستور ورئيس مجلس الوزراء والوزراء وكافة المسؤولين المرور بنقاط التفتيش تلك والالتزام بتعليمات وأوامر هؤلاء الأمريكان.

أحد الأساتذة وكان عربي القومية وعضواً في مجلس صياغة الدستور العراقي على حقوق الأكراد، أعرفه عن قرب، في إحدى جلساتنا معاً في فندق شيراتون روى لي قائلاً:

ـ في أحد الأيام طلب مني إياد علاوي رئيس وزراء العراق الذهاب إلى مكتبه واحتساء القهوة معه، فذهبتُ إليه وتوجهنا معاً إلى مقر رئاسة مجلس الوزراء وعندما وصلنا إلى مقر المخابرات المركزية الأمريكية، استوقفنا ضابط الاستعلامات قائلاً:

انزعا ملابسكما ماعدا الداخلية منها ـ الفانيلة والشورت ـ ومُرا حُفاة داخل جهاز السونار[15]، غَضب إياد علاوي من طلبه هذا، وخاطبه:

15) السونار: الماسح الضوئي.

ألا تعرفني؟ أنا رئيس وزراء العراق ولن أنزع ملابسي. فأجاب الضابط قائلاً: وأنا لن أسمح لك بالمرور.٪ أراد إياد علاوي العبور عنوة، لكن تقدم الضابط منه وصفعهُ صفعة قوية ثم صرخ بوجهه قائلاً:

استلقي على بطنك. حاولت التوسط بينهما وأخرجت له هويتي الصادرة عن البنتاغون:

إني مستشار في البنتاغون اسمح لنا بالعبور. لكن...، وقال: وأنت أيضاً عليك أن تتجرد من ملابسك.

استرسل هذا الصديق في حديثه قائلاً:

ولأن جهازي الجوال «ثريا» اتصلت مباشرة بالحاكم المدني بول بريمر وطلبت منه التحدث مع الضابط، لحثه على الاعتذار من السيد إياد علاوي، لكني وجدت بول بريمر يؤيد هذا الضابط قائلاً: سأخبره أن يرفع عنه الاجراءات والتعليمات، لكن على إياد علاوي من الآن فصاعداً أن يُطيع أوامر هذا الضابط وتعليماته، لذلك نزعنا أنا وإياد علاوي ملابسنا ودخلنا بالشورت والفانيلة ليتم كشفنا على الماسح الضوئي، ثم تمكّنا من الذهاب إلى مقر رئاسة مجلس الوزراء.

سألت صديقي العربي:

ـ ولماذا هو رئيس مجلس الوزراء إذن؟ وكيف نتعرض للإهانة ونحن على أرض وطننا؟

وهو يضحك أجابني:

ـ الأمريكان لا يعترفون بهذه المسائل، أنت تعلم بأنني أُقيم هناك منذ زمن طويل، على الرغم من أني مستشار في البنتاغون وقدمت خدمات كثيرة للقوات الأمريكية، لكنهم لا يأخذون هذه المسائل بعين الاعتبار، مع أن دستورهم يعترف بالمساواة بين الجميع، لكننا في الواقع

مـا زلنـا مواطنين من الدرجـة الثانية، لذلك لم يتم اسـتثنائي مـن التفتيش.

ـ وكيف ينظرون إلى مجلس الحكم ؟

ـ الحاكـم المـدني الأمريكـي ينظـر إليهـم عـلى أنهـم جنـود تحـت إمرته، ينتظـرون مـا يأمرهـم بـه، فالقـرار النهائـي بيـده هـو فقط.

ـ ولِمَ يقبلون منه ذلك؟

ـ ليـس باليـد حيلـة، فلـولا الأمريـكان لمـا كان بمقدورهـم إسـقاط النظـام السـابق ولـو بعـد عـشرات السـنوات، وإن لم يرضخـوا لأوامـر الحاكـم المـدني، سـتتم إبادتهـم.

كنـا مـا نـزال نتكلـم حينـما دخـل اثنـان مـن مسـؤولي حكومـة إقليـم كردسـتان وجلسـا عـلى مائـدة قريبـة منـا، التفـت صديقـي لي وقـال:

ـ هل ترى هذين اللذين دخلا قبل قليل؟

ـ نعم، ماذا تقصد بسؤالك؟

ـ عندمـا كنـتُ في بغـداد وقبـل أن أتوجـه إلى أمريـكا، كنت مسـؤولهم الحـزبي ضمـن تنظيـمات حـزب البعث.

ـ لا أصدق، إنهما مسؤولان كبيران في حكومتنا، لا يُعقل!!.

ـ انظـر كيـف سـيتصرفان حـين أقـترب منهـما لإلقـاء التحيـة، لاحـظ كيـف سـتتغير ملامحهـما.

ـ لنرَ.

عندمـا اقـترب منهما، نهضـا وردّا عليه التحيـة بحرارة مُبالغـة وقد بديا كأنهـما خادمان يعمـلان عنده.

******

بعد سقوط النظام تم رفع الحصار الاقتصادي عن العراق، فعادت العلاقات إلى طبيعتها وبدأ التعاون الحقيقي بين الإقليم وبغداد، وتسلمت الأحزاب الكردية الكثير من المناصب والوظائف الحكومية في بغداد مع تخصيص ميزانية ضخمة للأقليم، بذلك بدأت حياة المواطنين في كردستان تنتعش على مدى سنوات، لكن لم يستمر هذا الوضع كثيراً، فبعد اكتشاف النفط في الإقليم وتسويقه من قبل حكومتها، تدهورت العلاقات بين الإقليم وبغداد وبدأ الطرفان يتبادلا التهم لانعدام الشفافية فيما يتعلق بمسألة إدارة موارد النفط، لذلك قررت حكومة الإقليم الامتناع عن تسليم واردات بيع النفط إلى حكومة المركز، بالمقابل حرمت بغداد الإقليم من نصيبه في الميزانية، ما ترتب عن ذلك تدهور أوضاع الناس في الإقليم لتعود إلى سابق عهدها.

27

استعباد الفتيات والنساء الايزيديات

فجأة ظهرت جماعة إرهابية مسلحة باسم (داعش)، تكاثرت كـ «الكمة» في مناطق متعددة من العراق وقد سيطرت عليها. كان الأزيديون المتضرر الأكبر من الهجمات الإرهابية لداعش فقد تعرضوا إلى هجوم هولاء الأوباش على غفلة وهم في نوم عميق وقد وثِقوا بالقوات المسلحة التي تحرس **شنكال** منذ سنوات. بيدَ أن تلك القوات لم تطلق ولو طلقة واحدة في مواجهة تلك العصابة، بل أنهم وقبل الشروق هربوا وبذلك سلموا شنكال لداعش، فوقعت الآلاف من الفتيات والنساء الأزيديات أسيرات لديهم، اغتصبوهن وجعلوا منهن جاريات باسم الدين الاسلامي، ووزعوهن على أمرائهم ومسلحيهم، كما تم بيع بعضهن وكأنهن جواري في أسواق مدينة الرقة والسعودية وتركيا.

كنتُ أخرج يومياً بسيارتي وأقف أمام كراج بغداد منتظراً وصول المسافرين، وفي أحد الأيام وبينما أنا أنتظر أمام باب الكراج قبل شروق الشمس وقفت سيارة لاندكروز من النوع الحديث جداً زجاجها أسود بجانب سيارتي، نزل سائقها وقال:

معي سيدتان عربيتان من سكان بغداد، هل يمكنك إيصالهن إلى بغداد؟

أجبتهُ :

خرجتُ من بيتي باكراً ساعياً لكسب رزقي اليومي فلا مانع لدي، شرط الحصول على أجرتي كاملة.٪ مَدَ يده إلى جيبه وسلمني مبلغاً من المال وقال:

كُنَّ في ضيافة المسؤولين سأعتبرهنّ أمانة لديك وأرجو أن تقوم بإيصالهنّ إلى المكان الذي ترغبنه، أجبتهُ:

حسناً، سأنفذ ما تطلبنه.

نَزلنَ من سيارة «اللاندكروز» وصَعدنَ إلى سيارتي بعد أن استلمت أجرتي مقدماً، ثم توجهتُ في طريقي إلى مدينة بغداد.٪ منذ لحظة خروجي من نقطة تفتيش مدينة أربيل حتى وصولي إلى ناحية **آلتون كوبري**، كانتا تتحدثان فيما بينهن باللغة العربية، تُقهقهان بين الحين والآخر.

كان طريق بغداد طويل جداً ويحتاج السائق إلى من يُحدثه، خاصة أني كنت أشعر بالتعب لأني لم أنم جيداً في الليلة الماضية. لذلك بدأت بالتحدث معهنّ علني أتخلص من النعاس الذي تملّكني. أخيراً التفتُ إليهُنْ وتحدثت باللغة العربية قائلاً:

لا تنظرا إلى ما أرتديه من الملابس الكردية، لقد عشت مع الأخوة العرب فترة طويلة وأُجيد اللغة العربية مثلكنَّ ويمكنني مُشاركتنّ الحديث والضحك.

ما أن أنتهيت من حديثي حتى التفتت المرأتان إلى بعضهما وقلن متعجبات: اعتقدنا أنك لا تفهمنا لذلك كنا نتكلم بحرية.

ـ وماذا في الأمر، الطريق طويل وسنستغرق زمناً حتى نصل إلى بغداد، لذلك في أرغب مشاركتكن الحديث.

التفتت إحداهن نحوي وقالت:

ـ لكنه حديث خاص، ليس من الضروري أن تعرفه.

ـ الفضول يأكلني، يبدو من ضحككن أنه أمرٌ مفرح، لا تحرمنني الضحك يكاد قلبي ينفطر من الهموم، راتبي التقاعدي لا يكفي وقد تراجع عملي على التاكسي أيضاً، فأنا أعمل يوم وأتعطل يومين، أرجوكما أن تضحكاني معكما. التفتْ صديقتها إليها وقالت:

ـ الرجل محق، لنتحدث معه فهو لا يعرفنا كي نخشاه.

قالت ذلك ولم تنتظر جواب صديقتها فبدأت بالتحدث قائلة:

ـ لن أُخفي عليك، نحن بائعات هوى نسكن في بغداد، كنا في حضرة مسؤول كبير هنا وأقمنا عنده لمدة أسبوع في قصر مزرعته الواقعة على أطراف مدينة **أربيل**، **وكان هذا المسؤول معنا طيلة هذه المدة**، كنا خلال مدة إقامتنا معه نعمل له المساج كما أنه رغب أن يُمارس الجنس معنا، لكنه وكأنه كان مسحوراً طيلة الوقت فلم يتمكن من فعل شيء.

ـ سمعتُ بأن من يرغب بممارسة الجنس وتخونه قواه يستعمل أقراص الفياكرا، لمَ لم تنصحاه باستخدامها؟

ـ نصحناه، بدا أن لديه خبرة كبيرة في هذا الشأن، اعتذر مُبرراً رفضه بسبب ذكريات مريرة نتيجة استعمال الفياكرا سابقاً.

ازداد فضولي وسألتها:

ـ ألم تعرفي ما هذه الذكرى المريرة؟

ـ بلى، لقد أخبرنا أنه وصديق له كانا ذات مرةٍ مُنشغلان بممارسة الجنس، حدثَ أن صديقه أكثر من استخدم الفياكرا وقد دفع حياته ثمناً لإسرافه.٪ لذلك هو الآن يخاف من استخدامها.

ـ إذن لم تحصلا أتعابكن خلال هذه السفرة؟

وهي تضحك:

ـ الأمر بالنسبة لنا سيان، إن تمكن هؤلاء أم لا نحصل نحن على حقوقنا، لذا قبضنا حقوقنا ونغادر الآن.

ـ إذن أنتما تضحكان هذا المسؤول الذي أُحرج أمامكما.

ـ لا ليس هذا فقد صادفنا أمثاله كثيراً، اعتدنا على ذلك.

ـ وما سبب ضحككما إذن؟

ـ نضحك على هذا المغفل لقد أعطانا دفتراً من الدولارات ولم يقدر أن يفعل شيئاً.

وأنا أقهقه:

ـ يبدو أن هذا المسؤول كان كبيراً في السن لذلك لم يتمكن من فعل شيء، وإلا فأنتما جميلتان ورشيقتان تُشبهان الحوريات اللاتي يتكلم عنها الائمة على منابر المساجد.

ـ نعم، يبدو أنه تجاوز السبعين من عمره، لكنه صبغ شعره وشاربه فاعتقدنا أنه ما يزال شاباً.٪ وكأنه نسي أنه لم يعُد يملك أية رصاصة ليُطلقها .

ذكرني حديث هاتين الفتاتين برباعيات الشاعر شيخ رضا الطالباني، فالتفتتُ إليهما وترجمتها لهم إلى اللغة العربية، فضحكتا كثيراً.٪ قالت

إحداهن:

«كاكه، لماذا أنتم الكورد عقولكم منشغلة دائماً بأعضائكم وتظهرون ضعفاً أمام المرأة»؟

ـ هذه نقطة ضعفنا، فلا تكفينا أموال الدنيا كما لا تكفينا بائعات الهوى.

وصلنا إلى بغداد مع المساء، أوصلت المرأتين إلى حي الكمالية ثم عدت إلى شارع أبي نواس كي أتناول السمك المشوي، وبعد أن أخذت قسطاً من الراحة توجهت إلى كراج النهضة انتظر عله يأتي من يرغب في السفر إلى مدينة أربيل.

لم يمض وقت طويل حتى حضرت شابتان ألقتا التحية وطلبتا العودة إلى كردستان.

ـ تتكون كردستان من محافظات عدة، أين تريدان الذهاب بالضبط؟

ـ إننا من سكان قرية **كوجو** التابعة لقضاء **شنكال**، لقد احتل مسلحي داعش قريتنا لهذا نريد العودة إلى مدينة **دهوك**، لربما عثرنا على أحد من أقاربنا ومعارفنا في إحدى المخيمات هناك.

ـ لكني سأذهب إلى مدينة أربيل.

ـ نعلم ذلك، لأننا لم نجد في هذا الكراج سوى سيارتك سنعود معك إلى أربيل ومن هناك ننطلق إلى مدينة **دهوك**.

ـ وماذا كنتما تفعلان هنا، بينما احتل داعش قريتكما؟

ـ قصتنا طويلة جداً لا تُروى بسهولة، نحن منذ ستة أشهر لم نر أحد من أهلنا وأقاربنا ولا نعرف ماذا حصل لهم وما إذا كنّا سنراهم ثانية أم لا.

ـ جئتُ إلى بغداد بالصدفة، وصلت قبل قليل، بعد أن أوصلت سيدتين من سكان بغداد إلى هنا، قصدتُ الكراج كي أرى إن كان هناك مسافر أو اثنين، سيكون ذلك أفضل من العودة وحيداً، فالطريق طويل وممل لإنسان وحيد. ويبدو أن الله قد أرسلكما إلي، تفضلا واجلسا في الخلف لننطلق، ربما صادفنا شخصاً أو اثنين في الطريق وأخذناهما أيضاً. عندما انطلقتُ وخرجت من نقطة تفتيش (الراشدية) التفت إلى الامرأتين الايزيديتين وقلت:

ـ بناتي، لقد أخبرتماني أن قصتكما طويلة جداً فهلاَّ قصصتماها عليَّ لأعرف ما الذي جاء بكما إلى هُنا.

بدأت إحداهن الحديث قائلة:

ـ أنا رنا وعمري خمسة وعشرون عاماً والتي بجانبي وفاء وعمرها إحدى وعشرون عاماً ونحن من سكان قرية **كوجو**، في الثالث من شهر آب 2014 هاجم مسلحوا داعش قريتنا، هُناك مَن أسعفه الحظ وتمكّن من الهرب نحو جبل **شنكال**، بينما نحن لم يسعفنا الحظ مع أننا هربنا، لكن وقبل وصولنا إلى جبل شنكال أمسك بنا بعض العرب من القرى المجاورة وسلمونا إلى مسلحي داعش.

هكذا أخذونا مع الآخرين من نساء ورجال قريتنا والقرى الأخرى المتاخمة لمنطقتنا إلى مدرسة داخل شنكال وسجنونا فيها، وضعوا الرجال في الطابق العلوي ووضعونا نحن النساء في الطابق الأوسط وبعد مرور ساعة اقتادوا الرجال إلى الخارج في مجموعات ورموهم بالرصاص أمام أعيننا.

تمزّق قلبي لحديثها، فسألتها:

ـ ألم تعرفي لماذا قتلوهم يا بُنيتي؟

بعين دامعة أجابتني:

ـ كان بينهم أبي وأخي أيضاً، أخذوهم أمام عيني ورموهم بالرصاص، بكيتُ كثيراً حينها وصرختُ محتجة على الداعشي الذي كان يراقبنا: بأي ذنب قتلتم هؤلاء؟.

أجابني: إنهم كفرة، يعبدون الشيطان ويُشركون بالله، يجب أن يُقتلوا ويُنظف الدين الإسلامي منهم.

سألتها:

ـ وماذا فعلوا بالنساء؟

ـ بعد أن قتلوا جميع الرجال، نقلوا النساء والأطفال بالباصات إلى مدينة الموصل وكانوا يعتدون علينا طيلة الطريق. حين وصلنا اقتادونا إلى إحدى مقراتهم وهناك جمعونا في قاعة كبيرة وبعد نصف ساعة بدأوا بعزل البنات عن النساء، والنساء اللاتي كُنّ يبلغن أكثر من ستين عاماً عزلوهن وأخذوهن إلى الخارج، ثم عرفنا بعد ذلك بأنهن قُتلن كما قُتل الرجال من قبلهن.

ازداد حزني لما مروا به وسألتهن:

ـ لا أفهم يا ابنتي لماذا قتلوهن أيضاً؟

ـ كُنا أنا وأمي نُمسكُ بيد بعضنا بقوة من شدة خوفنا منهم إلى أن جاء واحد منهم وأبعدني عنوة عن أمي ودفعها بعنف إلى الخارج هي ومثيلاتها في السن.٪ بكيتُ كثيراً وأردت اللحاق بها، لكن الداعشي رفع السلاح بوجهي قائلاً:

إن لم تتراجعي سأقتلك أيضاً.٪ حينها ازداد بكائي ورجوته قائلة:

ـ إنها أُمي التي أُحبها كثيراً ماذا فَعلتْ لتقتلوها؟

ـ إنهُنّ مسنات لا ينفعن للنكاح ولا للزواج لذلك من الأفضل قتلهن.

استرسلت رنا في حديثها قائلة:

ـ ارتميتُ تحت قدميه باكية ورجوته ألا يفعل. بيد أنه كان قاسياً وعديم الوجدان وهددني مجدداً أنه سيقتلني إن لم أكف:

« أنتم لا تفقهون شيئاً من الشريعة الإسلامية؟ أنتم الأزيديون كفرة تعبدون الشيطان وتُشركون بالله.٪ وأنتِ احمدي الله أنك شابة وتنفعين للنكاح والزواج وإلا كُنّا قتلناك معها».

ـ أعلمُ يا ابنتي أنك تتلوين حُزناً، لكن سامحيني لفضولي ماذا قصدوا بأنك تنفعين للزواج والمسنات لا ينفعن؟

وهي تبكي قالت:

ـ يا خالي إن هؤلاء أبعد ما يكونوا عن البشر، إنهم للوحوش أقرب، جاؤوا من بلدانهم بدافع الجنس، لذلك كان تركيزهم على الشابات وأكثر ما كان يعجبهم الفتيات دون السادسة عشر من العمر.

ـ وماذا حدث بعد ذلك يابنتي؟

ـ كان عددنا يقارب مائتين وخمسين من الصبايا والنساء، بعد عزل النساء عنا، بقينا ستون فتاةً في القاعة وكانوا يتجولون بيننا بين فترة وأُخرى والتي تعجبهم يمسكونها من يدها ويأخذونها إلى الغرفة المقابلة لاغتصابها هناك.

ـ ماذا تقولين...يفعلون ذلك أمام أعينكم؟!

ـ حينما كانوا يتجولون بيننا كان قلبي يخفق بشدة، وكنتُ أقول في

نفسي (جيد أني لستُ جميلة كالأخريات وإلا لكانوا أخذوني أيضاً) كانت بجانبي فتاة في العاشرة من عمرها، جاء داعشي كبير في مثل عمر جدها وأمسك بيدها كي يأخذها معه، أمسكتني الفتاة من يدي بقوة وهي تبكي وتتوسلني:

ـ أرجوكي لا تسمحي له أن يأخذني، أنا أخاف منه كثيراً.

فخاطبتهُ علَّ قلبه يلين:

ـ هل أنتم مسلمون، أين ضميركم؟ متى أعطاكم الله الحق أن تفتروا على الناس هكذا، إلى أين تريد أخذ هذه الطفلة؟

ـ ليس عليها أن تخاف، ستكون بمثابة ابنتي.

وهكذا أخذها معه.٪ وبعد مرور فترة وجيزة عادت وهي تمشي بإعياء شديد وقد ارتمت في حضني وبدأت تبكي بحرقة، لاحظتُ الدم يسيل من بين فخذيها!

ـ ماذا فعل بك هذا الداعشي؟.

وهي تُشير إلى ما بين فخذيها قالت:

ـ لقد اغتصبني.

تنفستُ بعمق وسألتُها:

ـ لم تُخبريني، كيف نجوتم منهم، هؤلاء الوحوش؟

ـ اصبر قليلاً، سأُخبرك، ألم أقل لك أن قصتُنا طويلة، قد نصل إلى أربيل وقصتنا لم تنته بعدُ.

ـ اعذريني يا ابنتي، إنها المرة الأولى التي أسمع فيها قصة كهذه، لو أني سمعتها من شخص آخر لما صدقتُ أبداً. فأنا أعرف أنه قبل ألف وأربعمائة عام، عندما هاجم جيشُ المسلمين اليهودَ في قرية خيبر وبني قريضة، قتلوا الرجال واستباحوا النساء ووزعوهن على مقاتليهم على أنهن غنائم حرب، لكن ذلك كان منذ زمن بعيد، لم أتوقع أن يتكرر ذلك الآن؟

ردتْ وفاء:

حين أخبرناهم بما نعرفه عنهم، برر أمير الدواعش تصرفهم حينها قائلاً:

ـ لقد مضى زمن طويل منذ أخر مرة جرى فيها نشر الدين الإسلامي، جميع الشعوب التي أشركت بالله أُبيدت أو اعتنقت الدين الإسلامي، أما أنتم فما زلتم تعبدون الشيطان وتُشركون بالله، لذلك ينبغي قتل رجالكم، والزواج من نسائكم وبناتكم ليتطهرن.

ـ اعذريني لكثرة أسئلتي يا ابنتي، ألم تُخبريه أنه لا يجوز في الدين الاسلامي الزواج بامرأة مُحصنة وأن الله نهى عن الزنى، فكيف يتطهر الإنسان بالزنى؟!

ـ عندما أخذني أحدهم لأول مرة وقبل أن يغتصبني فرش سجادة الصلاة وصلى ركعتين، وحينما انتهى من صلاته ردد قائلاً: (الله أكبر.. الله أكبر) مرتين بصوت مرتفع، ثمّ فعل فعلته وعاد إلى سجادته مرة أخرى وصلى ركعتين كالمرة السابقة ثم ردد ثانية (الله أكبر..الله أكبر)، وبعد ذلك رفع يديه إلى السماء وقال (الحمدلله).

لقد قلت لهذا الداعشي أنتم لستم مسلمون، متى كان الاعتداء على الآمنين يُرضي الله، ماذا يعني أن تُصلي لله وتحمده على اقترافك الفاحشة؟!.

أجابني قائلاً: نحن حين نمارس النكاح والجنس مع المُشركات أمثالكن، نكون أكثر قرباً من الله وتُعتبر هذه أفضل عبادة نقوم بها، لهذا نصلي ونحمد الله على ذلك.

استدرتُ إلى رنا وخاطبتها:

ـ يا ابنتي، لم تُكملي ماذا حدث لكم بعد ذلك وكيف نجوتم؟

ـ أنا ووفاء سكان قرية واحدة، حين أخذونا إلى الموصل، وزعونا على مسلحيهم فافترقنا عن بعضنا أصبحت كل منّا في مكان مختلف، لكن أخيراً التقينا في مدينة **الفلوجة**.

ـ وما الذي أوصلكما إلى الفلوجة؟

ـ كما أخبرتكَ سابقاً، هؤلاء الدواعش أتوا إلى العراق وقد تركوا بلدانهم من أجل إشباع شهواتهم، كانوا يبقون مع كل واحدة منّا فترة وجيزة، ثمّ يتبادلوننا بينهم أو يبيعوننا لقاء مبالغ زهيدة ليشتروا أُخرى. وهكذا بعد أن تنقلنا من يد إلى أخرى شاء القدر أن نُسعد بلقاء بعضنا في مدينة الفلوجة.

ـ بربك حدثيني كيف حدث ذلك؟

ـ كان الداعشي الأخير والذي اشتراني بمبلغ ستين دولاراً في مدينة الموصل، أوربياً يتكلم اللغة الإنكليزية، كان سيئاً جداً معي، يأتيني كل ساعة، يُنشب أنيابه في خدودي ويَمُص ثدياي ثم يعضهما. في أحد الأيام أخبرته أني أمر بفترة الحيض وتوسلته أن يتركني إلى أن أتطهر، لكنه لم يهتم، تابع على عادته يأتي كل ساعة ويحتسي كأسين من الكحول ثم يُباشرني كالحيوان، فلم أعُد أحتمله وقررتُ الهرب.

ذات مساء وكان قد شرب إلى أن سَكِرَ، استغليتُ الظرف وهربتُ من الباب الخلفي، لكن أمسك بي الحُراس وأعادوني له مرة أخرى.

ـ ماذا فعل حين أعادوكِ له؟

ـ ضربني بشدة ثمّ أدخلني إلى غرفة صغيرة وقدمني لحراسه قائلاً: أُهديكم جاريتي هذه استمتعوا بها حتى الصباح كما ترغبون.

لم أعلم كيف مضت تلك الليلة، وقد تناوب الدواعش عليّ إلى أن فقدتُ الوعي، حينما أفقتُ كنتُ أنزف بشدة. بعد ذلك قدّمني الداعشي الأوروبي إلى أحد أمراء الدواعش، وقد جعلني هذا الأخير مع امرأة أخرى في بيته، كان يخرج نهاراً ويعود في ساعات متأخرة من الليل، وكان يُشدد الأوامر على المرأة التي معي قائلاً: (احرسيها لكي لا تهرب وإلا عاقبتك).

كان يعود ليلاً ويطلب مني قائلاً: اذهبي إلى الحمام اغتسلي وتزيّني كي تكوني جميلة ـــ يسلمني مجموعة من الملابس الشبه العارية ـــ عندما تخرجين من الحمام ارتدي من هذه الملابس وارقصي وغني لي.

يستمر هكذا، يحتسي الخمر ويسمعني وينظر إليّ أن يمل مني، ثم في المكان نفسه كان يضاجعني أمام المرأة الطباخة. من شدة استيائي حاولت الانتحار مِراراً، حتى أني أمسكتُ بالسلك الكهربائي المكشوف في الحمام، لكنه كان بدون كهرباء.

بعد عدة أيام أخذني هذا الأمير معه إلى مدينة الفلوجة، تركني في أحد البيوت هناك وأمرَ الحراس قائلاً: احرسوها جيدا كي لا تهرب.٪ عاد بعد أسبوع ومعه صديقتي وفاء عندما رأيتها فرحتُ كثيراً وسألتها:

ـ ماذا تفعلين مع هذا الداعشي؟

ـ وماذا تفعلين أنت معه أيضاً؟

ـ لقد استلمني كهدية منذ مدة وقد أتى بي إلى هنا.

ـ أنا أيضاً مثلك قدموني له هدية.

إن قصة هاتين الفتاتين مأساوية جداً لدرجة أني اندمجتُ مع أحداثها، ولم أنتبه للقيادة كما يجب، فلم أعلم كيف اقتربتُ من بعقوبة.

استدرتُ إلى وفاء وطلبتُ منها أن تروي ما حدث معها كما فعلت رنا:

تنهدت وقالت:

ـ قِصصنا مُتشابهة، وأنا مثلها منذ أن هجم الدواعش على قريتنا وسيطروا عليها، أخذوني وباعوني واشتروني عدة مرات، كان الداعشي الأول الذي اغتصبني أمريكياً، اعتاد على ربط يديَّ وساقاي قبل أن يمارس الجنس معي. وبعد أن مَلَّ مني باعني إلى آخر من أصول روسية مارس معي الجنس مدة ثم باعني إلى داعشي تركي.٪ وبمرور شهر على ذلك باعني هذا الأخير إلى داعشي سعودي ليفعل بي ما يشاء لمدة شهرين، وأخيراً أهداني هذا إلى الأمير الذي أتى بي إلى **الفلوجة**، وقد التقيتُ عنده رنا التي أسعدتني رؤيتها.

ـ لكن لم أعرف كيف تمكنتما من التخلص من هؤلاء المفترسين؟

ـ ذات ليلة تلقى الأمير الذي كنّا عنده، مخابرة هاتفية فخرج على أثرها مسرعاً وقبل أن يخرج أمر الطباخة قائلاً:

اعتني بهاتين الجاريتين الأزيديتين واحرصي ألا تهربا إلى أن أعود من الرقة.

حينها فكرنا بأن غيابه فرصة ذهبية للهرب، في وقت متأخر من الليل حرصنا أن تكون الطباخة نائمة، كسرنا نافذة غرفة نومنا وخرجنا

معـاً، تمكنّـا مـن الوصول إلى بيت سـكانه عرب **سُـنّة**، رجوناهـم كثيراً أن يُغيثونـا ويُنقذونا مـن محنتنا.

ـ لكن يا ابنتي، ألم يسلمكم ذلك الرجل إلى الدواعش مرة أخرى؟

أجابت وفاء قائلة:

ـ شـدة رجائنـا وبكائنـا أنـا ورنـا أثّـرت بـه، ورقّ قلبـه فأوانـا في بيتـه لثلاثـة أسـابيع، ثم سـاعدنا على اسـتخراج هويتين مزورتين باسـم الدولة الإسـلامية وأحضر لنا طقمين من الملابس النسـائية التي تلبسـها نسـاؤهم وأوصلنـا بسـيارته الخاصـة إلى منطقـة قريبة مـن مدينة بغـداد وقال:

(هـذه الحـدود الأخـيرة لسـلطة الدولـة الإسـلامية، مـن هنـا سـيروا عـلى الأقـدام إلى أن تصلـوا إلى أطـراف بغـداد ومن هناك اسـتقلوا سـيارة تأخذكـم إلى قلـب بغـداد).

شـكرناه كثـيراً وأخبرنـاه أننـا لـن ننسـى معروفـه مـا حيينا ـ جـزاه الله خـيراً عـلى عملـه الصالـح معنـا ـ وهـا نحـن الآن معـك نريـد العـودة إلى أهالينـا، ولكـن أي عـودة؟ لقـد فقدنا كل شيء، سـنعود جسـد بلا روح.

ـ لِمَ تقولـين ذلـك يـا ابنتـي؟ الحمـد لله أنكـما عائدتـان إلى أهاليكـما مرفوعتـي الـرأس، لا تحزنـا عـلى مـا حصـل معكـما، ليـس لكـما يـد فيـه، ولم تنامـا مـع هـؤلاء الوحـوش برغبتكـما لتشـعرا بالخجـل. لقـد كنتـما في عـز النـوم حينما هجـم عليكـم داعـش، والحفاظ عـلى حياتكـم وشرفكم كان مـن واجـب الجيـش الـذي وكِّلَ إليـه حمايـة **كوجووشـنكال**، لذلـك لـو تكلمنـا عـن العـار لـكان علينـا أن نلـوم مَـن هـرب وترككـم فريسـة للذئـاب.

قالت وفاء:

ـ أشكرك على شعورك النبيل، لكن لا يفكر الجميع كما تفكر أنت، وأفواه الناس ليست فتحة في الجدار لنملأها بالشمع ونسدها.

ـ لمعلوماتكم يا بناتي، لقد أصدر الشيخ الكبير ـ المرجع الديني لدى الأزيديين ـ فتوى أَكّد فيها بأن النساء والفتيات اللواتي كُنَّ جارياتٍ لدى الدواعش وقد أُغتصبن واستعبدن من قِبلهم، ضحايا ولا ذنب لهنَّ وقد تعرضن للظلم. كما أكدّ بأنهن طاهرات وسيبقين طاهرات. وطلب من الأيزيديين ألا ينظروا إليهن باستخفاف فهن أهل للاحترام.

امتنت كلٌ من رنا ووفاء وشعرتا بسعادة وفرح كبيرين لما قلته، فتبادلا النظر وتبسمتا وقالتا:

ـ خالنا العزيز نشكرك جزيلاً لإعلامنا بهذا الخبر المفرح، فنحن على الرغم من الآلام التي عانيناها على يد الدواعش إلا أننا كنّا نحمل هم كلام الناس.

******

حين اقتربنا من منطقة سليمان بيك، أشار لي جندي عراقي كي أتوقف، توقفتُ وسألته باللغة العربية: إلى أين تريد أن تذهب؟

أجابني باللغة الكردية قائلاً: يا خالي العزيز أنا عائد إلى مدينة أربيل، فقلتُ له اصعد، مضت مدة والجندي صامت وأنا أيضاً، لكن أسئلة كثيرة تزاحمت في رأسي، فلم أتمالك نفسي إلا أن التفتتُ إليه وقلتُ: عندما كنت في مثل عمرك واستدعيتُ للخدمة في الجيش العراقي، لم أتحمل البقاء لأكثر من شهور وفررتُ. كان جيلنا يكره الخدمة العسكرية، أذكرُ، استُدعينا مرة أخرى للخدمة في الحرب العراقية الإيرانية في الثمانينيات، حينها أيضاً كنّا نفر نحن الكرد جماعات، إلى أن وصل الحال بالحكومة أنها يئست منا وأصدرت قراراً بإعفاء جميع الجنود الكرد من الخدمة العسكرية.

ـ أفهمك، تريد القول أنه حينما كانت الخدمة إلزامية أنتم فررتتم، والآن والخدمة غير إلزامية وأنت جندي في الجيش العراقي بإرادتك.

ـ صحيح، أتعجب أنك تخدم في الجيش العراقي عوض أن تكون في صفوف الجيش الكردستاني.

ـ لا تتعجب أبداً يا خالي، هناك كثر مثلي وآخرون لو سنحت لهم الفرصة سيقلدوننا، لكن ظروفهم لا تُساعدهم ولكل منهم سببه الخاص.

ـ لماذا؟

ـ ابنك (وكان يقصد نفسه) كنتُ جندياً في الجيش العراقي منذ سنوات مضت، تنعمتُ حينها براتب جيد، إضافة إلى مخصصاتي من الملابس والطعام، لكني تغابيتُ وسمعتُ نصيحة بعض الأصدقاء ففررتُ من الجيش والتحقتُ بقوات البيشمركة، خدمتُ في صفوفهم لمدة سنة تقريباً، عانيتُ خلالها من الجوع الشديد والحاجة لقلة الرواتب والاقتطاع منها في حال توفرت وعدم انتظام توزيعها.

ـ أحقاً ما تقول؟

ـ نتيجة ذلكَ تغير راتبي بالمقارنة مع ما كان وأصبح أقل من النصف، وطعامي تغيّر من الأرز واللحم إلى البطاطا أو الطماطم بالدهن، كما أني كنتُ بخطين(نائب عريف) باستحقاقي، بينما كان هناك مَن هو أُميٌ لكنه حزبي كبير وهذا سبب كافٍ لتمتلئ كتفه بالنجوم وتلقي التعليمات وأنا أُحيه التحية العسكرية لأنه أعلى مني رتبة.

ـ ماذا فعلتَ إذاً ؟

ـ لم أتمكن من العيش بذلك الراتب القليل لذلك عدتُ إلى وحدتي العسكرية في بعقوبة، وقصدتُ آمر الوحدة وتوسلتُ إليه أن يقبل

عـودتي والحمـد لله بعد كل مـا ذقته من عـذاب، أخذتُ وضعـي الطبيعي الآن، أشـعر بـأني ولـدتُ مـن جديـد وأُقسـم بـالله ألا أُكـرر هـذه الغلطة طالمـا حييتُ.

وصلنـا إلى مدينـة أربيـل، نـزل العسـكري في الكـراج. التفـتُ أنـا إلى الشـابتين الايزيديتـين ودعوتهـن قائـلاً: أرغـب أن تنزلـن ضيوفـاً أعـزاء في بيـت خالكـما، تتناولـن الطعـام معنـا وتسـترحن وتغتسـلن وتُبدلـن ملابسـكن، أرغـب في أن تبقيـا معنا وبعد الاسـتراحة أصحبكـما إلى كراج دهـوك وأُأجـر لكـما سـيارة توصلكـما إلى مخيـمات اللاجئـين الشـنكال.

بسعادة قالتا:

ـ إنـك رجـلُ طيـب، كنـت بمثابـة المخلّـص لنـا، لـن نرفـض طلبـك سـنرافقك إلى بيتـك، نحنُ أيضـاً لا نرغب في العـودة إلى أهالينا بهذا المنظر البشـع والملابـس الممزقة.

هكـذا اصطحبـتُ الفتاتـين إلى بيتنـا، عندمـا طرقـتُ البـاب فتحت لي زوجتـي، حـين رأت الفتاتـين صُدمـت لكنهـا لم تتكلم، أخبرتهـا أن هاتين الفتاتـين الجميلتـين تمكنتـا مـن الهرب مـن داعش وسـتنزلان ضيوفـاً لدينا هـذه الليلـة. زال اسـتغراب زوجتـي فاحتضنتهـما وقبّلتهما وأبـدت سروراً لوجودهمـا قائلـة: أهلا بكـما بناتي أنتـما في بيت خالتكما تفضـلا ولا تخجلا. ورافقتهـما إلى الغرفـة وزودتهما بملابـس نظيفة وطلبت منهما الاغتسـال إلى أن تُحـضّر طعام العشـاء.

بينـما دخلتـا إلى الحـمام، تمـددتُ أنـا في الغرفة لأخذ قسـط مـن الراحة، إلى أن انتهـت زوجتـي مـن تحضـير المائـدة، جلسـنا جميعنـا معـاً وتناولنـا طعـام العشـاء. أثنـاء ذلـك سـمعنا بـث قنـاة تلفزيـون (سي. إن . إن) الأمريكيـة باللغـة العربيـة كان موضـوع البـث عن **ناديـة مراد** تلـك الفتاة الأيزيديـة التـي نجت مـن براثن داعـش، كانت تتحدث في جلسـة عقدها

مجلس الأمن الدولي لبحث مسألة (التجارة بالإنسان أثناء الصراعات) بتاريخ 16/ 12/ 2015، قدمت فيها نادية مراد كلمة مؤثرة جداً، طالبت فيها المجتمع الدولي تكثيف جهوده من أجل إنقاذ الأسيرات من النساء الأزيديات وأطفالهن والذي يتجاوز عددهم ثلاثة آلاف وأربعمائة إنسان، حيث يتعرضن يومياً إلى شتى أنواع العنف على يد الظالمين، كذلك طالبت بوضع حد لسياسة التصفية العرقية والدينية والاستعباد والرق وعدّ ذلك كله تصفية عرقية وتقديم المتهمين إلى المحكمة الدولية، كما طالبت بتحرير القرى والمناطق الأزيدية.٪ وأن يقوم المجتمع الدولي بواجبه في حماية تلك المناطق ليتمكن الأيزيديون والأقليات الأخرى من العيش بسلام في أرضهم، وفي الختام طلبت من الدول الأخرى فتح حدودها للاجئين الأزيديين والقضاء على داعش نهائياً ومحاكمة المجرمين وتقديمهم إلى محكمة العدل الدولية كي تحيا النساء والأطفال في العراق وسوريا ونيجيريا والصومال والبلدان الأخرى بأمن وسلام.

بعد هذه المقدمة ظهرت مذيعة القناة التلفزيونية الأمريكية وهي تقول: لنستمع معاً إلى كلمة نادية مراد وهي تتحدث لأعضاء مجلس الأمن الدولي عن معاناتها منذ لحظة أسرها حتى لحظة تحررها.

ظهرت نادية مراد صوتاً وصورة على الشاشة وهي تروي الأحداث بعيون دامعة قالت:

في يوم 3/ 8/ 2014 هاجمت عصابة داعش منطقتنا، قتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال وجعلوهم غنائم يبيعونهم بثمن زهيد ويتاجرون بهم.

فبعد مرور إثني عشر يوماً على احتلال قريتنا كوجو جمعنا الدواعش في إحدى المدارس، وقد عزلوا الرجال عن النساء والأطفال، ثم

أعدامـوا الرجـال رميـاً بالرصـاص أمامنا نحـن الأسرى، كان بينهم سـتة مـن أخـواني، ثلاثة منهم فقط تمكنـوا من النجاة من هـذه المجزرة الجماعية.

بعـد ذلـك نقلـوا النسـاء والأطفـال والبالـغ عددهـم مائـة وخمسـون شـخصاً بالباصـات إلى مدينة الموصل، كانـوا يعتدون علينا طـوال الطريق دون حيـاء. حـين وصلنـا إلى هنـاك، جمعونـا في قاعـة كبـيرة، ثـم دخـل أميرهـم برفقـة عـدد مـن المسـلحين وبـدأوا بالتجـول بيننـا وهـم ينظرون بعيـون نهمـة وكان أميرهـم يقـرأ الآيـة القرآنية:

(حُرمَـتْ عَليكُـم أمهاتكـم... والمحصنـات مـن النسـاء إلا مـا مَلكَت أيمانكم) ـ بمعنى يُحرم عليكم نكاح أمهاتكم والنسـاء المتزوجات باسـتثناء مـن هُنّ ملك لكم ـ ثم اسـتدار إلى العصابة التي كانـت برفقته وخاطبهم: هـؤلاء يعبـدون الشـيطان ويشركـون بـالله، إنهـن غنائـم حـرب وحـلال عليكـم ويمكنكـم أخذهـن، إنهُـنّ جاريـات لكـم افعلـوا بهـن ماشـئتُم.

عندهـا اقـترب منـي أحـد هـؤلاء الدواعـش وأراد أخـذي معـه، كان ضخـماً ومُخيفاً يشـبه الوحش، خفتُ منـه كثيراً، وبدأت بالبـكاء وصرختُ بـه قائلة:

دعنـي فأنـا صغيرة وأنـت ضخم جـداً، حينها أوسـعني ضربـاً وابتعد عنـي، ليقـترب آخـر، كان أصغـر منـه بكثـير، توسـلت إليـه أيضـاً أن يتركنـي وشـأني، لكنه أخـذني رغماً عنـي وأرادني أن أتزوجـه، أخبرته بأني مريضـة جـداً وفي فـترة الحيـض، لكنـه لم يأبه لوضعـي بل أنـه أجبرني على التزيّـن لـه وارتـداء ملابـس مُغريـة تكشـف أكثر مما تسـتر، في تلـك الليلة المشـؤومة اغتصبنـي، ولم يقـف عنـد هـذا بـل كان يقلـل مـن شـأني دائـماً ويُجـبرني عـلى ارتـداء ملابس شـبه عاريـة، ولم يكن يبـالي إن كنـتُ بصحة جيـدة أو مريضـة، يُـمارس معـي الجنـس متـى أراد. إلى أن فقـدتُ القـدرة

على التحمّل وعزمتُ على الفرار، لكن حارساً أمسك بي وأعادني إليه، فما كان منه إلا أن وضعني في غرفة صغيرة ونادى على كل الحراس وخاطبهم قائلاً:

ـ هي لكم، تمتعوا بها.

في تلك الليلة فقدتُ وعيي من وحشيتهم . عندما أفقتُ، كنتُ مريضة جداً ومنهارة، فما كان منه إلا أن أخذني من يدي وسلمني إلى داعشي آخر مقابل بضع دولارات.

على هذا المنوال تم بيعي عدة مرات خلال ثلاثة أشهر فقط، واغتُصبتُ لمرات لا حصر لها إلى أن تمكنتُ أخيراً ـ بمساعدة عائلة عربية من السنة في الموصل ـ من الهرب، وها أنا الآن في ألمانيا أتلقى الرعاية الطبية.

كان حديث نادية مراد مؤثراً جداً، ما جعلني انسجم معها وأنسى ضيوفي، حين التفتتُ إليهن وجدتهما تتابعان شاشة التلفزيون مثلي ودموعهما تتقاطر على خدودهما.

ـ اعذروني يا بنات، نسيتكم، يبدو أنكما تابعتما نادية مراد مثلي.

ـ نعم، إنها من قريتنا أيضاً وأُسرت معنا، لكن بعد توزيعنا على الدواعش في الموصل، افترقنا ولم نعد نعلم شيئاً عن بعضنا.

ـ اغسلا وجوهيكما وانسيا الحزن، طالما أن قضيتكم وصلت إلى مجلس الأمن الدولي، فأني أتأمل أن تتحرر منطقتكم في المستقبل القريب، وأن يُلاقي هؤلاء الدواعش عبَدة الظلمات مصيرهم المحتوم، وتعودون أنتم الأزيديون إلى أرض أجدادكم.

لقد كان لحديث نادية مراد أثراً كبيراً في الرأي العام العالمي، فلم يمض عليه فترة وجيزة حتى استطاعت قوات التحالف الدولي مجابهة الإرهاب والإرهابيين وتحرير **شنكال** منهم، وخلال احتفال رائع جرى بتاريخ 16/ 9/ 2016 منحت فيه منظمة الأمم المتحدة الضحية نادية مراد لقب سفيرة النوايا الحسنة، كما منحها البرلمان الأوربي جائزة (ساخاروف) تُمنح هذه الجائزة سنوياً لمن كان لهم دور فعال في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان على المستوى العالمي.

مع أن قضية الايزيديين شهدت تطوراً كبيراً، إلا أن هناك آلافاً من الأطفال والفتيات والنساء الايزيديات باقون تحت رحمة قوى الظلام ولم يتحرروا للآن.

28

ملجأ الأمل .. ؟!

عـدتُ مـرة أخـرى إلى كـراج الجنـوب، صعد معـي عدد من مسـافري مدينـة السـليمانية، فتوجهنـا نحـو مدينة الكفـاح والتضحية، كانـت إمرأة جميلـة جـداً تجلـس في الخلـف ضمـن المسـافرين، تطلـب منـي بـين الحين والآخـر الإسرع كـي نصـل باكـراً، وكلـما زدتُ السرعـة ازداد إلحاحها في الإسراع كـي نصـل مبكرين!!.

غضبـتُ منهـا بشـدة، ولـولا الحيـاء لأنزلتهـا من السـيارة وأعـدتُ لها نقودهـا، لكنـي تمالكـتُ نفـسي ولم أُجبها، وهي تـردد هذه العبـارة طوال الطريـق وكأنها تعلـك علكة.

اقتربنـا مـن قضـاء جمجـمال وتوقفنـا في أحـد المقاهي كـي نأخذ قسـطاً مـن الراحـة، تحدثـتُ معهـا وقلـت لها:

ـ يـا ابنتـي أمـا تعبتـي مـن تكـرار طلبك كـي أزيـد السرعة، كـدتُ أن أصطـدم بصخـرة من شـدة غيـضي. بـررت طلبهـا قائلة:

ـ أريـد الوصـول إلى المحكمـة قبـل أن تُقفـل أبوابهـا. حـددوا لي اليـوم للفصـل في قضيتـي ولـو تأخـرت سـيؤجلونها شـهراً.

ـ قضيتك...! وما هي؟

ـ طلبتُ الانفصال عن زوجي.

ـ ما زلتِ شابة لو لم تقولي أنك متزوجة لما توقع أحد أنكِ زوجة، لماذا ترغبين في الانفصال؟

ـ باعني والدي مقابل المال وأجبرني على الزواج من أحد مسؤولي الجحوش إنه في عمره وله ثلاث زوجات أُخريات.

ـ ولم الاستعجال؟

طالما أجبروك على الزواج، إن تأخرتِ أو لا ستنتهي القضية، (لم يحترق خبزك) ولن تموتي من الجوع في بيت أبيك، الانتظار أفضل لكِ.

ـ لو كان لديَّ مكان ارتاح فيه لما تعجلتُ.

ـ أليس والداك على قيد الحياة؟

ـ بلى، كلاهما باقيان، لكنهما لا يؤيداني في رغبتي بالإنفصال عن زوجي خوفاً منه.

ـ ماذا تقولين يا ابنتي وقد انتهى حكم صدام والبعثيين فلن يتمكن زوجكِ من ظلمكم ثانية. عليه أن يُمسك بقبعته كي لا تقذفها الرياح بعيداً، هناك أوامر بحق مسؤولي الجحوش في قضايا الأنفال، وإن كان اسمه مطلوب سيتم إلقاء القبض عليه.

انحبست الدموع في عيني هذه المرأة وهَزَتْ رأسها وقالت:

ـ يا خالي، يبدو أنك لا تعيش في هذا البلد، أ تعتقد بأنه عديم السلطة مثلي؟

ـ ماذا تقصدين؟

ـ إنه الآن آمر جيش وليس رئيس الجحوش، ويتمتع بسلطة أقوى مما كان سابقاً.

حزنت من أجلها كثيراً، لكن لم يكن بيدي حيلة، قلتُ لها:

ـ يمكنكِ المبيت في أربيل في بيت الأمل إنه مأوى النساء والفتيات اللواتي لا يمتلكن المأوى، سجلي اسمك هناك وعيشي فيه كالملكات.

زاد كلامي من غضبها وردَّت بصوت مرتفع:

ـ لولا أنك بعمر أبي لأسمعتُك مالا تتوقعه على كلامك هذا.

ـ لم أقصد الإساءة لكِ يا ابنتي، أعلم أن ذلك المكان لن يكون مثل بيتك لكن أفضل من البهدلة.

ردّت بغضب:

ـ أتريدني أن أمتهن الدعارة مثل العاملات هُناك؟.

غضبتُ منها بشدة، نهضتُ من مكاني وخاطبتها:

ـ أنا كوالدك، ألا تخجلين من قول هذا؟ هل تعلمين ما معنى ذلك؟ هل تعتقدين أني قواداً؟

كان يجلس قريباً منا أحد الركاب، توسط بيننا وهدأنا قائلاً:

أعلم أن هناك سوء فهم بينكما، تكلما كي أعرف لِمَ غضبتما؟

التفتُ نحوه وقلت له:

هذه المرأة المنكوبة لديها مشكلة مع زوجها وتريد الانفصال عنه وليس لديها مكان تأوي إليه، فاقترحتُ عليها أن تذهب إلى بيت أمل وتسجل اسمها هناك لتعيش كالملكات. أردتُ الخير لها، لكنها لم تستح واتهمتني أني أريدها أن تمتهن الدعارة مثلهم.

بمجرد أن انتهيت من حديثي، التفتَ إليها غاضباً وخاطبها:

ـ وما العيب في ذلك؟ لقد اقترح ما فيه مصلحتكِ، صدق القدماء حين قالوا: خيراً تفعل شراً تلقى.

أجابت المرأة المنكوبة وهي تبكي:

ـ لماذا لا تفهموني؟ لقد كنتُ هناك، مكثتُ فيه لأسبوع، أعلم ما يحدث فيه أكثر منكم.

تعتقدونه استراحة ومأوى للاجئين، أنا لستُ منحرفة ولا ساقطة كي لا أهتم بما يحدث حولي.

صُدمتُ مما قالتهَ وسألتها:

ـ ماذا تقولين؟ أعرفه دار إيواء، أيُعقل أن يعلموا المنكوبين الذين يقصودنهم على الدعارة ؟

أخرجت منديلاً من حقيبتها، ومسحت دموعها، ثم استدارت نحوي وقالت:

ـ أعتذرُ منك يا خالي، أنا نادمة على تأنيبي لكَ، لم أكن أعلم بأنك مثلي لا تعرف شيئاً عن هذا المكان.

ـ لم أفهم شيئاً يا ابنتي، ممكن أن توضحي أكثر. ماذا يحدث هُناك؟

ـ المشرفين والمراقبين هناك يعملون كقواد لصالح المسؤولين ويوقعون بالنساء الجميلات، فقد طلبوا مني ممارسة الدعارة، لكني فضحتهم ومسحتُ بكرامتهم الأرض ثم غادرت المكان.

اعتذرت منها أنا أيضاً:

ـ يا ابنتي كيف لي أن أعرف بأنهم منحرفين ويُتاجرون بشرف المنكوبين أمثالكِ تحت غطاء هذا الاسم المقدس، ليفضحهم الله في الدنيا والآخرة.

عندما رجعتُ من السليمانية، لم تُفارق تلك المرأة المسكينة عقلي طوال الطريق، حزنتُ لحالها كثيراً وكنتُ أفكر ماذا يريد المسؤولين من هذا الشعب المنكوب، ألم يكتفوا بأنهم سطوا على قوت الناس وحياتهم، ويريدون سلبهم شرفهم أيضاً.

من شدة حزني في تلك الليلة لم يغمض لي جفن حتى الصباح، ولم أتمكن من الإفطار، أردتُ الخروج بسيارتي للعمل، عملي كسائق للأجرة كان بلاءً لي، فالهم الذي كنتُ أعانيه أُضيف إليه هموم الناس أيضاً، لأني كنتُ أستمع يومياً إلى مئات القصص المأساوية.

29

حديقة المدينة

تركتُ العمل كسائق أجرة واقتنعت بالمال القليل الذي كنت أستلمه من الراتب التقاعدي، أقبضه كل بضعة أشهر وكأنهم يمنون علينا به.

كنت أتوجه في المساء إلى متنزه المدينة فأُشغل وقتي مع أصدقائي المتقاعدين نلعب الشطرنج أو الطاولة. كان لدي صديقان تعرفت عليهما أثناء أداء فريضة الحج قبل سنوات، أحدهما عقيد متقاعد في الجيش العراقي ويشغل مدير نادي هذه الحديقة والآخر عقيد شرطة متقاعد وأصبح محاسباً في نادي الحديقة، كنت أزورهم أغلب الأيام أحتسي معهم الشاي وهم يقصون عليّ سيَر عجيبة، وقبل الغروب أعود إلى بيتي.

في أحد الأيام روى لي رئيس النادي حدث مر به، قال:

ـ سنة 1962 كنت مفوضاً في أحد مراكز الشرطة في منطقة ميركه سور، وصلتني برقية من مدير شرطة لواء أربيل، طلب فيها مني إلقاء القبض على أحد المتهمين بالقتل وكان هذا المتهم مقرباً من السلطة. كنت أعرف هذا المتهم عن قرب ومتأكد أنه القاتل فعلاً، لكنني لم أجرؤ على التحقيق معه لأن له نفوذ ومؤيدين في المنطقة، لذلك حين وصلتني البرقية تغاضيتُ عنها ولم أُجبْ.

بعد عدة أيام وصلتني برقية سريعة من قِبَل بدر الدين علي متصرف لواء أربيل، طلب مني المثول أمامه فوراً. فاتصلت بمدير شرطة أربيل وسألته:

ـ لماذا طلب حضرة المتصرف حضوري لديه؟

ـ طلب حضوري أنا أيضاً، لا أعلم ما غرضه ولِمَ طلب حضورنا معاً؟

في اليوم نفسه عدتُ إلى مدينة أربيل، وتوجهتُ إلى المتصرف برفقة مدير الشرطة. حين رأنا المتصرف وعوض أن يرد التحية، شتمنا كثيراً، والتفت إليّ قائلاً:

ـ وضعناك في ذلك المكان لتُلقي القبض على المجرمين أم لتغض عنهم النظر وتتجاهلهم؟

ـ سيدي لا يمكنني القبض على ذلك المتهم.

غاضباً:

ـ اذاً سأنقلك إلى جنوب العراق.

ـ لا بأس ياسيدي، الجنوب أيضاً في العراق، وأنا حينما تعينتُ تعهدتُ بالخدمة في أية منطقة من العراق.

فما كان منه إلا أنه استدعى سكرتيرهُ وقال له:

ـ أصدروا كتاباً لهذا المفوض كي يتم نقله إلى لواء الناصرية فوراً.

هكذا نقلوني إلى ناحية الدوّاية في قضاء الشطرة من لواء الناصرية.

عندما ذهبتُ إلى هناك، أحسست بضيقٍ كبير، كنتُ حزيناً لأنهم جميعاً عرب لم أعرف أحداً منهم وأنا الكردي الوحيد، لكن حزني لم يدُم إذ سرعان ما حضر إلينا مدير ناحية كردي من أهالي **آكري**، ذهبتُ إليه وعرّفته بنفسي ورويت له سبب نقلي. فقال:

ـ لا تحزن هناك كرد آخرون، فمتصرف الناصرية كردي أيضاً، إضافة إلى عاملين آخرين في دوائر الشطرة ومدينة الناصرية.

ـ لكن هؤلاء حضروا برغبتهم بينما نُقلتُ أنا دون إرادتي، زوجتي وأولادي في مدينة أربيل بأمس الحاجة إليَّ، ولا يُمكنني إحضارهم إلى هنا لأن الحياة هُنا صعبة للغاية.

ـ صحيح أن هذه المدينة عربية، لكن الناس فيها طيبون جداً ويحبون الكرد كثيراً. بإمكانكَ العمل معي في مقر الناحية هنا وعندما تستقر سيكون بمقدوركَ أن تأتي بزوجتك وأولادك أيضاً.

استمر مدير نادي حديقة المدينة في سرد قصة نقله إلى ناحية الدوّاية، وكنتُ أنا استمع إليه يدفعني الفضول لمعرفة النتيجة. لذلك حين توقف عن الحديث وتنهّد بعمق، سألته:

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟

تابع قائلاً:

ـ تم نقلي إلى الأهوار وعُرفت بأنها منطقة سياحية، يعيش سكانها حياة بسيطة يستخدمون القوارب الصغيرة لتنقلاتهم وللصيد أيضاً، كوّنت صداقات كثيرة، كنتُ أُرافقهم كل مساء في قواربهم نصطاد السمك وفي بعض الأحيان نصطاد الطيور البرية باستخدام بنادق الصيد. هكذا، اعتدتُ على الحياة هُناك وأحضرت عائلتي أيضاً فكنّا نعيش في وئام.

التفت محاسب حديقة المدينة نحوي وقال:

ـ اسأله ما الذي حدث بعد ذلك؟

ـ وماذا يُمكن أن يحدث أكثر؟

ـ دعه يروي لك ما حدث.

فالتفتُ إلى مدير النادي وسألته:

ـ أيُعقل أنهم نقلونك إلى مكان أبعد؟

ـ وهل هناك منطقة أكثر بُعداً من جنوب العراق؟

ـ ماذا حدث إذاً؟

ـ كان هناك مُعلم كردي منقول من رواندز إلى قضاء الشطرة بسبب موقفه من حكومة عبد الكريم قاسم. وكان يعرف مدير ناحيتنا فبدأ بزيارته في تلك الفترة، فكانا يجتمعان معاً في مجلس الخمر ويذهبان معا إلى الناصرية في أيام الخميس بحثاً عن بائعات الهوى ويعودان في اليوم التالي.

بعد مُدة نَقل ذلك المعلم خدماته إلى ناحيتنا، وبذلك توطدت علاقته بمدير الناحية أكثر، فكان يزوره في أغلب الأيام ويبقيان معاً لساعات، لم أكن أعلم عن ماذا كانا يتكلمان وما نوع علاقتهما، اعتقدتُ أن ما يجمعهما الخمر واللهو، لكني اكتشفتُ بعد ذلك أن ذلك المعلم هو المسؤول الحزبي لمدير ناحيتنا وأنهما يتحدثان في السياسة. شدّني حديث مدير النادي كثيراً.

ـ غريب أمرهما، وما الذي يستطيعان فعله للكرد وهما في جنوب العراق، هل كانا ينويان القيام بثورة؟

أجاب مدير النادي:

ـ لا، بل كانا يُخططان لمؤامرة قذرة، لقد كنتُ ساذجاً، حينما علمتُ بالأمر كان قد فات الأوان وقد ورطانا أنا وكاتب الناحية.

لم أتمالك نفسي، فقلتُ:

ـ أيُعقل أنهما لفّقا لك تهمة الاتصال بالثورة الكردية كي يتم القبض عليك ؟

ـ لا، ليته كان كذلك، لكنتُ الآن أتفاخر وأقول أني عوقبت لأني كردي، للأسف، اكتشفنا أنهما كانا ينهبان رواتب منتسبي الناحية، فأعوض أنا النقص ـ لأني المحاسب ـ من راتبي الذي فيه قوت عائلتي وأولادي خَجِلاً أُعيده إلى الحكومة.

بدأت روايته هذه تصبح أكثر تشويقاً فانشددتُ إليها أكثر فأكثر، سألتُ مدير النادي:

ـ أتعلم ما تقوله؟ إنك تتكلم عن المدير وهو أعلى منك منصباً، أيُعقل أن يسرق أحدٌ نفسه؟ تنهّد مدير النادي متحسراً وصمت للحظات، ثم وجّه الحديث إليّ قائلاً:

ـ من حقك ألا تصدقني، ومتصرف الناصرية أيضاً لم يصدّقني وحوّلني إلى المحكمة للتحقيق معي.

ـ لقد أثرتَ فضولي بروايتك هذه، أخبرني عن التفاصيل.!! ماذا حدث بعد ذلك كيف استولوا على هذه الأموال وماذا فعلوا بها؟

تابع مدير النادي:

ـ في يوم الخميس من نهاية شهر أيلول سنة 1962 أرسل مدير الناحية الكاتب إلى قضاء الشطرة لجلب رواتب المنتسبين، أذكر أن كاتب الناحية عاد من الشطرة وقت الظهيرة ومعه المال، لكن اعتذر مدير الناحية عن توزيع الرواتب بحجة تأخر الوقت، فطلب أن يتم وضع الأموال في الخزينة الموجودة في غرفته لتوزع على المنتسبين يوم السبت. وبعد ذلك قال لنا: «عودا إلى منزليكما لترتاحا، وسنذهب ـ قصد نفسه وصديقه المعلم ـ إلى الناصرية ونبيت هناك هذه الليلة».

تركناهما وغادرنا إلى بيوتنا، فكسرا باب الخزينة وأخذا راتب شهر كامل إضافة إلى جميع الأموال المحفوظة فيها وذهبا إلى الناصرية.

ـ وكيف عرفتم ؟

ـ عندما توجهتُ إلى عملي يوم السبت، انتظرت كثيراً وصول المدير لكنه لم يحضر، وراجعني منتسبوا الناحية أنا وكاتب الناحية من أجل قبض رواتبهم، لكن بلا جدوى، انتظروا كثيراً إلى أن انتهى الدوام الرسمي. وهكذا في اليوم الثاني والثالث والمدير لم يظهر.

فسألتُ مدير النادي:

لِمَ لم تُخبروا الجهات العُليا؟

ـ في اليوم الثالث أعلمتُ قائم مقام الشطرة بالموضوع ورويت له الأحداث بالكامل. فألقوا القبض علينا أنا وكاتب الناحية على الفور وحققوا معنا. وجّهوا إلى كاتب الناحية تهمة التقصير لأنه لم يوزع الرواتب في اليوم نفسه، ولأني كردي اتهموني بأنني على دراية بالمخطط، ثمّ أفرجا عنّا بكفالة واستقطعا الراتب المسروق كله من راتبي أنا وكاتب الناحية شهرياً إلى أن استردوا المبلغ المسروق.

ـ أكيد أثر ذلك الاستقطاع على معيشتكم؟

ـ إلى أن أعدنا المبلغ تدهور وضعنا المعاشي، فكنّا نعيش في تقتير وعوز، لكن تعرّض كاتب الناحية إضافة إلى استقطاع المبلغ من راتبه إلى جلطة دماغية وفقد بصره أيضاً.

ـ وماذا عن مدير الناحية والمعلم الذي كان معه، ألم تعرف مصيرهما وأين ذهبا؟

ـ علمتُ لاحقاً أنهما التحقا بالثورة الكردية.

ـ ألم تلتقِ بهما خلال هذه المدة الطويلة كي تطالبهما بحقك؟.

ـ قبل فترة وجيزة وبعد مرور أربع وخمسين سنة على ذلك الحدث،

التقيتُ بمديـر الناحية السـابق، هنا في النـادي مع بعـض أصدقائه يلعبون الطاولة، توجهت إليه ومسحتُ بكرامته الأرض.

ـ كيف تجرأت على فضحهِ، ألم تخف من حُراسه؟

ـ لقـد استلم مسـؤولية جهـاز حسـاس جـداً ضمـن الثـورة الكردية، بعـد انتكاسـة الثـورة توجـه إلى أمريـكا ليعمـل جاسوسـاً. وبعـد سـقوط نظـام البعـث قـام بزيـارات عـدة إلى كردسـتان، لكنـه مُهمّـش يتمنـى أن يُلقـي عليـه أحدهم السـلام.

ـ وصديقه المعلم الذي شاركه السرقة ألم تراه؟

أجـاب: لا، لكنـي سـمعت بأنـه بعـد التحاقـة بالثـورة الكرديـة مـع مديـر الناحيـة، بقـي هنـاك أكثـر مـن سـنتين، لكن عنـد الانشـقاق، ترك كردسـتان وغـادر إلى خـارج البـلاد.

فقلتُ : كل هذه المدة الطويلة ماذا يفعل في الخارج ؟

ـ لقـد حصـل عـلى اللجـوء في ألمانيـا الشرقيـة وحصـل عـلى شـهادة الدكتـوراه في القانـون وعـاد في عـصر النظـام السـابق إلى العـراق، حيـث كان يعمـل مـع عـددٍ ممـن كانـوا عـلى صلـة بالمخابـرات العراقية وأسسـوا حـزب كارتـوني باسـم الحـزب الثـوري الكردسـتاني واسـتلم خـلال هذه الفـترة العديـد من المناصـب والوظائـف البـارزة ولخوفي منـه لم أتمكن من المطالبـة بحقي.

ـ ولماذا لم تطالبه بعد الانتفاضة ؟

ـ لقـد كان واعيـاً وعلـم كيـف يسـير مـع الوضـع، فانضـم سريعـاً إلى تنظيـمات حـزب كارتـوني جديـد، لذلك لم أتمكـن من ملاحقته لاسـترداد حقـي، لكنـه أخـيراً تـرك ذلك الحزب وغـادر إلى خـارج البلاد، اسـتطاع هـذه المـرة الحصـول على اللجـوء في سـويسرا وهـو الآن يعيـش هناك.

ـ ألم يعد خلال هذه الفترة إلى كردستان؟

ـ سمعت بأنه يعود مِراراً منذ أن بدأت زوجته بتهميشه.

وبينما كنا منشغلين بالحديث، دخل علينا رجل طويل القامة يرتدي سترة وبنطال مع ربطة عنق حمراء وعلى رأسه قبعة خاكية اللون وكأنه أجنبي، وجه سلامه وهو يلتفت إلى مدير النادي قائلاً:

ـ ألم تعرفني؟

صُدم المدير برؤية الرجل، توجه إليه بالكلام قائلاً:

ـ تحدثوا عن الذئب، فظهر أمامهم. ثمّ التفت إليّ وقال:

ـ هل تعلم من هذا الأفندي؟

ـ لا.

ـ إنه المعلم الذي سرق المال مع مدير الناحية.

حينها ارتبك الأفندي وقال:

ـ ألا تخجل مما تقول، لقد فعلتُ ذلك من أجل رفع شأنك أنت وجميع الأكراد، وبدلاً من أن تحترمني ها أنتَ تُحقرني.

ـ لم تفعل معي معروفاً كي أحترمك عليه، أنت ومدير الناحية ضحكتما علينا وقلتما أنكما ذاهبان إلى الناصرية، بيدَ أنكما سرقتما راتب الموظفين وتسببتما بسجننا.

ـ لستُ مسؤولاً عن سَجنكما، لقد استولينا على هذا المبلغ من أجل الثورة الكردية لنرفع رأسك أنت وكل الأكراد، بيد أنك تتهمنا بالسرقة، ما هذه الإهانة التي توجهها إلينا أنا والمدير السابق لناحية الدواية؟

احمرت عينا مدير النادي من شدة الغضب، وقال:

ـ أُكرر كلامي، لقد سرقتما المال لصالحكما، وبسببكما قبضت الحكومة علينا واستقطعت ذلك المال من رواتبنا أنا وذلك المسكين، لقد عرضتني وعائلتي إلى ظرف معاشي عسير.

كانت هناك لوحة معلقة خلف مدير النادي، مكتوب عليها : (كل مَنْ ناضل من أجل كردستان .. سيوثق التاريخ إنجازاته) قرأ ـ الأخ ـ الأفندي اللوحة والتفت إلى مدير النادي وخاطبه:

ـ الحقيقة إن كل مَنْ ناضل من أجل كردستان .. سيوثق التاريخ سيئاته وليس إنجازاته، لذا بدلاً من الاعتزاز بي وبما أنجزت توبخني وتقلل من احترامي!

ـ لم تريا شيئاً بعدُ، تظنان أن يدي لا تصلكما لأنكما خارج البلاد، سأشكوكما إلى المحكمة وأطالبكما بالمال الذي سرقتماه بغير وجه حق وقد دفعنا ضريبة ذلك أنا وأولادي، الشرطة الدولية ستُعيدكما إلى كردستان وأُدفعكما ذلك المال فلساً فلساً.

قال ذلك وخرج غاضباً وهو يتمتم، أخطأتُ أني أتيتُ إليك.

في الوقت نفسه أطل أحد أصدقائي برأسه من الباب وخاطبني:

ـ جيد أني وجدتُك هُنا، هل ترغب بأن نجلس في الحديقة ونلعب الطاولة معاً؟

ـ نعم، أرغب في ذلك. لم ألعب الطاولة منذ مُدة، لكن على ماذا سنلعب ؟

ـ لا شيء.

ـ لن نستمتع إن لم نلعب على شيء ما.

أدخل يده إلى جيبه وقال:

ـ وهل في الجيب أي مبلغ كي نلعب عليه؟ حكومتنا الكردية هذه حلبتنا كما تُحلب الشاة، وباسم التوفير استولت على أموالنا مثل اللص، ولم تدعنا نرتاح في أواخر أعمارنا.

ـ إنك محق، ولولا عملي على التاكسي لكان جيبي خالياً أيضاً، مع أني تركتُ ذلك العمل الآن.

ـ لماذا تركته، ألم يكن أفضل من كونك عاطلاً عن العمل؟

ـ تركته لسببين، أحدهما ضعُفت عينيّ ولم تعد لي صحة الشباب، كما أني رغبت في الابتعاد عن المشاكل، والتاكسي جعلت الناس يحضرون إليّ بمشاكلهم، فيُضيفون على همومي هموماً وكأني منقذهم، كانت تواجهني أحداث غريبة يومياً، فأعود إلى بيتي وأنا محمّل بالأحزان والهموم.

ذهبنا إلى الحديقة وجلسنا تحت ظل إحدى أشجار التوت وانشغلنا بلعبة الطاولة، جاء الشيوعي خالد الذي ألقى التحية على الحضور وسحب كراسي جلس عليه وشاركنا جلستنا، بعد الترحيب به.

أخبرته:

ـ لقد اقتربنا من وقت الظهيرة، لماذ تأخرتَ اليوم؟

ـ ذهبتُ إلى المصرف لاستلام الراتب التقاعدي ومنحة السجناء السياسيين، وليتني ما ذهبت!

ـ لماذا؟ هل كان المصرف شديد الازدحام؟

ـ لا، لقد كان اليوم الثاني الذي تُوزع فيه رواتب المتقاعدين، لهذا لم

يكـن المـصرف مزدحماً، واسـتلمتُ راتبي بسرعـة، لكني رأيـتُ أحدهم.. مَـرآهُ قلّبَ عـليَّ المواجع.

ـ ومَن يكون الذي عكّر مزاجك في هذا الصباح الباكر؟

ـ مَـنْ رأيتـه كان آمـراً في أحد مفارز الأمـن زمن الحـرس القومي، وقد وشـى عني حينهـا للبعثيين فألقـوا القبض عليّ.

ـ إن كان سيئاً جداً، لماذا هو حُرّ ولم يُسجن للآن؟

ـ أي سـجن! إنـه الآن أفضـل حـالاً منـي ومنـك، هـل تعلـم سـبب وجـوده في المـصرف؟

ـ أيُعقـل أنـه حضر ليتسـلم الراتـب التقاعـدي المقرر له من قبـل النظام السابق؟

ـ لا، ليـس هـذا، إن أخبرتـك لـن تصـدق وسـيتوقف عقلـك عـن التفكـير.

ـ وهـل جـاء لسـحب المال الـذي أودعـه المصرف.(المال الـذي تقاضاه مقابل الوشـاية عـن الكثير مـن الأكـراد الأبرياء)؟

ـ لا، بل أعجب من هذا بكثير!

ـ أكادُ أخـسرُ اللعبـة معـك، أخـبرني حـالاً وإلا توقـف قلبي من شـدة الفضول.

ـ اكتشـفتُ أنـه أُحيـل إلى التقاعـد بمنصـب أعـلى ممـا كان عليـه في ظل حكومتنـا، وقـد أُضيفـت سـنوات خدمتـه السـابقة (حـين كان موظفاً في الحـرس القومـي إلى زمـن إسـقاط النظام السـابق).

التفـت صديقـي ـ الـذي كنـت ألعـب معـه ـ إلى الرفيق خالد وقـال له:

ـ دعك من هؤلاء، إن الذين خدموا في نظام البعث وتسببوا في أذية الناس، ينعمون الآن في ظل حكومتنا ويتقدمون علينا. أمثالهم كُثر، أخبرنا عن نفسكَ، لماذا سُجنت في زمن الحرس القومي؟

بحسرةٍ أجاب:

ـ لا أرغبُ أن أُسبب لكم الصداع، سأخبركم بإيجاز، سُجنت وأُفرج عني مرات عدة، وبعد ذلك سُجنت مرة أخرى بتاريخ 1/ 7/ 1963 بعد انقلاب 8 شباط، حيث أُلقي القبض عليّ مُتلبساً وفي يدي بيان يحثُ الجماهير على مجابهة حكومة البعث والحرس القومي، أخذوني مباشرة إلى غرفة التعذيب، التقيتُ فيها بعدد من الشيوعيين المسجونين، مارس البعثيون معنا أقسى وسائل التعذيب الوحشي، كان في ذلك الوقت (**همزه كردز** و**عبدالله جماس** و**أحمد سليمان الراوي** و**طالب الشاتي** و**خالد درويش المصلاوي**) كانوا ينفذون عمليات التعذيب في ذلك المكان..

ـ وإلى أين أخذوكم بعد ذلك؟

ـ بعد أسابيع أخذونا إلى المحكمة العرفية في كركوك وهناك رأيتُ حسن ملا كريم وسلام ملا كريم وهما أبناء ملا عبد الكريم المدرس، وقد أُلقي القبض عليهما أيضاً، لأنهما كانا يؤمنان بالفكر اليساري. استرسل الرفيق خالد في حديثه قائلاً: أخيراً حُكم علينا بالسجن لمدة أربع سنوات، بتهمة خلق الفوضى والاضطرابات، قضينا تلك الفترة في سجون الموصل والعمارة.

ـ جيدٌ أن السجن والتعذيب الذي تعرضتَ إليه لم يذهبا هباء وأنهم أكرموك، في حين أني بقيت معهم إلى وقت انتكاسة الثورة ولم يقدموا لي شيئاً.

ـ هل كنتَ مُنتسباً إليهم؟

ـ لـو أنهـم لم يسـتولوا عـلى سـيارتي في مديرية السـدود، لمـا قبضتْ عليّ الحكومـة ولا هربـتُ إلى الجبـل لأبقـى إلى وقت انتكاسـة الثورة.

ـ إذن أنت من عناصر بيشمركة أيلول، لماذا لم يمنحوك راتباً تقاعدياً؟

ـ راجعـت مجلـس الـوزراء عـدة مـرات، لأجـل إجـراء تغيـيرات عـلى راتبـي التقاعـدي، لكـن دون جدوى، حتى أني اسـتعنتُ بمَن يتوسـط لي لأجـل مقابلـة رئيـس مجلس الـوزراء كي أطلب منـه ذلك شـخصياً، لكنه لم يسـتجب لطلـب المقابلـة وقـال لي سـكرتيره حينهـا، أنـه لا وقـت لديه كـي يقابلنـي، في حـين أني رأيت بأم عينـي عاهرة تدخـل إلى مكتبهِ وبدون أن يكـون لديهـا موعد مسـبق، وقد اسـتلمت منه شـيكا بمبلـغ 250 ألف دينار مكافـأة لها.

ـ ألم تقـل أنـك تركت العمـل على التاكـسي لأنك لا تريـد الاطلاع على مشـاكل الناس التي تُسـبب لـكَ الحزن؟

ـ نعـم هـو كذلـك، لكـن الأمـر خـارج سـيطرتي، فقـد ذكـرني كلام الرفيـق خالـد بجُرحي القديم وجعلنـي أقصُ عليكم هـذه الذكرى المؤلمة.

هكـذا قضيـتُ ذلـك اليـوم في حديقـة المدينـة ثـم عُـدت إلى البيـت، عندمـا وصلـت إلى الحـي الذي أسـكن فيـه، رأيـت الناس ملتمـين رجالا ونسـاء، اقتربـت منهـم وسـألت أحدهـم:

ـ ماذا حدث؟

ـ توفي الأسطة عدنان قبل بُرهة.

ـ يُقـال بـأن الـدواء الـذي تناولـه في المستشـفى كان منتهـي الصلاحية، مـا سـبب له انحلال في دمـه، لذلك أرسـلوه إلى الأردن مـن أجل علاجه.

أجاب أحد الجيران:

ـ تأخروا في إسعافه، وصل إلى الأردن بعد فوات الآوان. وقد مات اليوم.

ـ يجب معرفة مَنْ زود المستشفى بأدوية منتهية الصلاحية.

ـ هذه ليست المرة الأولى التي تحدث فيها هذه الأمور في كردستان، الذين يُدخلون هذه الأدوية الفاسدة شركاء مع بعض المسؤولين، وهم مَنْ يقضي على حياة الناس، فمن نجا من القصف الكيمياوي لنظام البعث، يقتله هؤلاء باستخدام الأدوية منتهية الصلاحية.

بينما نحن نتحدث في هذا الشأن، جلبوا جثمان المتوفي وتوجهوا إلى جامع الحي، فرافقتُ الآخرين إلى المسجد، ما إن وصلنا حتى وضعوا التابوت في حجرة المسجد، وبحثوا عن الإمام من أجل إقامة صلاة الميت، لكن الإمام كان مسافراً وقد ترك إماماً آخر مكانه، بيد أنه لم يكن موجوداً أيضاً، قال الإبن الأكبر للأسطة عدنان: سأذهب في الحال كي يأتي معي، فأنا أعرف بيته.

بعد مرور فترة وجيزة، عاد ابن الأسطة عدنان برفقة أحد المُعممين، توجه المُعمم إلى الجنازة وطلب من الحضور الاصطفاف لأجل إقامة صلاة الجنازة على المرحوم.

عندما اقتربت من الإمام ودققتُ في ملامحه، تعرفتُ عليه، إنه الذي تحّرش جنسياً في حجرة المسجد بطفلٍ من ذوي الاحتياجات الخاصة، كان أبواه قد أرسلاه بهدف أخذ الدروس الدينية هناك.

لقد صادف وجود الشيخ أحمد صاحب التكية، حيث كان واقفاً خلف ذلك المعمم (الإمام) لأجل المشاركة في صلاة الجنازة، اقتربت منه وهمستُ في أذنه: كاكة (شيخ) صلاتنا خلف هذا المعمم غير مقبولة، فقد قبضوا عليه عارياً يتحرش بطفل ناقص العقل منذ سنوات في هذا

المسجد، وقادوه إلى مركز الشرطة، ثم أرسلوه إلى المحكمة وحُكم عليه بالسجن لسنوات واستُبعد من مهنته. أتعجب منه، يظن نفسه إماماً ويريد أن يُقيم صلاة الجنازة على هذا الميت ولا يخجل من نفسه ولا من الله!

حين أنتهيتُ، أخذني الشيخ أحمد على انفراد وقال:

ـ ماذا تقول... لو علمتَ بما رأيته من أمثال هذا المُلا لما صدقت؟.

ـ وكيف ذلك؟

ـ هل تذكر حين اجتمع صدام حسين سنة 1979 بمجموعة من رجال الدين وأئمة الجوامع من الكرد؟

ـ طبعاً، وكأن ما جرى حدث البارحة. كان مُلا من مدينة السليمانية مُشاركاً في الاجتماع وقد طلب من صدام حسين أن يُجري مفاوضات مع قادة الثورة الكردية وقد تحدث باللغة الكردية قائلاً: (تصالح مع الثوار في الجبل، هؤلاء الذين يحملون السلاح ضد الحكومة، وامنح الكرد حقوقهم لكي لا تسيل دماء الأبرياء هباء وبلا أي مبرر).

ـ وهل تتذكر الملا قرداغي وهو إمام وخطيب جامع **كاك أحمد الشيخ**؟ كان حاضراً أيضاً في ذلك الاجتماع، طلب منه صدام حسين: **(ترجم لي حديث هذا الملا إلى اللغة العربية).**

ـ نعم أتذكر ذلك جيداً، لكن الملا قرداغي غيّر بعض الكلمات قصداً، فبدلاً من كلمة الثوار استعمل كلمة المعارضة، لكن صدام حسين أحس بهذا والتفتَ إلى الملا قرداغي وقال له: صحيح أنني لا أتحدث اللغة الكردية لكني أفهم شيئاً منها، فهذا الملا لم ينقل حديثك بأمانة، أرجو ترجمة حديثه كما هو وبدون أي تغيير.

والآن تُكلمني عن هذا، إنها حالنا منذ القديم مع هؤلاء الأئمة.

ـ لِمَ لا يخاف هؤلاء من الله ولا يُعدِّلون من سلوكهم؟

ـ طالما علمتُ أن هذا المُلا لوطي، فلا يجوز الصلاة خلفه. أمسكَ بيدي وأبعدني عن الجنازة وقال: دعني أروي لك حدثاً غريباً في المقابلة نفسها وقد كنتُ معهم حينها، كنّا مدعوين من قبل صدام حسين إلى الطعام في القصر الجمهوري. نقلونا من الفندق إلى القصر الجمهوري بسيارات القصر. وجدنا مأدبة كبيرة فيها الكثير من أنواع الأطعمة والأشربة والفواكه. تناولنا الطعام مع رئيس الجمهورية.

تناول رئيس الجمهورية حينها ملعقتين من الطعام وسحب يده والتفتَ إلينا قائلاً:

(أنا لا أستطيع تناول أكثر من هذا لأني أتبع ريجيم، أشعر أن وزني قد ازداد وبدأ كرشي بالظهور، أما أنتم أكملوا طعامكم إلى أن تشبعوا ولا تخجلوا، ثم تعالوا إلى القاعة لكي نشرب الشاي معاً) ترك صدام حسين المأدبة وجلس في القاعة، البعض من هؤلاء الملالي ورجال الدين أحرجونا بأنهم أكلوا بشراهة كبيرة كمن لم ير طعاماً من قبل، بعضهم كان يضع ورك الدجاج وصدر الدجاج المشوي والموز الصومالي في جيب جبته الداخلية وهو يقول: (ليس لدينا ما نأكله في الفندق، سنأخذ هذا الأكل معنا كي نأكله في الفندق، بدلاً من الذهاب إلى السوق وتناول العشاء على حسابنا).

صُدمت من وقع المفاجأة وسألتهُ:

ـ هل أنتَ جادٌ فيما قلته؟ أم تمزح معي؟

ـ كُنتُ معهم ورأيت كل شيء بعيني.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ كانت هناك كاميرات مراقبة غير مرئية في القاعة، وكان صدام حسين قد شاهدَ ما حدث من خلال شاشة التلفزيون الذي كان أمامه، فأرسلَ إليهم مسؤول حمایاته **أرشد** وطلب منه نقل كلامه (يقول رئيس الجمهورية، خلي لا يوسخوا ملابسهم بالطعام، سنجلب لهم الأطباق السفرية الآن كي يضعوا فيها الأكل ويأخذوها معهم إلى الفندق بسيارات القصر).

ـ ألم يخجل هؤلاء؟

ـ أي خجل، حينما جلبوا الأطباق السفرية ملؤها طعاماً وأخذوها معهم إلى الفندق.

استرسل الشيخ أحمد: لم أكن أرغب في رواية ما حدث لأنه مقزز، لكن قصدي من وراء ذلك أن أخبركَ بأن من يرتدي الجبة ويعتمر العمامة، ليس بالضرورة رجلٌ صالحٌ وسلوكه جيد، فأصابع اليد لا تتشابه، هؤلاء أيضاً منهم الصالح ومنهم الطالح، دع هذا لله هو من يحاسب كل فرد بما يقوم به من أعمال.

أمسك يدي وأعادني إلى الجنازة وقال: من أجلي لا تقل شيئاً، كثيرون لا يعرفون سلوكيات هذا المُلا، لذا هم واقفون خلفه وهو يُصلي، ولا يجوز تأخير هذا الميت أكثر من هذا، وكما قيل (إكرام الميت دفنه).

بعد الانتهاء من الصلاة، أخذوا التابوت وفيه جثمان الأسطة عدنان إلى المقبرة، وكنت من المشاركين في تشييعه إلى أن تم دفنه في مقبرة كسنزان.

في مراسيم الدفن لقّنه المُلا نفسه قائلاً: (يا عدنان ابن فاطمة، ويا عبد الله ابن أمة الله، اذكر العهد الذي خرجت عليه من الدنيا، شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن

الجنـة حـق، وأن النـار حـق، وأن البعـث حق، وأن السـاعة آتيـة لا ريب فيهـا، وأن الله يبعـث مَـنْ في القبـور، وأنـك رضيت بالله رباً، وبالإسـلام ديناً، وبمحمـد صـلى الله عليـه وسـلم نبياً، وبالقـرآن إمامـاً، وبالكعبـة قبلـة، وبالمؤمنـين إخوانـاً) والنـاس المجتمعـين حوله، بعضهـم كان يبكي ويـذرف الدموع مـع حديث المُـلا، والبعض كان يتظاهر بالبكاء ويُمسـك بمنديـل يمسـح بـه وجهه بين الحـين والآخـر وهو يقـول (لقـد تركنا ولن تعـود أبـداً لنكمل حديثنـا إذاً) .

وكنـتُ كلـما نظـرتُ إلى هـذا المُلا أُحـدث نفـسي (لا أحد يـرى عيوبه، لذلـك سـاءت حالنـا، تُـرى كـم ميـت في اليـوم يُلقنه هـذا المُـلا المُخادع؟ والله أعلـم مـاذا لديه مـن سـلوكيات شـائنة أُخرى غـير اللواط)

في هذا الوقت، توجه ابن الأسـطة عدنان إلى المشـاركين في مراسـم دفن الجنـازة بالشـكر قائـلاً: جزاكـم الله خـيراً، نسـتقبل الناس لتقبـل التعازي في جامـع الحـي، نرحـب بـكل من يحـضر ومَـن لا يتمكن مـن الحضور لا نلومـه أبـداً، فـلا يحمّل أحد نفسـه مـا لا تحتمل.

انتشرنـا وذهـب كلٌّ إلى بيته، حين وصلتُ إلى البيـت أخبرتني زوجتي، أن عائلـة المرحـوم، جـيران لنـا منـذ سـنين طويلة ولهـم علينا حـق الجيرة، لذلـك اقترحـت أن أذهـبَ إلى السـوق واشـتري بعـض اللحـم ولـوازم الطبـخ كـي نُعـدّ لهم مأدبـة غـداء الظهيرة.

30

الثورة البيضاء

غسلتُ وجهي من التراب والتعب وأخذتُ قسطاً من الراحة، ثم ركبت الباص متوجهاً إلى السوق، وصلت إلى سوق نيشتمان، رأيت حشد يُثير الضوضاء بالقرب من نافورة بارك نيشتمان، وقد تجمعوا حول أفندي عاري يده على عضوه ويقف بينهم، يصرخ مخاطباً أحدهم:

(إذا كنتَ شجاعاً أيها السافل الزنديق لا تحرق القرآن، تعالى معي لندخل إلى البرلمان، برلمان محتل، وأنت أيها الملا الساقط، أيها المفتي، وأنت أيها المعلم الانتهازي يا عبد الراتب، تقدم أمامي ودع الضيوف والمدرسة والمسجد، واخرج من مكتبك أيها الأمير، اخرج من عزلتك وبرجك العاجي، وأنت أيها العجوز الواقف على أبواب نهايات الحياة والعاجز أمام قوة الشباب، أيها المتقاعد، أيها المثقف، وأنت أيها القس الكاذب، إن كنتَ صادقاً كُن بِلالاً الحبشي، كُفَّ عن إصدار الفتاوى للحفاظ على الأخلاق، ما يُريده الشعب موقف ثابت، عليكم أن تتجمعوا داخل البرلمان وتطالبوا بالعدالة، وليعلم رئيس البرلمان والبرلمانيين وجميع الوزراء ورؤساء الحكومة منذ الانتفاضة إلى اليوم، أن الثورة العارية، الثورة البيضاء قد بدأت) كانت بعض القنوات الإعلامية تنقل هذا الحدث مباشرة على الهواء.

كان المشهد مثيراً، حين اقتربتُ أكثر، تذكرتُ أني رأيته من قبل، إنه الشاعر والروائي نفسه، الذي جمعنا حوله بعد عودته إلى كردستان ـ في فترة الاقتتال الداخلي ـ وطرح علينا فكرة حرق أنفسنا للضغط على طرفي الصراع لإيقاف الاقتتال الداخلي بينهما.

حيث كانا الحزبان الحاكمان يتقاتلان على السلطة وكمرك ابراهيم خليل، أذكر أن هذا الشاعر والروائي كان محمولاً على أكتاف الشباب وهو يُلقي قصائد شعرية ضد طرفي النزاع، كان يصرخ بعلو صوته:

(اتفوه على شرفك يا ابراهيم خليل).

إنه الآن يُعبّر عن غضبه من سياسة تجويع الشعب ونهب النفط وثروات هذا الإقليم، وقد أخرج عضوه كي يتبول على الحكومة والبرلمان وهو يشتم الوزراء وكبار المسؤولين في إقليم كردستان.

حزنتُ عليه كان منظره يُثير الشفقة، سألتُ شاباً بالقرب مني: كان هذا الشخص إنساناً عاقلاً قبل عشرين عاماً، إنه شاعر وكاتب.؟ منذ متى فقدَ عقله؟

أجابني الشاب قائلاً: منذ أن اكتُشف النفط في كردستان، احتدم الصراع بين الأحزاب على السلطة والمال، وأصبح الموظف يتسلم كل شهرين نصف راتبه أو رُبعه. وقد فقدَ هذا الاستاذ زوجته وأبناءه بسبب سوء الأحوال المعاشية، ونتيجة ذلك فقد عقله فصبَّ جام غضبه على الحكومة كما ترى.

سهمتُ في حال هذا الشاعر كيف كان وكيف أصبح، وفكرتُ في نفسي (أينما ولى الإنسان وجهه في بلادنا الخَرِبْ هذا أصابه الهم، تركتُ سياقة التاكسي كي أبتعد عن هموم الناس، إلا أن الهم يلاحقني إلى هُنا أيضاً، حُكامنا لا ضمائر لديهم تُحرك أحاسيسهم).

قصـدتُ بعـد ذلـك سـوق شـيخ الله واشـتريت اللحـم وبعـض المواد والخـضروات، ثـم رجعـتُ إلى البيت على غـير عَجَلْ، وأنـا أُفكر في هؤلاء الحكام طـوال الطريـق، وأُحـدثُ نفسي:

(إن لم يكونـوا بـشراً فـماذا يكونـون؟ هل يمكـن أن يكونـوا حيوانات؟ لكـن الحيوانـات لديهـم أحاسـيس أكثر مـن البشر).

31

العودة إلى نقطة الصفر

وصلتُ إلى البيت، لم أشتهِ الأكل من شدة حزني على ذلك الشاعر والروائي فلم أتناول شيئاً، تمددتُ على الفراش وغرقتُ في بحر الخيال. كان الأولاد يتابعون مسلسل وادي الذئاب وقد خفضوا صوت التلفاز مراعاة لعزاء جيراننا الأسطة عدنان، فجأة ظهر المذيع على الشاشة ونقل خبر مفاده: (وصلنا خبر عن المؤتمر التسعين للاجتماع السنوي لمنظمة التراث والمدنية، **بريت ماكغوك** الممثل الخاص للرئيس الأمريكي لأجل التحالف ضد داعش في جوابه عن سؤال لأحد الصحفيين فيما يخص بالمشاكل التي تواجه جميع أجزاء كردستان، قال:

هناك فرصة تاريخية أمام الكورد الآن لتوحيد مواقفهم، نُدرك أنه من غير الطبيعي ألا يتمكن الكرد من الحفاظ على وحدة حدودهم ووحدة موقفهم، إنهم أمام فرصة تاريخية الآن.

في جزء آخر من كلمته أشار إلى المشاكل الداخلية بين الجهات السياسية في جنوب كردستان، وأعلن مُتأسفاً أن المشاكل الداخلية بين الأحزاب تتعقد يوماً بعد الآخر وأن البرلمان تعطل، وأن صراعاتهم مستمرة ويمكن أن تؤدي إلى فقدان فرص ذهبية كثيرة في هذه المرحلة الحساسة)..

ارتبكتُ عند سماعي هذا الخبر ويئستُ أكثر وفقدت الأمل إذ تذكرتُ فشل ثورة أيلول، كانت لدى حكومتنا كما هو الآن، عشرات الآلاف من مُقاتلي البيشمركة والكثير من الأسلحة، وقد فقدنا كل ذلك في غمضة عين لنعود إلى نقطة الصفر. تنهدتُ متحسراً وفكرت أنه لو دامت حالنا هكذا، سنخسر تجربتنا هذه أيضاً).

*(ابراهيم الخليل) منطقة حدودية تقع على الحدود التركية العراقية، تُعد مدخلاً رسمياً للتبادل التجاري والسفر بين البلدين، هي الآن تحت سيطرة حكومة الإقليم بعد أن انسحبت الحكومة المركزية منها بعد عام1991، ما تسببَ في اندلاع التناحر الداخلي بين الحزبين الحاكمين، لخلاف بينهما على كيفية توزيع وارداتها.

" جذب منظر القلعة نظرنا أنا وصديقي: وقررنا الصعود عبر السلّم الموجود هناك، ودخلنا من البوابة إلى القلعة، فوجدنا شارعاً واسعاً يتوسط القلعة ويقسمها إلى قسمين، وفيها حمام ومسجد وبعض الدكاكين. دخلنا المسجد وغسلنا وجوهنا مما علق بنا من أتربة وغبار ونحن في طريقنا إلى أربيل. بعد أن أخذنا قسطاً من الراحة، سرنا بروية نحوالبوابة الأخرى التي كانت تأخذنا إلى جهة محكمة أربيل ثم إلى حي طيراود، فأخذنا نسير على الطريق الموجود تحت القلعة ونستدير على مهل دون أن نعرف إلى أين نذهب، باعتبارها المرة الأولى التي نسافر فيها إلى مدينة أربيل، فوصلنا إلى دكان، لكن الذي جذب نظرنا هي العبارة الموجودة على واجهة أحد المحلات . مطبعة كردستان . واجهته زجاجية وقد عرضوا فيه مجموعة من الكتب الأدبية والثقافية، كان هناك أيضاً آلة تصوير شمسية توضع على ثلاثة مرتكزات خشبية، فوجدنا شخصاً واقفاً خلفها مُنشغل بتصوير امرأة ورجل. كان هناك مَن يُراقب هذا المصور وعمله"

مملكة الروبوتات: رواية تتناول حقبة من تاريخ العراق تحكي هموم الأكراد الذين يتقاسمونها مع مختلف أطياف السكان، مع فارق التوظيف السياسي لاختلافهم القومي والسعي إلى خلق الفتنة في نسيج الشعب الواحد، لتحقيق غايات المحتل الذي مازال يحتفظ بقاعدة عسكرية لا يُستهان بها إلى هذا التاريخ.

9 789933 607159

سوريا - السويداء - الشارع المحوري
هاتف : ٢٣٠١٦١ـ ١٦ ـ٠٠٩٦٣
فاكس : ٢٣٧٠٨٨ـ ١٦ ـ٠٠٩٦٣